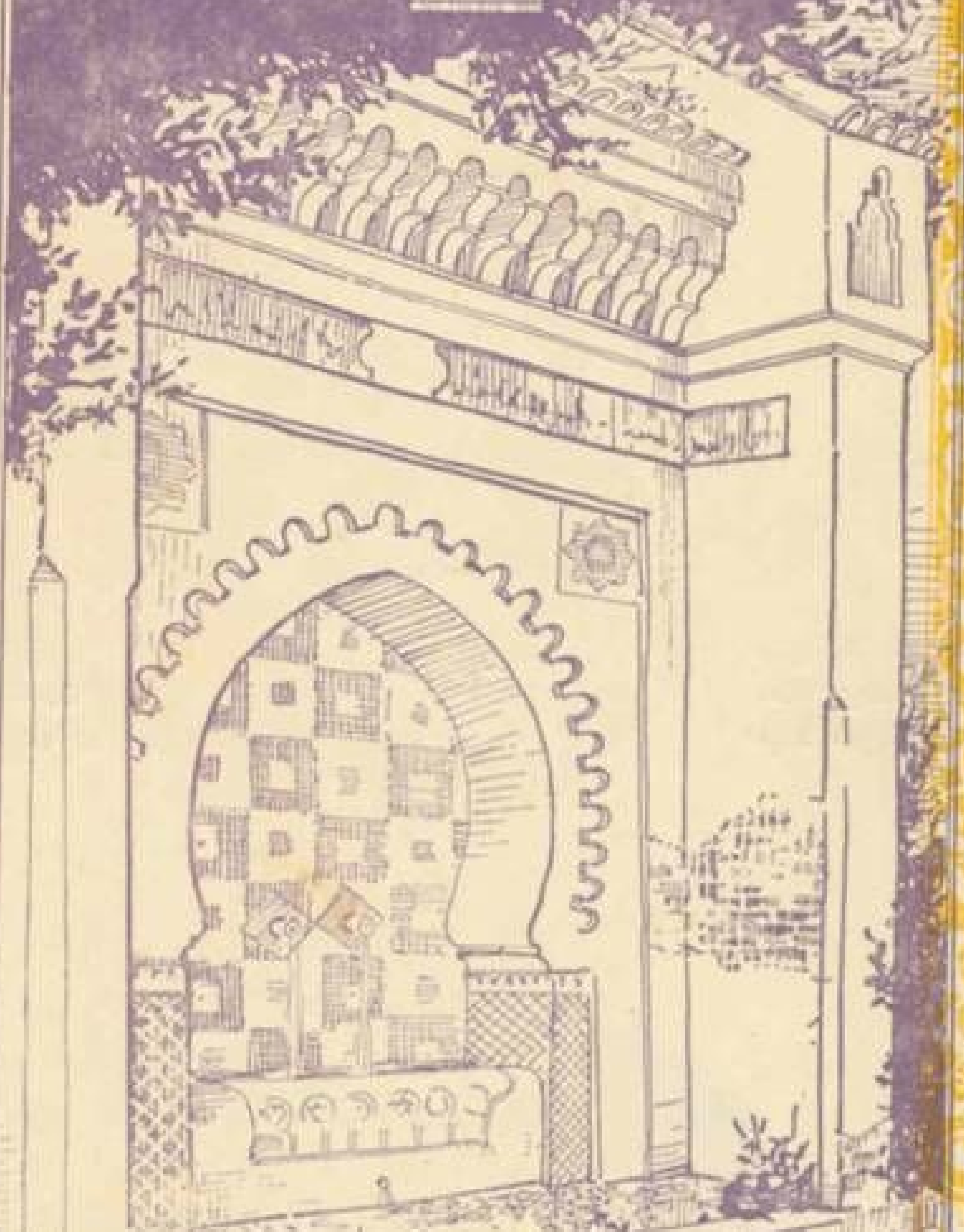
ولا غالب الا الله

تطوان



المركز الجامعي للبحث العلمي

«تطـوان»

مجـلـة للابحاث المغـربيـة الانـدلسيـة

تـنـبـيـه :

لا تقبل للنشر الا المواد المطلوبة .

المقالات المعروضة لابد ان تمضى بأسماء أصحابها .

يجب على المؤلفين أو الناشرين الذين يرغبون فى الاخبار عن مؤلفاتهم فـى مجلة «تـطـوان» ان يبعثوا نسختين الى سكرتارية هذه المجلة .

المراسلة الادبية توجه الـى السكرتيـر، وغيرها تبعث الى مدير مجلة «تطوان» :
معهد مولاى الحسن ـ تطوان (المغرب)

ثمـن النسـخـة :

المغـرب، اسبانيـا وفـرنسا : سنـة واحدة .... 12,50 درهم

فـى باقى البـلاد : سنـة واحدة .... 9 دولارات

تطوان

مجلة للأبحاث المغربية الاندلسية

منشورات
المركز الجامعي للبحث العلمي

معهد مولاي الحسن
للأبحاث المغربية الأندلسية

تطوان

مجلة للأبحاث المغربية الأندلسية

العدد السابع السنة 1962

دار كريماديس للطباعة ـ شارع النصر 3 ـ تطوان (المغرب)

محمد الفاسي

الموسيقى المغربية المسماة اندلسية

سيداتي، سادتي :

طالما فكرت في القاء محاضرة في موضوع الموسيقى التي صرنا نطلق عليها اسم الموسيقى الاندلسية تبعا للاصطلاح الفرنسي او الاوربي على وجه العموم، والحالة أننا كنا نسميها بلغتنا العامية «الآلة» تمييزا لها عن الموسيقى التي تؤدى بدون آلات، وهي «السماع» وكان المثقفون من ادباء ومؤرخين يسمونها موسيقى مطلقا بدون نعتها بأي نعت، وقد هممت مرارا للتحدث عن هذا الفن البديع بعد ان قضيت السنين الطوال في خلسة من مختلف المشاكل والواجبات في مدارسته، والبحث عن اصوله والاستماع الى أكابر الفنانين من امثال الاساتذة : البريهي، والمطيري، والجعيدي، والحاج عثمان التازي، رحمهم الله، وغيرهم من المحترفين والهواة .

واريد قبل الدخول في صلب الموضوع ان احدثكم عن بعض الذكريات لابين لكم الدوافع التي حفزتني للاهتمام بهذه الناحية من مظاهر الحضارة .

لما كنت طالبا بباريس، كان من حسن الصدف ان تعرفت بالمغرب قبل سفري الى فرنسا بأحد الادباء الفرنسيين هو الكاتب «اميل ديرمنكيم» مؤلف «حياة محمد» صلى الله عليه وسلم. وكان هو الذي اوحى الي بالذهاب الى فرنسا لمتابعة الدراسة العالية، بعد ان احصل على شهادة البكالوريا لان المدرسة الثانوية الادريسية آنذاك لم تكن تؤدي الا لشهادة الدبلوم، ولما حللت بباريس كان لي هذا السيد الفاضل احسن دليل على روح الحضارة الغربية الحقة وكان مولع بالفنون الجميلة من رسم ونحت وموسيقى فكان كل يوم احد يأخذني الى المتاحف الكبرى وبالخصوص الى «متحف اللوفر». وفي الليل نذهب للحفلات الموسيقية التي تعطى في قاعات خاصة مثل كافوربليبل، ولم اكن افهم تلك الموسيقى ولا اتذوقها وانما كانت تظهر لي انها شيء عظيم يبهر بقوته ونظامه، وكانت الاجواق تتركب من اكثر من

محمــد الفــاسـي

الموسيقـى المغربيـة المسمـاة اندلسية

سيداتي، سادتي :

طالما فكرت في القاء محاضرة في موضوع الموسيقى التي صرنا نطلق عليها اسم الموسيقى الاندلسية تبعـا للاصطـلاح الفرنسي او الاوربي على وجه العموم، والحالة اننا كنا نسميها بلغتنا العامية «الآلة» تمييزا لها عن الموسيقى التي تـؤدى بدون آلات، وهـي «السماع» وكان المثقفون من ادباء ومؤرخين يسمونها موسيقى مطلقا بدون نعتها بأى نعت، وقد هممت مرارا للتحدث عن هذا الفن البديع بعد ان قضيت السنين الطوال في خلسة من مختلف المشاكل والواجبات في مدارسته، والبحث عـن اصوله والاستماع الى أكابر الفنانين من امثال الاساتـذة : البريهـي، والمطيرى، والجعيدى، والحاج عثمان التازي، رحمهم الله، وغيرهم من المحترفين والهواة .

واريـد قبل الدخول في صلب الموضوع ان احدثكم عن بعض الذكريات لابين لكم الدوافع التي حفزتني للاهتمام بهذه الناحية من مظاهر الحضارة .

لما كنت طالبا ببـاريس، كان مـن حسن الصـدف ان تعرفت بالمغرب قبل سفري الى فرنسا بأحد الادباء الفرنسيين هو الكاتب «اميل ديرمنكيم» مؤلف «حياة محمد» صلى الله عليه وسلم. وكان هو الذى اوحـى الى بالذهاب الى فرنسا لمتابعة الدراسة العالية، بعـد ان احصل على شهادة البكالـوريا لان المدرسة الثانويـة الادريسيـة آنذاك لم تكن تؤدى الا لشهادة الدبلوم، ولما حللت بباريس كـان لـي هذا السيـد الفاضـل احسن دليل على روح الحضارة الغربية الحقة وكان مولع بالفنون الجميلة من رسم ونحت وموسيقى فكان كل يوم احـد يأخذني الى المتاحف الكبرى وبالخصوص الى «متحف اللوفر». وفي الليل نذهب للحفلات الموسيقية التي تعطى في قاعات خاصة مثل كافوويلييل، ولم اكن افهم تلك الموسيقى ولا اتذوقها وانما كانت تظهر لي انها شيء عظيم يبهر بقوته ونظامه، وكانت الاجواق تتركب من اكثر من

مائتي عازف بمختلف الآلات، والحاضرون صموت كأن على رؤوسهم الطير لا يهمسون وكأنهم لا يتنفسون. تظهر عليهم امارات الاكبار والاجلال لما يسمعون، وكان صديقي «دير منكيم» قبل الدخول وبعده يشرح لي المعاني التي ينطوي عليها برنامج الحفلة ويحاول ان يجعلني ادرك تلك المعاني واحسها، وكثيرا ما كان يعزف لي على البيان بمنزله قطعا لبتهوفن وشوبان وموتسارت وغيرهم من اساطين الموسيقى الغربية مبينا ان الالحان تؤدي معاني بدون الفاظ، وان كل من كانت له ثقافة موسيقية وذوق سليم عند ما يسمع قطعة ولو لم يتقدم له سابق معرفة بها يفهم ما اراد ان يعبر عنه مؤلفها، فصرت اقول مع نفسي من ذلك الوقت وقد اخذت ألمس شيئا طفيفا مما كان يلقنني اياه استاذي المتطوع : حيث ان الامر هكذا فلا شك ان موسيقانا هي بدورها تعبر عن معان خاصة وكل نغمة من نغماتها تترجم عن عواطف واحساسات تؤثر فينا وتلتذ لسماعها ولكننا لا نستطيع تشخيصها بكيفية دقيقة .

وما رجعت الى المغرب حتى شرعت في البحث عن هذه الضالة وقد ساعدتني ظروف مواتية للقيام بهذا العمل الذي جعلته هجيراي في اوقات الفراغ، وكان محل والدي الفقيه القاضي سيدي المهدي الفاسي حفظه الله من هواة هذا الفن، وقد سهر على اعطاء ثقافة موسيقية لابنائه خصوصا لولده الاستاذ عبد الكبير، ومن حسن الصدف ان يحضر هذه المحاضرة التي هي الا نتاج مداولاتنا ومناقشاتنا في هذا الموضوع اذ كان منزلنا بقرية ابن سليمان اولا، ثم بابن الرشيد ثانيا، ومنزل صديقنا رئيس جمعية هواة الموسيقى الحاج ادريس ابن جلون بالدار البيضاء بمثابة معهدين للموسيقى يؤمهما كل الفنانين الكبار في جل ايام الآحاد والعطل، وكانت غايتي انا هي البحث عما ينطوي تحت تلك النغمات العذبة الجميلة المؤثرة، وكنت في نفس الوقت ابحث في الكتب المؤلفة في الموسيقى العربية علني اجد اشارة او امارة تنير امامي الطريق فلا اجد الا كلاما حول الطبائع الاربع وعلائقها بالطبوع. وما تكلمت مع شخص في ما توحي به نغمات الآلة الا وسمعت في الجواب لفظة الطبائع، حتى صرنا نتندر بهذه المسألة وننتظر هذا الجواب بمجرد القاء السؤال. وكذلك يشيرون الى علاقات النوبات بأوقات النهار، وسنرى ان لهذه المسألة بعض الاصل، وطالت معاشرتي لطبوع الآلة وميازينها واستماعي اليها حتى اخذت تنطبع في نفسي بعض الاحساسات فكنت ابديها للرفقاء وبعد التمعن في تفهمها يقاسمونني الراي

حتى تكونت لدى فكرة عن كل المعانى التى تؤديها كل نوبة من النوبات الاحدى عشر التى لا تزال مستعملة الى الآن.

وانى اعتبر هذا الذى توصلت اليه فتحا كبيرا، يجب ان يكون اساس ترقية هذا الفن واصلاحه والمحافظة عليه، ونتائج هذه الدراسات الطويلة هى التى اريد ان اعرضها عليكم اليوم ولاول مرة فى مفتتح هذا الموسم الثقافي، فلذلك سوف لا تكون محاضرتى الا من نوع الابحاث التاريخية التي لها فائدتها لا شك، ولكنها لا تشفى غليل ما تتطلبه الروح من الاستمتاع بالفن الموسيقي على احسن الوجوه، ولا من نوع الدراسات العلمية التى تستند الى علم الاصوات والحساب مما ليس من اختصاصى، إلا أنه يلزم قبل ان نعرض عليكم هذه المعانى التى ينطوى عليها كل طبع من طبوع الآلة ان نتعرض بايجاز الى اصل هذه الموسيقى ثم ان نشرح ما هى النوبات ومن اى شيء تتركب وكيف تؤدى .

اما اصلها فلا جدال انها موسيقى عربية اندلسية مغربية صميمة ولدت على ضفاف دجلة والفرات ونمت هناك تحت تأثيرات مختلفة فارسية ورومية مكنتها من الاسس العلمية التى ترتكز عليها، ونقلها الى الاندلس «زرياب» الموسيقى البغدادى الشهير، وهناك تأثرت من جديد بمأثرات مغربية، بما كان من الاتصال الوثيق بين العدوتين وقد حقق علماء تاريخ الموسيقى انها لم تتأثر مطلقا بالجانب الاسبانى وانها بالعكس اثرت فى الموسيقى الكنيسة مما لا نزال نلمسه فى ما يسمى بالموسيقى «الكريكورية»، وقد سمعتها بكنيسة بباريس، وهى اقرب شيء لموسيقانا. وقد انتقلت من ذلك الوقت الى المغرب كما انتقلت الى تونس حيث تسمى «المألوف» والى الجزائر حيث تدعى «الغرناطى» كما انها بالمغرب لم تركد فى الاول بل نمت وزاد فيها المغاربة طبوعا وميازين وادخلوا فى الميازين المعروفة صنائع جديدة، لذلك لا اعتبرها اندلسية محضة، اذ بالنسبة الينا فانها على الحالة التى أوصلها اليها المغاربة موسيقى مغربية لها اصول اندلسية عراقية .

والآن ما هى هذه الموسيقى ؟ انها مجموع وحدات موسيقية كبرى تدعى كل واحدة منها نوبة، وقد اختلف فى اصل هذه الكلمة، واقرب شيء الى القبول هو انه عند ما كان الموسيقيون الكبار يأمرون من لدن الخليفة بالعزف يتقدم كل واحد بما اخترعه، ويعزف دوره، ثم تأتى نوبة غيره، وهكذا كل واحد يقوم بتأدية «نوبة»، فاطلقت لفظة «نوبة» على مجموعة موسيقية، هذا فى الاصل واما فى اصطلاحنا الحالى فذاك ما سنبنيه بعد

هذا، ثم ان النوبة تكون لها نغمة خاصة تدعى طبعا. ويتكون الطبع من نقط خاصة، ويقول ابو عبد الله محمد ابن الحسين الحايك في مقدمة الكتاب، الذي جمع فيه اشعار الآلة التي كانت معروفة في وقته، ولنا اليه رجعة : «وطبوع كثيرة يطول ذكرها وتنتهي الى ثلاثمائة وستة وستين كما وقفنا عليه في غير ما تاليف» وكانه يريد ان يقول: انه كان لكل يوم من ايام السنة الشمسية حتى الكبيسة منها طبع خاص ولهم ولوع يمثل هذه الموافقات من ذلك على سبيل المثال ما ورد في آخر مخطوط حديقة الازهار في شرح ماهية العشب والعقار لابي القاسم الغساني (1) : «وجملة ما احتوى عليه هذا الشرح من المفردات دون المكرر 365 مفرد بعدد ايام السنة»

اما الطبوع التي كانت لها نوبات، اى وحدات موسيقية كاملة بكل ميازينها، فلا ندرى كم كان عددها والغالب على الظن ان الموسيقيين كانوا اذا أرادوا ان يضعوا قطعة موسيقية للتعبير عن عواطف خاصة يؤلفون بعض النغمات الى بعضها، حسب احساساتهم واذواقهم فيتكون منها طبع ثم ينظمون او يختارون شعرا معروفا يؤدى معانى تلك العواطف المناسبة للطبع ويسبكونها في ميزان خاص، اى حسب ايقاع مضبوط له ووحدة ايضا تؤدى في زمن محسوب وتسمى هذه الوحدة «الدور» وقد كان عدد الميازين كذلك كبيرا الا انه انحصر عند اهل الاندلس في اربعة وزاد المغاربة ميزانا خامسا هو «الدرج» الميازين الاربعة الاخرى هي «البسيط» ولا علاقة له بالبحر العروضي المسمى هكذا بالاقل في الصورة التي آل اليها هذا الميزان عند ما صار يطلق عليه هذا اللفظ وربما كان في الاصل الاول يتركب من اشعار من بحر البسيط فقط، ثم يليه «القائم ونصف» ثم «البطايحي» و «القدام» ولا ندرى وجه تسميتها بهذه الاسماء. اما الدرج فقد ادرجه المغاربة في البطايحي لذلك اطلقوا عليه هذا الاسم والدرج لا وجود له في المالوف ولا في الغرناطي ويطلقون بالجزائر وبتونس هذه اللفظة على القدام، ويعرف الميزان ويضبط بما يسمى «التوساد» وهو الضرب باليد اليمنى على راحة اليد اليسرى أو بالآلة المسماة «الطر» .

وعلى ما تقدم فان كل نوبة كاملة عند المغاربة تتركب من خمسة ميازين وحيث ان مجموع النوبات التي بقيت محفوظة عندنا احدى عشرة، فمجموع ميازين الآلة خمسة وخمسون ومن هنا يقال «ضربت عليه الخمسة والخمسون» ولكن في الواقع ضاع منها ثلاثة وهي (قائم ونصف الرصد)

---

1) مخطوط الخزانة العامة رقم 1686

و (قائم ونصف الحجاز المشرقي) و (درج رصد الذيل) وان كان من جهة اخرى لنا الامل الآن في العثور على بعض الصنائع منها بفضل تنقيب جمعية هواة الموسيقى في مختلف المراكز التي حافظت ببلادنا على هذا التراث الجليل .

وبعد ان عرفنا من اي شيء تتركب النوبة ينبغي ان نعرف كذلك اجزاء الميزان، كل ميزان يتركب من قطع موسيقية مستقلة تسمى كل واحدة منها (صنعة وتجمع على صنائع. وكل صنعة لها وحدة خاصة وتؤدى في زمن محدود يعرف بعدد ادوارها، فالصنائع الصغيرة تتركب من ثلاثة ادوار الى عشرة والمتوسطة من عشرة الى عشرين والكبيرة من عشرين الى اربعين او اكثر، وهناك بعض الصنائع العظيمة قد تبلغ ستين دورا وهي قليلة ولا يحفظها عادة الا المبرزون من الآليين وكبار الهواة، وهي صعبة التأدية وتكون لها روعة واجلال كيف ما كانت المعاني التي تؤديها النغمة. ومن هذه الصنعات الكبيرة (تصدرة بسيط رمل الماية) وستسمعونها عند الكلام على معنى هذه النغمة، اما الشعر في الموسيقى فما احتيج اليه قبل كل شيء الا لايداعه النغمات حسب ترتيب خاص لتحفظ، لان العرب لم يهتدوا الى وسيلة لتسجيل النغمات بالكتابة، وان كانوا عمدوا الى محاولات في هذا الباب لا اريد ان اتعرض لها الان حتى ابقى في الخطة التي رسمتها لهذه المحاضرة ـ ولم يكفهم الكلام لجعله يطابق كل اجزاء الانغام التي يعبرون بها عن عواطفهم، فعمدوا الى حروف وحركات يكررونها من نوع ما نراه في الاغاني الشعبية الغربية التي لها شبه من هذه الناحية فقط بموسيقانا لكونها وان كتبت فانها تلقن بالحفظ لان من يقبلون عليها هم من طبقات الشعب التي لا تحسن قراءة الكتابة الموسيقية فيحفظون الالفاظ ومعها كثر من الترديدات من نوع (طرا لالالا ليـر وطيـر ونطو طير ونطو طير ونطير) الغريب ان نفس هذه الحروف هي التي تستعمل كذلك في هذه الترجيعات عندنا من مثل (يا لالان طيري طان) ونحوها والتي تسمى (التراتن). والدليل على ان الكلام كله لم يقصد به الا حفظ النغمات هو ان كل قطعة تغنى اولا بالالفاظ ثم تعرف ثانيا بالآلات فقط، وذلك ما يسمى (الجواب) وكثير من القطع الموسيقية التي كانت في اصلها مجردة عن الكلام، وهو ما يسمى بالتوشية، قد ضاعت. لانها لم يكن لها جسم ترتكز عليه وتتشبث به لتحفظ وتنقل من جيل الى جيل. والصنائع من حيث اللغة ومن حيث العروض اربعة انواع : فهناك اولا الصنائع ذات الشعر العربي الفصيح، وهي نوعان : اما

ان يكون نظمها فى احد بحور الغروض العربى الستة عشر، واما ان تكون من نوع (التواشيح). وهناك الصنائع ذات الشعر العربى باللغة العامية الاندلسية وهو ما يسمى الزجل. والصنائع التى باللغة العامية المغربية ـ وهى من نوع ما يسمى «الملحون» فى غير «الالة» وهى من زيادات المغاربة فى هذه الموسيقى، تسمى «برولة» وهذه البراول تكون فى ميازين القدام وتتركب منها كل الادراج لانها من اختراع اهل المغرب، كما قدمت. ولكن الصنعة الاولى من الدرج تكون دائما بشعر عربى فصيح فى بحر الكامل، كما يتخلل الدرج بعض الصنائع البسيطة من بحور الخفيف أو الوافر أو البسيط او المتقارب. وللتمثيل المبرولة يسمعكم الان الجوق برولة من قدام الاستهلال وهى :

يـا لعنس طلعت بدر التمام	يـا ذات المحيا الجميل
فـاق جمالك طلعت الثريا	والشمس الواسمة
حرمت جمالك يا قد العلام	يـا مولات التهليل
زرنى يـا زينة السميا	بجمالك حاكمة
اغزالى كان غشاك المنام	مـا زال الليل طويل
خدى راحة سندى عليها	مولاتى فاطمه
ربى عطاك صولى	بالحسن يا غزالى
سمعى غنا سجولى	والنوم ما زهى لى
لا تنهرى رسولى	يـا عنس الغوالى

حظره نقيم لك يا ريم يالحظ الرشا النايم

سالى سليم ماتى هميم	بين السرور والنعايم
فرح الكريم لنا يديم	ويعود فرحنا دايم

وهى قصيدة ملحون تلحن فى الآلة وكثير من بروال الآلة يعرف اسماء شعراء الملحون المغاربة الذين نظموها .

ثم ان تادية الصنائع تكون اما بكيفية بسيطة اى يكون تلحين الشعر كانه مجرد انشاء بدون تقطيع ولا ترجيع ولا زيادة، تلك التراتين التى اشرنا اليها، وهذا النوع يسمى تخليلة، وكثيرا ما يكون فى القدام ويكون من بحر البسيط وللتمثيل له تسمعون الآن تخليل القدام الحجاز الكبير وهى :

لافرق الله شمل العاشقين ابدا حتى يعود الحصا غصنا باوراق
وتنبت الخمر في الشان شاربها ويضحك الكاس عجبا من الساقى

وتارة تكون التادية مشكلة منوعة تحتوى على تكريرات وترجيعات وتراتن وهذا ما يسمى بالشغل، فالصنعة المشغولة هى المحتوية على هذه الاشياء التى تعطيها صبغتها الخاصة وبنسبة كثرتها او قولها تكون صعبة او سهلة، وستسمعون بعد هذا صنائع «مشغولة» .

يا حلو الكلام انعم لى وجد
الجفا حرام يكفيك الصدود
داوى المستهام من ريقك وجد
ريقك يا غلال رشفة شفا
امحلا الوصول من بعد الجفا

ثم ان الصنائع اربعة انواع، من حيث عدد الابيات التى تتركب منها، ومن حيث القسم منها الذى يتم فيه التلحين. وابسطها ما يتركب من بيتين، ينشد الاول ويكمل فيه تلحينه، ثم يجاب عنه اى يكرر عزفه بدون كلام. ثم يقال البيت الثانى على هذا النحو، والنوع الثانى وهو يتركب كذلك من بيتين الا ان التلحين يتم فى الشطر الاول، ويكون الشطر الثانى مثل الاول والشطر الاول من البيت الثانى ويسمى الكرسى يكون له تلحين خاص، ويجاب عنه، والشطر الثانى منه يلحن مثل الشطرين الاولين ويكون كالخروج، والنوع الثالث هو الصنعة الخماسية لانها تتركب من خمسة ابيات تلحن على هذه الصورة : البيت الاول هو الدخول يلحن بكيفية خاصة ثم يليه بيتان يلحنان مثله ويسميان وسط الصنعة، ويقال لهما «الكرش» كذلك، والبيت الرابع يلحن بكيفية اخرى، ويسمى «تغطية الصنعة». والبيت الرابع يلحن بكيفية اخرى، ويسمى «تغطية الصنعة». والبيت الخامس يلحن مثل الثلاثة ويسمى «الخروج» ويتم تلحين الصنعة على هذا فى البيت الاول والرابع لان الثانى والثالث والخامس تكرير للاول، والنوع الرابع هو الصنائع السباعية وكيفية تلحينها ان يكون البيت الاول هو «الدخول» فينشد شطره الاول ويجاب عنه، وتارة يعاد وتارة لا يعاد. ثم ينشد الشطر الثانى، ثم يلى الدخول «الوسط» ويتركب من اربعة ابيات يلحن أولها بكيفية خاصة وتكون الثلاثة الاخرى مثله ثم يقال البيت السادس وهو «الخروج» ويكون كالاول على العادة فى مطابقة الخروج للدخول، ثم يقال

البيت السابع ويلحن على نحو ابيات الكرش. وتختلف عدد الصنعات في كل ميزان الا ان كيفية توزيعها داخلها تتبع نظاما واحدا هو الذى نريد ان نشرحه الآن وفي نفس الوقت نذكر كيف يؤدى الميزان لمن اراد ان يعزفه بتمامه وبدون ان ينقص منه شيئا وهو ما يسمى «بالميزان المكرط» في اصطلاح اصحاب الفن. فأول ما يبتدأ به ما يسمى «بالمشالية»، وهو نوع افتتاح تنسجم اثناءه الآلات ويستعد منه الفنانون لمواجهة الميزان، وكانت المشالية في الماضي تسطبغ بصبغة ارتجال يقوم به رئيس الجوق فينقل من نغمة الى نغمة غير متقيد بقاعدة ولا ميزان خاص. ولكن ذلك، مع انخفاض المواهب، آل الى نحو فوضى لا تليق بما يجب ان تتصف به الموسيقى من انتظام وتناسق ـ ففكر احد كبار الموسيقيين وهو سيدي عمر الجعيدي رحمه الله في ادخال اصلاح على المشالية وذلك بأن يرتب العزف الصامت على بعض القطع، تنتخب من عدة نغمات، والمشالية اليوم حسب النظام الجارى به العمل تترتب هكذا عراق العجم، رمل الماية، رجوع لعراق العجم، الحجاز الكبير، الحجاز المشرقي العشاق، رجوع للحجاز المشرقي، رصد الذيل، ثم الاختتام كذلك بالحجاز المشرقي، وتسمى هذه (المشالية الكبرى) تدخل فيها ست نغمات ومن الممكن وانا اقترحه بهذه المناسبة على كبار المعلمين ان يدخل فيها النغمات كلها، وهذا نوع ابتكار لا يمس بهذا التراث ولا يفسده هذا وهناك مشالية صغيرة يقتصر فيها على الحجاز المشرقي، والآن تسمعون المشالية الكبيرة، ثم بعد المشالية ينشد طبع النغمة التى يراد عزف ميازينها اذا كان معروفا لان كثيرا من هذه الطبوع قد ضاع، وهى عبارة عن انشاد ينشده كل افراد الجوق، وقد قلت عادة المطربين في استعمال الطبع، ولا شك في قلة هذا الاستعمال يرجع لضياع اكثر الطبوع وتسمعون الآن كمثال للطبع «طبع الزيدان»، وقد ضاعت نوبته وبقيت بعض الصنائع مدمجة في نوبة الرصد .

لقد زادني الزيدان شوقا على شوقي الى المصطفى خير البرية احمدا
واطربني بعد السكون فصرت لا احب من الاشياء الا محمدا

ثم بعد ذلك يعزف الجوق ما يسمى بالبغيمة وهي قطعة صغيرة بدون كلام ولا تنطوى تحت ميزان من الميازين الخمسة ولكل نوبة بغيتها، وهي التى تعطى خصائص النقط التى تتكون منها نغمة النوبة ثم ينقلون لعزف توشية النوبة وهي قطعة بدون كلام كذلك ولا تنطوى تحت ميزان خاص، ولكن

الحاج ادريس بن جلون يرى ان ميازين كل تواشى النوبات البسيط، وهنا ينبغى ان اشرح لكم ما هـى التـواشى وما هى انواعها. ان هذه المجموعات الموسيقية التى نطلق عليها اسم التواشى من أجمـل مـا تحتوى عليه الآلـة فهى مقطوعات تؤدى بدون كلام الا ان هذا عرضها لخطر الضياع كما اشرنا اليه من قبل، لذلك عمد بعض الهواة الـى تعميـر بعضها. ومن ذلك توشية غريبة الحسين التى عمرها الشاعر العلامة سيدى حمدون ابن الحاج رحمه الله والتوشية كما يدل عليه اسمها نوع من التطريـز والتزويـق. وهناك اربعة انواع من التواشى :

أولها : تواشى النوبة وهى التـى اشرنا اليها وتعزف قبل البسيط لانه اول ميزان فى الترتيب المغربى ولكن يمكـن ان تعـزف قبـل اى ميزان، ولكل من نوبات العشاق والرصد ورمل الماية والماية ورصـد الذيل واصبهان توشية واحدة، ولكل مـن غريبة الحسين والاستهلال وعراق العجم والحجاز الكبير توشيتان. اما الحجاز المشرقى فيمتاز بكونه له سبع تواشى، وعليه فعدد تواشى النوبات احدى وعشرين توشية. النوع الثانى تواشى الميزانين القدام وقائم ونصف. وهذه التواشى تعزف قبل الشروع فى الميـزان ولكل قدام توشية وتتبعه فى الايقاع كما ان لكل قائـم ونصف توشيـة من وزنه كذلك باستثناء غريبة الحسين وعـراق العجـم فقد ضاعتا وباستثناء قائم ونصف الرصد والحجـاز المشـرقـى الضائعيـن مطلقا وعليه فعدد تواشى الميازين ثمانى عشرة توشية. النوع الثالث تواشى داخل القدام وتعزف فى اواخر بعض الصنعات من القدام فى كل النوبات وتبلغ عددها نحو الخمس والاربعين. النـوع الرابـع تـواشى داخـل البطايحى والقائم ونصف، ومن الغريب أن ميزانهـ: درج فكأنها كذلـك مـن اختراع المغاربة وزياداتهم وهى قليلة لا توجد الا فى نوبـات ثلاث وهـى المايـة «البطايحى : ثنتان» وعراق العجم (البطايحى : واحدة) الحجاز الكبير (البطايحى : ثنتان، القائم ونصف: واحدة) ويوجد درج واحد فيه توشية داخلية من هذا النوع هو درج المشرقى (صنعة يا مليح) وعليه فعدد تواشى هـذا النـوع الـرابـع سبع. ومجموع تواشى الآلـة نحـو التسعيـن، والسر فـى الابتداء بها هو تهييج النفس وتنبيه السامع على غرار اساليب الشعر العربى القديم حيث كـان الشعراء يقدمون التغزل والتشبيب بين يدى اغراطهـم، وقـد تنبه لهذا المعنى شاعر سبتة مالك بن المرحل حيث قال : ضل المحبون إلا شاعرا غزالا يطارد المدح بالتشبيث اطوارا لا يذكر الحب الا فى مدائحه دعوى ليمتع اسماعا وابصارا

كناقر العود وشى فيه توشية، وبعد ذلك غنى فيه اشعارا (2) ويعزف الآن الجوق كمثال لتوشية من هذه الانواع التى شرحتها لكم توشية قدام الحجاز الكبير، وبعد هذه المقدمات يشرع الجوق فى عزف الميزان وتسمى الصنعة الاولى منه (التصدرة) وتكون عادة بطيئة تتلوها صنعات تشبهها وتسمى (الصنعات الموسعة) الا انها تكون كل واحدة اسرع من التى قبلها، ولكن ليحس الفرق بين صنعتين متصلتين ثم يظهر فى احدى الصنعات تسمى (القنطرة الاولى) بعض الاسراع تتلوها صنائع من نوعها ثم تأتى الصنعة التى تسمى (القنطرة الثانية) وفى كثير من الميازين لا يظهر الانتقال من البطء فى الايقاع إلى الخفة والاسراع إلا فى هذه الصنعة التى كثيرا ما يطلق عليها اسم القنطرة مطلقا، بحيث اذا قيل القنطرة يقصد بهذا التعبير القنطرة الثانية، ثم ينتقل الجوق لتادية ما يسمى الانصراف وهو مجموع الصنائع التى تلى القنطرة الى نهاية الميزان وتكون كلها سريعة الا أن التادية تزيد سرعة كلما اقترب الموسيقيين من الختام، وقد يقف أحيانا الجوق وسط تادية الميزان ويعمل عند ذلك أحد المستمعين إلى انشاد (البيتين) ثم بعد ذلك تستمر تادية الميزان ويسمى القسم الذى يليه «البيتين» (التغطية) والصنعة الاخيرة من الميزان تسمى (القفل)

هذا سيداتى وسادتى ما يجب معرفته كمقدمة لتفهم هذه الموسيقى السامية التى تمتاز بايقاعاتها الفريدة التى لم يبلغها اى نوع من انواع الموسيقى العالمية لشهادة كبار المتخصصين لدراستها من الغربيين امثال فارمر الانجليزى وروانى والبارون بيير لانجى الفرنسيين ودى لاريابالاسين الاسبانى وغيرهم، وان الاهمية المعطاة للميزان او الايقاع فى الآلة جعلت هؤلاء الباحثين يولونه عناية خاصة ودرسا مفصلا مع بيان تنوعه داخل قواعده الثابتة من تادية وئيدا وخفيفا وسريعا، ومع سكتاته ووقفاته، ولكنهم لم يتعودوا هذه الناحية فى بحثهم ومنعتهم طبيعتهم الاجنبية من التعمق فى معرفة ما تنطوى عليه نغمات الآلة من معان وقد اعترف بهذا روانى حيث يقول بعد أن اشار الى ما يذكر من ان كل نغمة تناسب وقتا خاصا من النهار :

«وليمكننا أن نفهم الآن هذه الرقائق يجب علينا ان نحيى من جديد الفكرة العربية وان نحس مثل ما كان يحس المعاصرون لمطربى غرناطة

2) سنن المهتدين فى مقامات الدين للامام المواق (طبعة فاسية سنة 1394) ملزمة 10 ص 2.

وتكون لنا عقلية موسيقية مجردة عن تربيتنا الفنيـة وشبيهة بعقلية مسلمـي بغداد والمدينة واشبيلية» (3) لكل هذه الاعتبارات انصف الغربيون كما قلنا لدراسة الموسيقى عنـد العرب مـن الناحية الخارجية فقط اى بالاستناد الى العلوم الموسيقية النظرية عند أمثال الفارابى ومن الناحية التطبيقية فيما بقى من التراث الموسيقى الى هذا العصر بالمشرق والمغرب، واما تذوقها وتفهم معانيها فهذا شيء فقده حتى اصحابه لم يجرأ احد من الباحثين على ولوج هذا الباب لانهم لم يجدوا ما يستندون عليه، وما يفتح ولو نافذة صغيرة على هذا العالم الساحر المغفل ومن اغرب النصوص التى وقفت عليها للدلالة على ان معانى الموسيقى زالت من ذاكرة العرب انفسهم هو ما رأيته اخيراً فى إحدى رسائل ابن حزم العظيم، رذلك حيث يقول فـى رسالة مراتب العلوم: «منها ما درس رسمه ودثرت اعلامه... ومن ذلك علم الموسيقى واصنافها الثلاثة فان الاوائل يصفون انه كان منها ما يشجع الجبناء وهو اللون ونوع ثان يسخى البخلاء واظنه الطنينى ونوع ثالث يؤلف بين النفوس وينفر وهذه صفات معدومة من العالم اليوم جملة» (4).

فاذا كان اهل الاندلس والمغرب نسوا هذه المعانى منذ القرن الخامس، ومع ذلك حافظـوا لنا على كثير مـن الطبـوع والنغمـات بدون ان يعرف لا الهواة منهم للموسيقى ولا المحترفـون ما منهـا يثير الانبساط وما يعبر عن الحزن والاسى فان فضـل هـذه الاجيـال المتعاقبـة التى مكنتنا من التمتع الروحى بهذه الذخيرة الفريدة لفضل عظيـم. لذلـك ارانـى ايضا احس ولا فخر بأن هذا البـاب الذى الهمت الى فتحه سوف يكون له اكبر الآثار على دراسات موسيقانا. واذا كنت توصلت الى معرفة معانى الطبوع المستعملة، كما ساشرحها لكم، فان الطبـوع التى لم يبق منها الا صنائع قليلة ادمجت فى النوبات الاحـدى عشـر التـى كابرت الدهر وافلتت من الضياع يتطلب تفهم معانيها مراسا طويلا بعـد ان تفصل هذه الصنعات عن جاراتها وتؤدى مستقلة، ثم ان المعانـى التـى ساحدثكم عنها بالنسبة لكل طبع تكون نقطة الارتكاز فى تلك النغمة، وعليـه فكـل المعانـى المقاربـة لها وكل العواطف

3) دائرة معارف الموسيقى ج 5 ص 2860

4) رسائل ابن حـزم الانـدلسى ص 59 ــ 60، وفـى تعليق على هذه الفقرة عن مفاتيح العلـوم وأن النـوع الثالـث يسمى التاليفى وأن الاول منها فحلها وهو يحـرك النفس الـى النجـدة وشـدة الانبساط، ويسمى الرجلى والثانى يحرك النفس الـى الكـرم والجـراة ويسمى الخنثوى والثالث يولد الشجى والحزن ويسمى النسوى (مفاتيح العلوم ص 140).

الشبيهة بها يمكن ان يدركها من رهف حسه وصفا ذوقه. واني اعتقد ان هذه المعاني من الوضوح بحيث ان من يسمع لحنا من هذه الالحان للمرة الاولى بعد أن يلقن معناه يدركه ويحسه، إلا انه ليتمكن من هذه المعاني وتشرب نفسه معرفتها ينبغي ان يسمعها مرارا. واترك الآن بعض التعاليق الضرورية على هذا الموضوع الى ما بعد اطلاعكم على هذه المعاني مع التدليل عليها بصنعة من كل نوبة يعزفها الجوق امامكم وينبغي الانصات اليها باحداث الصمت التام في النفس اى عدم التفكير في اى شيء آخر سوى في النغمات وما تحدثه من اثر في النفوس .

ونبدىء بطبع العشاق وهذه النغمة تدل على انبثاق الحياة وما يستلزمه من طفوح وانشراح فكل معاني الحيوية والنشاط والازدهار والتفتح تحسها في نغمة العشاق حيث يخيل اليك عند سماعه كأن الماء يفور من انابيب الصهاريج، او يتفجر من عيون ويتدفق في قوة عارمة. لذلك كانت جل الاشعار التي لم تغير وبقيت عني اصلها تصف الصباح وتدفق المياه وتفتح الازهار، وفصل الربيع والشباب، ولذلك ناسب ان يعزف هذا الطبع في الصباح. وهذا كل ما بقي من معرفة معاني العشاق واما في الواقع فالموسيقى اية كانت تناسب وتطرب في كل وقت وزمان، واذا اردتم ان تولوا كل انتباهكم للصنعة التي سيعزفها الجوق الآن وهي : (قم باكر الاصباح) من بسيط العشاق فسوف تحسون كل هذه المعاني.

قم باكر الاصباح	الفجر لاح
امزج كؤوس الراح	راحا براح
اشرب وطب وافرح	مع الملاح
قم واغتنم قبلة	من دون رقيب
لله ما احلا	وصل الحبيب

ثم بعد هذا ننتقل للحجاز المشرقي، ويطلق عليه عادة اسم المشرقي مختصرا، هذه النغمة يمكن ان تعتبر المعبرة عن كل مميزات هذه الموسيقى بل عن كل صفات الفن المغربي والاندلسي فهي تدل على كل معاني الحلاوة والرقة واللطف والحسن فهي كالنقوش البديعة التي تتجلى في الآثار الفنية المرينية، ويمكن ان نقول ان الاحساس الذي يستولى على النفس عند مشاهدة النقوش الجبسية والخشبية في المدرسة العنانية مثلا بفاس هو نفس الاحساس الذي توحيه الحان الحجاز المشرقي، وليس من الصدف ان تكون التواشي السبع التي تكلمت لكم عنها من هذه النغمة، فهي عنوان

الفنون المغربية على الاطلاق، وانني كنت في هذه السنين الطويلة وانا اتلمس هذه المعاني عند ما اتوصل الى ادراكها بالنسبة لطبع من الطبوع، واذكر أهل الفن كثيرا ما يتذكرون اشياء كانوا يسمعونها ولا يعبرونها كبير التفات حتى اذا حدثتهم بما احسه عند سماع النغمة الفلانية يقولون لذلك كنا نسمع كذا وكذا مما له اتصال بالمعنى الذى اكتشفته وشرحته لهم، ومن هذا القبيل ما قيل لى عن الحجاز المشرقي من انه يؤلف بين القلوب وانه طبع الاحبة، ومن شأن الحلاوة والرقة واللطف والحسن ان يؤلف بين القلوب وان تكون الرابطة بين الاحبة وستلمسون كل هذه المعاني عند الانصات إلى صنعة (يا حلو الكلام فى قدام الحجاز المشرقى). ثم نتكلم على اصبهان هذه النغمة تعبر عن الاستعطاف والتودد والرجاء والرحمة، وكل معانى التوجه بذل، وخضوع لنيل المرغوب، وقد كنت بقيت اتحسس المعنى العميق لهذا الطبع حتى كنت يوما بابن سليمان وانا انصت لقدام اصبهان فأحسست كأن ايدى تمد متشفعة ضارعة، فقلت هذه النغمة تعبر عن معانى الاستعطاف ومن العجب انه فى نفس تلك الساعة التى تجلت لى فيها معانى هذه النغمة القيت السؤال على أحد المستمعين ممن كان يبحث مثلى فى جماعتنا عن معانى الآلة قائلا له : ماذا تعبر عنه هذه النغمة ؟ فأجاب فى الفور : تعبر عن الاستعطاف وعلى اثر هذا تخيل الاستاذ عبد الكبير الفاسى فى توشية القدام قصة غرامية تدور محورها حول الرجاء والاستعطاف فاذا سمعتها وطبقت عليها تلك المعانى تظن كأن واضع التوشية فكر فى تلك القصة، ثم بعد ذلك صرت اسمع ان المتسولين يتلمسون الصدقات بنغمة اصبهان وانه يقال ان خرصة الجنة تطرق باصبهان، بل قال الحايك فى كتابه «ان ملائكة الرحمن وحور الجنان يسبحون بنغمة الاصبهان» وصنعة يا صورة قمر من البطايحى التى سيعزفها لكم الجوق سوف تجعلكم تحسون هذه المعانى :

يا صورة قمر فى البشر	لا تهجر محبك
يا سلطان جميع الصغار	آش يطفى لهيبك
تسحرنى بذوك الشفار	المولى حسيبك
اعلاش يا كحيل العيون	بذوك الجفون
اللى قدر الله يكون	آش انه احتيا لى

اما الرصد فانه يدل على الاباء والنخوة والعزة والكبرياء، فكأن واضعه امير عظيم له نفس شماء وابتلى بغرام متأجج وابت عليه همته ان يتنازل فهو كلما غلبته عاطفته والجأته للخضوع ترباً به تلك العزة المتمكنة من نفسه

عن ان يظهر بمظهر الذليل فيرجع لعزته، لذلك تحس عند سماع نغمات الرصد كأن فارسا يحاول ان يسوس فرسا جامحة فيجذب اللجام اليه فتغلبه ثم يحاول وهكذا وهو فى نفس الوقت يعبر بالنسبة للمعشوق عن معانى التيه والدلال وكل هذه المعانى تدور حول الاباء والنخوة، وبانصاتكم لصنعة تهوى من الغزلان فى القدام سوف تدركون كل هذا .

تهوى من الغزلان ظبيا شرود
يزرى بغصن البان بين القدود
وحسنه الفتان يسبى الوجود
قد أسمرت عيناه هذا الغزال
لمغرم يهواه يرسل نبال

اما رصد الذيل فانه يعبر عن معانى الاستسلام والصبر والخضوع للقدر والرضى بما قضى الله وتحس عند سماعه بهدوء وسكينة يتسربان الى النفس، ولهذا يقولون (اذا طال الليل فعليك برصد الذيل) لان من شان ذلك الاستسلام ان يسلمك الى النوم ومن شأن تلك السكينة ان تساعد عليه وان صنعة واحدة لا يمكن ان تؤثر كل هذا الاثر، فلذلك لا يخشى عليكم ان تناموا عند سماع صنعة «يا من نقض عهدى» من بطايحى رصد الذيل :

يا من نقض عهدى وخان المودة
اسرفت فى البعد وهجرك تعدا
يا غاية القصد عبيدك تفدا
تبدلت طباعك وانا على العهد باقى
تهجر ما عليا آش يلك بهجرى

وقد وصلنا الى النوبة السادسة وهى غريبة الحسين والمعانى التى تعبر عنها هى الاسى والحزن والخشية التى تثير العبرة، فنغماتها شجية والحزن الذى يتجلى منها حزن عميق صامت ينبعث من اعماق القلب، وهى بهذه المثابة تعبر كذلك عن العاطفة الدينية الصوفية، وقد قيل لى بعد ان لمست هذه الصفات ان ما يقوله مشيعوا الجنائز هو فى نغمة غريبة الحسين ويحكى عن سبب وضع هذه النوبة قصة ان لم تكن صحيحة من حيث التاريخ فهى تعبر اصدق تعبير عن هذه المعانى، قالوا ان احد الامراء يسمى الحسين كانت له حظية يحبها ثم وقع منها ما جعله ينبذها ويهجرها. فلجأت

الى الموسيقى تتسلى بها من محنتها وتودعها حر جواها وحزنها، فوضعت هذه الالحان، فلما بلغت مسامع الامير صفح عنها وقربها، وقد كانت غريبة منفردة حتى كانت تنعت بغريبة الحسين لذلك سميت هذه النوبة التى الفتها باسمها وكما قلت لكم فانا لا اضمن صحة هذه القصة ولكنها من نوع الاساطير التى يقال عنها انها اصح من التاريخ. ونرى كذلك (الحايك) يقول عن غريبة الحسين : «هذا الطبع ونغماته والحانه تؤثر فى قلوب المستمعين الرأفة والتحنن وسكبان عبرات المقل» وينبغى الانصات بكل انتباه الى توشية غريبة الحسين التى سيعزفها الآن الجوق كمثال لهذا الطبع وهى التوشية المعمرة التى تكلمت لكم عنها قبل وهى :

هل لى من مداوى الهوى يداوى سقامى عاجلا
قلبى الهوى انكوى ودمعى تراه سائلا
نجمى فى الهوى هوى وحبى تراه مائلا
عن لقائى ما نوى ان يكن لدى واصلا

بغيتى منيتى

عالج يا طبيب سقمى ودائى عسى عن قريب نبلغ منائى
عالج يا طبيب قلبى الكئيب بوصل الحبيب دمعى اجمع من غير رقيب
فى روض عجيبمنعم خصيب يقول الاديب قولى ما ابدع يعجبنى الاريب
الزهر : معتبر : للنظر : لمن حظر

والنوبة السابعة هى عراق العجم ويعبر هذا الطبع عن معانى اليأس والخيبة وانقطاع الامل فى المحبوب وفى كل المتمنيات، وإنك تحس عند سماعها كمن يندب حظه وكأنك تسمع عويله، وهنا يجب ان انبه الى ان كل هذه المعانى فى كل الطبوع تعبر عنها الالحان مجردة عن الاقوال، وان اعظم فساد منيت به هذه الموسيقى، انه عند ما فقدت هذه المعانى لم يبق الموسيقيون يطربون بين الاقوال والالحان بل صارت البراعة عندهم ان يعمدوا الى ابيات من نفس البحر المنظومة فيه الاشعار الاصلية ويجعلونها عوضا عنها ويسمون هذا الافساد التركيب ويفتخرون به، وكانوا يفعلون هذا من جهة للتفوق على صغار المتعلمين الذين لا يستطيعون، فينفرد حافظ الشعر الجديد بالانشاد ومن جهة اخرى للهرب من بعض المعانى التى يتشاءم منها، واوضح مثال لهذا تصدرة قدام عراق العجم، فقد غيروا بيتيها الاولين ولكنهم تركوا بقية الابيات على ماكانت عليه، فصار اول الصنعة .

اقبلت دولة الرضى ... ومضى الهجر وانقضى

والبيت الرابع يقول :

يوم بانو احبتى ... ضاق بى وسع الفضا

وعليه فلا شك ان اول الصنعة كان ادبرت دولة الرضى لا اقبلت ومن الدليل على هذا ان اهل تطوان يستعملون كتصدرة لهذا القدام :

عند ما جئت للديار ... ودموعى على الخدود
وفؤادى على الجمار ... نارها وقود الخ..

وهى انسب لمعانى عدم بلوغ الامانى، ومن اعجب ما يتصل بهذا الطبع ما حكاه احد الشيوخ كان حاضرا بالمشور بفاس يوم 30 مارس 1912 بعد توقيع معاهدة الحماية قال : «وكان الجو مكفهرا والشمس مغطاة بالسحب القاتمة والنفوس مكتئبة والقلوب مفعمة حزنا والجوق الموسيقى اخذ يعزف قدام العراق العجم فاحسسنا كان تلك النغمات تندب حظنا وتبكى على مصيرنا»

وقد اخترنا للتمثيل لهذا الطبع الدرج وقد سمعتم فى الامثلة السابقة القائم ونصف القدام البطايحى «وسوف تسمعون البسيط» من بعد.

والآن يعزف الجوق الكامل وهو تصدرة درج عراق العجم ثم بروله «لو كان شوقى كيف دعانى دعاك» :

لو كان شوقى كيف دعانى دعاك ... لكان طرفك دائم يرعانى
انا نعاين يكمل سعدى معك ... وانت ينقص بلعانى
حب الحبيب اعذاب ... للقلب لا راحة فيه
لولا دموع الهداب ... ما كان ما يطفيه
الناكر الكذاب ... يظهر ولو يخفيه

وأما المايه هذه النغمة التى كانت من أسباب إقبال الشباب على الآلة وتذوقها بما سمعوا من بعض نغماتها التى تعلمتها ثلة من الفتيات، وصرن ينشدنها بصوت رخيم جميل فانها تدل على الافتراق والابتعاد وانتهاء مجالس الفرجة والسلوان. لذلك كانت جل اشعارها تعبر عن معانى الغروب ووصف العشايا واصفرار الشمس كما يصفر وجه العاشق عند ما يبتلى بفراق معشوقة، ولذلك ايضا اختاروا لها من الاوقات العشية واول الليل والا فانها ككل الطبوع تصلح فى كل وقت وحين، وان انس فلن انسى ابدا عشية

يوم أحد بكدية في الغابة التي تطل على ابن سليمان وكان الموسيقيون يعزفون انصراف بطايحي الماية، وكانت الشمس مائلة للغرب، والطيور راجعة للوكور، وسيارات المتنزهين راجعة باصحابها إلى منازلهم بعد قضاء يوم في نزهة واجتماع مع الاصدقاء والاحباب، فكان كل ذلك منسجما وكان تلك النغمات تصف كل ما نشاهده، اذاك فهمت ان ربط بعض هذه الطبوع بوقت خاص له أحيانا معنى يزيد في تأثير النغمة ووقعها في النفس.

وقد كان ذكر لي الفقيه العلامة الاديب الشاعر ابو العباس الازموري رحمه الله وكان قاطنا بابن احمد وكانت تجمعني واياه بعض المجالس الادبية، وكان له ولوع بالموسيقى : ان السلطان مولاى الحسن رحمه الله كان يتشاءم من الماية لانها تنذر بالفراق وتشتيت جمع الاحباء لذلك كان يأمر المطربين بعزف نوبة العشاق في العشية، ومن امثال العامة «عكس القضية، في العشية»، ولا ادري هل هذه القولة ترتبت عما ذكر ام هو مثل قديم، وان صنعة البطايحي «في كل غروب وكل عشية»، التي سيعزفها الآن الجوق تعطيكم نظرة عن هذه المعاني.

في كل الغروب وكل العشيا   لوعتي تظهر وحالي يشتهر
تفني وتذوب ويظهر عليا   وانا نهيم اكثر ولا نعدر
ما هي القلوب اشر لي من جنيا   ومن يطق يصبر على شمس النهار
افني يا شمس وفروز ومعني   اخرج بكري واعجب
تجد اوراق الجنان مرشوش   مفضض ومذهب

صنعة من قائم ونصف الاستهلال

اتلفت بالحسن منك لبي   فكيف لا يا هلال عيدي

احسن ملكي ان تطير عن جفني الوسن
سلمت انت يا حسن اما انا ففي المحن

لو كنت يوما راحم صب   ما كان هجرك في مزيد
يا ساكنا في مهجتي   ومن اليه صبوتي
احماك جد بعطفه   يا بغيتي ومنيتي

جد وصالي

وبعد الفراق يأتي التذكار وهذا ما يعبر عنه طبع الاستهلال، هذا الطبع الذي اعتبره شخصيا اجمل ما في الآلة والذي يكلل مدينة فاس

بباقة من الفخر التالد لانه ولد على ضفاف وادى الجواهر، وهو الطبع الوحيد الذى نعرف بالضبط اسم واضعه وتاريخه. واسمه الحاج علال البطلة كان ايام السعديين ويقال انه كان من الموسيقيين المرموقين وكان له باع طويل فى فنه وقد كان قريب عهد بالعصر المرينى الذى ازدهرت فيه كل الفنون فى بلادنا وقد كانت الروح الابتكارية لا تزال حية فوضع هذه النغمة الجديدة وضمنها معانى اوحت له بها لاشك كثرة مخالطته لتراثنا الموسيقى، وقد كان لا يزال يزخر بطبوعه الكثيرة المتنوعة التى تذكر بعصر ازدهار حضارتنا ايام الموحدين والمرينيين وقد لاحظ لا شك انه رغم كل هذا فان بوادر الركود بدأت تظهر فعمل على انعاش هذا الفن واراد ان ينفخ فيه روحا جديدة فكان تاليفه لهذا الطبع تحت تأثره بهذه الظروف لذلك كانت هذه النغمة تعبر عن الذكريات الحلوة والمجيدة وتحيى للمستمع ايام السلوان الخالية وتستعرض مباهج الحياة التى تمتع بها الموسيقى الموهوب الذى توفق فى تشخيص كل هذه العواطف والافكار فى مختلف ميازين الاستهلال، ويقال ان سبب تسميته بالاستهلال انه لما وضعه كان اول ما عزفه فى حفلة بالقصر امام الامير السعدى وقد استهلت بعزف هذا الطبع الجديد فسمى الاستهلال .

وان «البيتين» اللذين ينشدان للاستهلال كما وردا فى كناش الحايك يلمان عن المعانى التى يعبر عنها هذا الطبع وهذا البيتان هما :

بالاستهلال الذى تنمق ذكره	لحضرة فاس اصله ذوى الكرم
ترنم واشدوكن به مولعا	فنغمته الحسنا تهيج لى الغرام

وعلى ما فيهما من اعوجاج فان قوله «فنغمته الحسنا تهيج لى الغرام» تعبر عن فحوى معنى الاستهلال لانها تجعله يتذكر الغرام ويستحضره، ويتذكر الايام الحلوة الجميلة التى انصرمت، والتذكر يستدعى الحسرة والتفكير فى هجر الحبيب مما يقتضى محاولة الاتصال به بالرسل والكتب ثم وصف هيام العاشق عند التذكر وكل هذه المعانى نحس بها ونلمسها فى الاستهلال، وسوف تدركونها كذلك بالانصات الى صنعة «اتلفت بالحسن» فى القائم ونصف.

وبقى علينا ان نتكلم على طبعين عظيمين وهما رمل الماية والحجاز الكبير، اما رمل الماية فقد كان فى اصل كلامه فى التغزل ونحوه مثل ما هو الشأن فى كل النوبات ليتناسب الكلام مع المعانى التى تؤديها نغمات كل طبع، وقد فكر احد العلماء من رجال القرن الثانى عشر ابو العباس احمد ابن محمد بن عبد القادر الفاسى وقد كان له باع طويل فى العلوم الموسيقية

وعنه أخذ الحايك التطواني جامع اشعار الآلـة، فكـر هذا العالم الجليل في تخصيص طبع رمل الماية لتمجيد النبي صلى الله عليه وسلم لان المعاني التي يعبر عنهـا هـذا الطبـع هو العظمـة والجـلال والعـزة والسمو وكل صفات الكمال البشرى «كانت نغمات رمل الماية انسب نغمات الموسيقى للتعبير عما يكنه المسلم المخلص من تقديـر وإجـلال لمقـام الرسول عليه السلام»، وتوجد في بعض الكنانيش القديمة الاشعار التي كانـت تلحن في رمل الماية قبل ان يخصص هذا الطبع للمديح وقد نتج عن هذا التحويل ان اخذ الموسيقيون «الآليون» يحيون ذكرى المولد النبوى كل سنة بأن يجتمعوا بفاس في ضريح ابي السعود الفاسي في الصبـاح المبكـر من يـوم عيد المولد وينشدون كل ميازين رمل الماية بدون آلات وانما بالتوسيد فقط اعترافا منهم بفضل ابي العباس الفاسي في هذا المضمار، وقد استمرت هذه السنة الـى اوائل هذا القرن ثم وقف العمل بها بعـد وفاة كبـار الموسيقيين، وكنا نسمع بهذا في عائلتنا ايام طلبنا العلم ونتأسف على إن ضاعت هذه السنة فأردت مع ابن العلم الزعيم علال الفاسي احياءها، فوجدنا عند كبـار المعلمين اذاك تحبيذا وتأييدا وكان ذلك منـذ اكثـر من خمس وعشرين سنة، واقيمت بعد ذلك حفلة موسيقية رائعة حضرهـا العلـماء وهـواة الموسيقى وكل الموسيقيين الكبار، وكان اكثرهم لا يزالون على قيد الحياة، وشيخهـم الفنـان الشهير البديهي قد كان سبق له في صغره ان حضر الاحتفالات التي كانت تقام بهذه المناسبة فكان اداة الوصل بين المـاضي والحاضر، وقد استمرت عادة اقامة هذا المهرجان كل سنة الـى ان توقف لعـدة اسباب، وعسى ان توفق جمعية هواة الموسيقى باتفاق مع العائلة الفاسية الى احياءها من جديد، وقد حكيت لكم هذه القصة لما يظهر خلالها من عناية واهتمام بالموسيقى في كل الاوساط وان صنعة «صلوا يا عباد» التي هي تصدرة البسيط وقد اخترناها للتمثيل ستبرز لكم بوضوح معاني العظمة التي يعبر عنها رمل الماية :

صلوا يا عباد دايم على اشرف الورى وارضـوا عن العشرة الكرام البررة

صنعة من بسيط الحجاز

لله يـــوم عـمـنـــا فيـه التهاني والسـرور
انظـم فـيـه شملـنـا نلنـا الاماني والحبور

واخيرا نتكلم على الحجـاز الكبيـر ويطلـق عليـه عادة اسم الحجاز باختصار وقد اخترت ان اختم به الكلام على النوبات الاحدى عشرة لما تعبر

عنه نغماته من معان عميقة سامية تؤدى بالخصوص الحالة النفسية التى يكون عليها الانسان عند ما يبلغ اوج السعادة ويرى كل امانيه تتحقق ويحس بنعيم الاطمئنان ولذة الهناء حتى انها تعبر على ما يظهر لى احسن تعبير عن المقامات الروحية السامية والحالات النفسية التى تبلغها بعض النفوس بعد مجاهدات صوفية مما يعبرون عنه بالفناء وقد تضفى من جهة اخرى هذه المعانى على نغمات الحجاز الكبير حلة من الجلال والبهاء تجعل المستمعين يتأثرون لها وترغمهم على الانصات بوقار واجلال .

وان صنعة «لله يوم عمناء من البسيط تعطيكم نظرة عن هذه المعانى التى تعبر عنها نغمات الحجاز الكبير .

ولعلكم الآن بعد استماعكم لمختلف النغمات التى يتركب منها مجموع هذا التراث الفنى الفريد الذى رغم أجزائه الكثيرة التى ضاعت لايزال يكون ذخيرة ذات بال تقدرون معى اهمية هذا الاتجاه الذى اريد أن اوجه فيه المشتغلين بالفن الموسيقى فى بلادنا، ولا شك انه سيكون لنشر الثقافة الموسيقية بهذه الصورة فى المدارس وفى المعاهد الخاصة أثر فى إحياء روح الابتكاريين الموهوبين .

وعسى ان نوفق الى استخراج كل النغمات الاخرى التى ضمت الى النوبات الباقية حتى يمكننا ان ندرس معانيها وسوف يكون فيها ميدان واسع لمن يريدون التعبير بواسطة الانغام عن احساساتهم وعواطفهم والسلام .

عبد الله كنون

لما به والفاظ اخرى

بحث القي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة

اقتضاني تعبير لما به هذا سنين عديدة من البحث، وكنت وقفت عليه اول مرة فى كتاب المعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، وذلك اثناء ترجمته للوزير ابى جعفر بن عطية حين يقول فى بيان سبب نكبته : «كان سبب قتله فيما بلغنى انه كانت عنده بنت ابى بكر بن يوسف ابن تاشفين التى تعرف ببنت الصحراوية، واخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم يعرف بيحيى ابن الصحراوية فحظى يحيى هذا عند الموحدين وقوّدوه على من وحد من لمتونة ولم يزل وجيها عندهم مكرما لديهم، وكان خليقا بذلك، الى ان نقلت عنه الى عبد المؤمن اشياء كان يفعلها واقوال كان يقولها احقنته عليه فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه وربما هم بالقبض على يحيى هذا، فرأى الوزير ابو جعفر ان يجمع بين المصلحتين من نصح اميره، وتحذير صهره، فقال لامرأته اخت يحيى المذكور قولى لاخيك يتحفظ واذا دعوناه غدا فليعتل ويظهر المرض، وان قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل فأخبرته أخته بذلك فتمارض واظهر انه (لما به) فزاره وجوه اصحابه وسالوا عنه فاسر الى بعضهم ممن كان يثق به ما بلغه عن الوزير فخرج ذلك الرجل الذى أسر اليه فنقل ذلك كله بجملته الى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الاكبر فى قتل ابى جعفر المذكور» .

وكان وقوفي على هذا النص اولا فى طبعة القاهرة للكتاب المذكور وهى طبعة عادية لم تحظ بتحقيق ولا تعليق من احد، فلم يكتب على ذلك التعبير شيء وبما انى استشكلته فقد كتبت عليه حين نقلت هذه الفذلكة فى ترجمة ابى جعفر بن عطية من ذكريات مشاهير رجال المغرب لفظة «كذا» دليلا على التوقف فى صحته .

ولما نشر المعجب في المغرب بتحقيق الاستاذ محمد الفاسي كتب هو ايضا على ذلك التعبير لفظة «كذا» وزاد قائلا «وفي طبعة ليدن كماء بالتحريك، وفي اللغة كمئت يده من البرد او العمل تشققت فصارت كالكمأة» قال «وفي العبارة ضعف» وفائدة هذا التعليق هي ان طبعة ليدن لا يمكن الاعتماد عليها في تصحيح ذلك التعبير بل انها حورته الى ما لا معنى له في التركيب الذى اشتمل عليه.

ثم طبع المعجب بعد ذلك طبعة جديدة في القاهرة بتصحيح الاستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، فجاء ذلك التعبير فيها مصححا هكذا «فتمارض واظهر أن ألما به» وهو التصحيح الذى لم نجرؤ عليه انا ولا الاستاذ الفاسي، وان كان هو مدلول التعبير والمتبادر منه على كل حال.

واعترف أنني بقيت مدة لم اظفر بهذا التعبير فيما عدى نص المعجب برغم استقصائي في البحث واستذكاري لمحفوظاتي من الاشعار القديمة. وطالت المدة وانا أمني النفس بالعثور عليه في يوم ما، فقد كنت لا اشك في ان له اصلا عمى نبأه على وعلى الاساتذة الذين اختلفوا فيه.

وذات مرة كنت أنشد هذه الابيات التي تنسب تارة لسيدنا علي كرم الله وجهه وتارة للامام الشافعي رحمه الله وهي مما قيل في الفرج بعد الشدة.

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق (لما به) الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت وأرست في اماكنها الخطوب
أتاك على قنوط منك غوث يجيء به اللطيف المستجيب

فأثار انتباهي شيء في عجز البيت الاول، وعدت الى انشاده فاذا هو التعبير المطلوب بعينه، الا انه واقع غير موقعه في كلام صاحب المعجب اذ هو هناك يقع بعد جملة غير تامة، وهنا يقع اثناء جملة كاملة علة لها لا تتميما ... ومع ذلك فقد تفاءلت بابيات الفرج هذه، ولم اياس من العثور على طلبتي فيما يستقبل من الزمان، ولبثت مدة أخرى وانا كلما تذكرت المسألة انشدت الابيات ممنيا نفسي بحل هذه العقدة ولو بعد حين، الى ان تفرغت لقراءة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ثاني مرة في طبعته المحققة والمشروحة بعناية العلامة المرحوم الشيخ احمد محمد شاكر، وبلغت فيه الى ترجمة يزيد ابن مفرغ الحميري فاذا به يقول وهو يقص حكاية حبس عبيد الله بن زياد له وتعذيبه اياه، وكان قد امر فسقى مسهلا وطيف به على بعير في ازقة البصرة مقرونا الى خنزيرة، فمشى بطنه وجعل يسيل على الخنزيرة،

فتصبي» ... قال «فلما الـح عليــه ما يخرج منه قيل لابن زياد انه (لما به)، فامر به فانزل فاغتسل فلما خرج من الماء قال :

يغسـل المـاء ما فعـلت وقـولـي راسخ منك فى العظام البوالي...»

الشاهد كما هو واضح فى قول ابن قتيبة، فلما الح عليه ما يخرج منه قيل لابن زياد انه لما به، ولا شـك انها هـى عبـارة صاحبنا المراكشى فى المعجب، وان ما تفيده هنا هو ما تفيده هناك اى ان الشخص الذى قيلت فيه مريض مثقـل يجـود بنفسه ربما كان هامة اليوم أو غد، على أنها هنا أكثر تجردا منها فى نص المعجب والابيات الشعريـة اذ لم يسبقها فعل ولا وقعت وسط جملة فعلية وذلك مما يؤكد استقلالها بالمفهومية ودلالتها على ما تورد له من معنى .

ولا اخفى ان وقوع هذه العبارة فى كلام المراكشى هو مما جعلنى اتثبت فى شأنها لانه اديب ماهر وكاتـب بليـغ فيبعـد ان يقع فى كلامه ما ليس صحيحا ولا جاريا على الاصول. لكنى حينما كنت اطبق عليها قواعد العربية كانت تتقلقل ولا تقبـل التوجيـه الا علـى احتمال ضعيف، وحينئذ لا اجد مناصا من فرض أنها عبارة مأثورة استعملت فى هذا المعنى قديما وخلصـت الى مؤرخنا المراكشى من خلال محفوظاتـه العربيـة النموذجيـة، وها هو فرضى يتحقق فأجد العبارة بنفسها عنـد ابـن قتيبة وناهيك به علما باللغة والادب وكلام العرب، فهو الحجـة التـى لا ترد، لا سيما وقد صحح العبارة الشيخ احمد شاكر بضبطـه لهـا بكسر الـلام وفتح الميـم مع التخفيف، وهو ايضا فى عصرنا حجة كبيرة .

ثم بعد هذا وجدتها فى شعر لابى الحسن بن زنباع من رجال القلائد يخاطب به الفتح بن خاقان ونصه :

اليـك ابـا نصـر بديهة خاطر توالـى عليـه الشغل وهو مقسم
اهبت بـه للقـول وهو (لما به) فلبـى ولـم يسعده نطق ولا فم

وهى فيه ايضا مجردة عن الجمل الفعلية مثلها فى كلام ابن قتيبة (I).

I) بعد القاء هذا البحث لفت نظرى الاستاذ عبد الستار فراج من محررى مجمع اللغة بالقاهرة ومصحح كتاب الاغانى فى طبعته الجديدة الى هذين البيتين من شعر ابى الغمر الطهوى فى الحسن بن زيد يرثيه رواهمـا فى الاغانى :

وسالـت عنـه فقيـل بـات (لمـا به) فلمت الندى لا شـك بات (لما به)
وكـانمـا ضـن الـزمـان على الورى ببقـائـه أو هابـه فبدا بـه

وهما اوضح فى المعنى المراد بتلك العبارة من كل ما سبق. فللاستاذ فراج شكرى

هذا، ويخيل لي في تخريج هذه العبارة انها من قبيل قولهم في المبالغة ان زيدا مما أن يكتب، في الاخبار عنه بالاكثار من فعل الكتابة اى انه من أمر كتابة، كأنه مخلوق منها على حد قوله تعالى خلق الانسان من عجل، جعل لكثرة عجلته كانه خلق منها قاله ابن هشام في المغني، وكذا مثالنا جعل فيه المخبر عنه بحالة من المرض والعياء بالغة الخطورة، اما المرض والعياء فيفهمان من السياق واما الخطورة فتؤخذ من ما لان الابهام يأتي للمبالغة والتهويل كما في الآية الكريمة فغشيهم من اليم ما غشيهم اى شيء عظيم لا طاقة لهم به

بواسطة كذا

تلقيت رسالة من معهد الدراسات العالية التابع للجامعة العربية ثبت في عنوانها الى فلان بواسطة السفارة المغربية بالقاهرة. وتقرأ في كثير من المجلات العلمية العربية فضلا عن الصحف مثل هذا الاعلان سافروا الى البلاد الفلانية بواسطة طائرات الكرافيل مثلا، وتتحدث الى احد أصدقائك او يتحدث اليك أحد اصدقائك في قضية ما فيقول لك ذلك الصديق او تقول له انت هذا الامر لابد فيه من واسطة، اى شخصية ذات نفوذ ليتم على الوجه الاكمل .

وهكذا يكثر استعمال الواسطة في كلامنا بمعنى الوسيلة على اختلاف انواعها في حين ان المعاجم اللغوية لا تعرف هذا المعنى للواسطة، وانما الواسطة عندها هذه الجوهرة النفيسة التي تقع وسط العقد وأشياء أخرى لا صلة لها بهذا المعنى بتاتا، اما اللفظ اللغوي الصحيح الذي تجعله

... وبعد رجوعي من القاهرة كتب الى الزميل الاستاذ الفاضل بن عاشور انه ظفر عفوا بشاهدين يؤيدان البيان، الذي ألقيته في المجمع بشأن هذا التركيب (لما به) : الاول من كلام امير المومنين على بن ابي طالب كرم الله وجهه، ورد في نهج البلاغة ج 1 ص 244 ط ببيروت 1307، وهو قوله يصف حال المريض الميؤوس منه :

«حتى فتر معلله، وذهل ممرضه، وتعايا اهله بصفة دائه، وخرسوا عن جواب السائلين عنه، وتنازعوا دونه شجي خبر يكتمونه، فقائل (هو لما به) وممن لهم على اياب عافيته، ومصبر لهم على فقده يذكرهم اسى الماضين قبله»

والثاني من كلام ابي نواس يجيب احمد بن روح حين هجاه فيقول :

لا رعى الله ابن روح ... وسخ اسمي بلعابه
اسقم اسمي ريح فيه ... فاظن اسمي (لما به)
فابتغوا لي اسما سواه ... واجهدوا في طلابه

من الديوان ج 1 ص 45 ط لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة. واني اشكر للزميل الكريم عنايته واهتمامه بالموضوع

المعاجم دليلا على هذا المعنى فهـو الوساطة وجمعها بحسب القاعدة وسائط ولذلك كان الواجب ان يقـال فـي مثـل تلـك العبـارات بوساطة السفارة المغربيـة، وبوساطـة طائـرات الكرافيـل وهـذا الامـر لابـد فيـه مـن وساطة وهي وسائط متنوعة ولكن اللفظ يتحملها كلها.

وهنا لابد ان يقبـل بعضنـا علـى بعض متسائلين هل العبارة التي يستعملها رجل الشارع كمـا يقولـون والمجـلات العلمية ومعاهد الدراسات العربية العالية لا تكون صحيحة ولا تعتبر عربيـة وان جـرت على لسان كل عربي واقلام المثقفين العرب عامة وخاصة ؟

ان ألفاظا عربية كثيرة لا تذكرها المعاجم اللغوية ولكن عدم ذكرها لها لا ينفي عربيتها وإصالتها، ترى انفسنا مضطريـن لان نقول فيها مثل ما قاله بعض المحدثين في احاديث يرويها احد الائمة الاثبات من غير ان يرفع سندها لعلها كانـت معروفـة عند اهـل الصدر الاول بأسانيدها المرفوعة، ثم وقع التفريط في هذه الاسانيد فضاعت ولم يهتد اليهـا العلمـاء بعد ذلـك، فهل يكون لفظ الواسطة الذي نحن بصدده فـي دلالته علـى معنـى الوساطة من هـذا القبيل .

هذا، وليس اعتمـادي فيما ذكـر على رواج الكلمة في العصر الحاضر على لسان من ذكر بل على وقوعها في كلام العلماء والمؤلفين في الزمن الماضي ايضا، ومن اقدم من وردت في كلامه فيما اذكر الشيخ عبد السلام بن مشيش وهو من كبار الصوفية عاش في القرن السادس واوئل السابع، وقد جاءت في صلاته البليغة المشهورة بالمشيشية في الفقرة التي يقول فيها ولا شيء الا وهو به منوط، اذ لولا الواسطة لذهـب كما قيـل الموسوط ويعني بالواسطة هنا النبي (ص) اذ هو الواسطة العظمى في كل ما وصل لامته من خير وبركة وما ادركته من عز وسؤدد ولولاه لما كان لها هذا الذكر الخالد وهذا المجد الطارف والتالد. واذا كان محل الاستشهاد من فقرة ابن مشيش هذه هو كلمة الواسطة فان كلمة الموسوط فيها هـو مما يلفـت النظـر، وهو مما يؤكد ما قدمناه من احتمال أصالة الكلمة وضياع فعلها الـدال على معناها هـذا، والـذي تقتضي صياغة اسم المفعول منه ان يكون متعديا، الا ان نقول ان للموسوط هنا متعلقا محذوفا للسجع وهوله .

وعلى كل حال فان جميع العلماء الذين كتبوا على المشيشية وشرحوها بين مطيـل ومختصر قد سلموا عبارة الشيخ وتلقوها بالقبول ولم نر من بحث منهم في صحة اشتقاق كلمة الموسوط فأحرى كلمة الواسطة، ولكنا يجب الا

نتسمى ان هؤلاء الصوفية لهم جرأة فى وضع المصطلحات الخاصة بهم وتطويع اللغة لاغراضهم مما ينبغى ان يكون مثالا لنا نحتذيه ونستفيد منه خاصة فيما يتعلق بالمصطلحات الفلسفية .

وبعد ابن مشيش نجد الخطيب القزوينى فى القرن الثامن يعبر بالواسطة ويستعملها استعمال الوساطة فى كتابه المعروف «تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة» وذلك عند كلامه على الكناية فيقول : «فان يكن الانتقال بواسطة فقريبة وان كان بواسطة فبعيدة» ولابد هنا من ملاحظة ان اصل كتاب التلخيص الذى هو مفتاح العلوم للعلامة السكاكى انما يعبر فى هذا المقام بالوساطة، ولا يقول الواسطة ومع ذلك فان شراح التلخيص وعلى رأسهم المحقق سعد الدين التفتازانى كلهم قد تابعوا الخطيب القزوينى فى التعبير بالواسطة، وكذا المؤلفون فى علم البلاغة بعده كالسيوطى فى شرحه لنظمه عقود الجمان (1) والاخضرى فى شرحه لنظمه الجوهر المكنون وشراحه الآخرين بحيث يصح القول ان كلمة الوساطة قد اختفت عند هؤلاء المؤلفين وحلت كلمة الواسطة محلها مع جمعها على وسائط .

ثم بعد القزوينى والعلماء المؤلفين فى البلاغة من بعده نرى الشيخ محمد البكرى وهو من اهل القرن العاشر يقول فى قصيدة له يمدح بها النبى (ص) وهى مما شاع بين طوائف الصوفية .

ما ارسل الرحمن او يرسل — من رحمة تصعد او تنزل
فى ملكوت الله او ملكه — من كل ما يختص او يشمل
الا وطه المصطفى عبده — نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها واصل لها — يعلم هذا كل من يعقل

فيستعمل الواسطة استعمال ابن مشيش لها فى القرن السادس .

ولا نحتاج ان ننبه على كثرة ورود هذه اللفظة فى كلام العلماء والمؤلفين الذين اتوا بعد ذلك مما نجده مكتوبا بخطوطهم او نقف عليه فى مؤلفاتهم كقولهم نقلته من خط فلان بواسطة، او ان فلانا اخذ عن فلان

---

1) اما فى النظم فقد استعمل الوساطة وكأنه اضطره اليها النظم، ولمزيد الاستيعاب اقول ان ابن عربى الحاتمى كثيرا ما يستعمل لفظ الواسطة فى فتوحاته وهو من عصر ابن مشيش، ونبهنى الزميل الاستاذ الشيخ على النجار الى قول ابن مالك فى الالفية :

التابع المقصود بالحكم بلا — واسطة هو المسمى بدلا

وابن مالك من هذا العصر ايضا

بواسطة ونحو ذلك فان من مارس الكتب المخطوطة والكتب الدراسية المستعملة فى المعاهد الدينية على الخصوص يعرف ذلك جيدا.

فهل بعد هذا التواطؤ من علماء سبعة القرون الماضية واهل قرننا الحالى على استعمال الواسطة فى المعانى التى ذكرنا تبقى كلمة منبوذة لا تفتح ابواب المعاجم اللغوية فى وجهها ؟.

على ان الحس اللغوى فيما يظهر يعطى ان تختص كلمة الوساطة بالمعنى المصدرى فى حين ان كلمة الواسطة تختص بالدلالة على اسماء الاعيان والاشخاص الى جانب كلمة الوسيط التى قد تتعين فى الشخص الذى يقوم بالوساطة احيانا .

الحرمة بكسر الحاء

سال سائل وهو طالب بكلية الحقوق سبق له ان درس فى معاهد القرويين، هل صحيح انه لا يقال الحرمة بكسر الحاء فيما حكمه المنع شرعا وانما يقال الحرمة بالضم ؟ والطالب بحكم دراسته فى القرويين لم يسمع قط أن الممنوع حكمه الحرمة بالضم، وانما سمع من اساتذته وقرأ فى الكتب المقررة عليه ان هذا الشيء الممنوع منه او المنهى عنه نهيا جازما حكمه الحرمة بكسر الحاء وهو المحظور والحرام. اما الحرمة بالضم فيما يعرف فهى الشيء الذى يجب احترامه وعدم الاستهانة به سواء كان مأمورا به فعلا وهو الواجب والمندوب او تركا وهو الحرام والمكروه .

ويستشهد على ذلك الآية الكريمة، والقرآن كما يقولون قاموس المسكين الذى لا يستطيع ان يقتنى كتاب القاموس، وهو قوله تعالى : «ذلك، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» قال المفسرون المراد بالحرمات مناسك الحج لورودها فيه، ويصح حملها على العموم، وقال ابن العربى فى احكامه الحرمات امتثال ما امر الله به واجتناب ما نهى عنه فان لهذا حرمة المبادرة الى الامتثال ولذلك حرمة الانكفاف والانزجار، فمعناها اذا عام شامل حتى على تخصيصها بما وردت فيه، لان من المعلوم ان مناسك الحج فيها المأمور به فعلا وتركا، فليس المراد بها المحرمات اى الممنوعات فقط، كما لا يخفى وما يقصد بالحرمة المكسورة الفاء غير هذا .

ونرجع الى القاموس فنجده يقول «والحرمة بالضم وبضمتين وكهمزة ما لا يحل انتهاكه، والذمة والمهابة والنصيب، ومن يعظم حرمات الله اى ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، فيتوافق وما قاله المفسرون فى الآية،

الا اننا اذا رجعنا الى أصل المادة وهى المصدر نجده يذكر لفعل حرم بالضم كحرم عدة مصادر أشهرها الحرام وليست الحرمة بالضم منها وانما يستدركها عليه صاحب التاج لان غيره ذكرها. فهل هو يعتبرها اسما لا مصدرا ؟ اما الحرمة بالكسر فتأتى عنده مصدرا لحرمه الشىء كضربه بمعنى منعه اياه كالحرمان وغيره من مصادر اخر، ومثل القاموس فى ذلك بقية المعاجم اللغوية .

فنحن اذا بازاء مصدرين مختلفى الضبط لفعلين مختلفى الدلالة، احدهما الحرمة بالضم وهو مصدر حرم الذى يقتضى ان الشىء حرام لذاته، والثانى الحرمة بالكسر وهو مصدر لحرمه الذى يقتضى ان الشىء حرام لامر خارج عن ذاته، ومن هنا نعرف ان ملحظ فقهائنا فى استعمالهم الحرمة بالكسر وايثارها على الحرمة بالضم ملحظ صحيح لان المحرمات منها ما هو ذاتى التحريم لضرته التى لا يشك فيها احد كالزنى ومنها ما ليس كذلك وانما حرم بعد ورود الشرع وتوقيفه المومنين على ما به من اضرار خفية كالربا فهم لدقة الاستعمال المتوخاة فى الالفاظ الاصطلاحية ومزيد التحرى فى تمييز اقسام الحكم الشرعى بعضها من بعض عبروا بالحرمة المكسورة الفاء التى تشمل ما هو حرام لذاته وما هو حرام بحكم الشرع أى ما منع الناس منه بمقتضى الدين وان لم يكن قبل ممنوعا عليهم، والتحريم فى هذا طارىء، وفيما قبله متجدد فهو المنع الذى تدل عليه الحرمة بالكسر فى كل حال.

وبهذا يتضح ان قول الفقهاء فى الشىء الممنوع والمحظور حكمه الحرمة بالكسر صحيح بل اصح من أن يقال فيه الحرمة بالضم لدقته وتعبيره عن المراد من ان التحريم فيه بحكم حاكم وهو الشرع، ومعلوم ان كلامنا فى اصطلاح فقهى فلابد فيه من مراعاة اصول الفقه، والامر هنا على ما قال ابن السبكى فى جمع الجوامع «ولا حكم قبل الشرع بل الامر موقوف الى وروده»

ولا يرد علينا ما جاء فى خطبة الوداع من قوله (ص) «ان دماءكم واموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا» مع العلم بان الرواية فيه بالضم لا غير لانا نقول انه ذكرهم بشىء كانت حرمته مقررة عندهم وثابتة لديهم فلم يعدل عنها الى غيرها تاكيدا للمطلوب وهو تحريم الدماء والاموال، الا ترى كيف عبر عن هذا بالحرام، وفى رواية اخرى للحديث «ان الله حرم عليكم دماءكم واموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا» على ان

لفظ الحرمة فى هذا الحديث وفى غيره كحديث مكة «فهو بلد حرام بحرمة الله» وكحديث الحديبية «لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله الا اعطيتهم اياها» هو اقرب ما يكون من معناها فى الآية المتقدمة ولذلك فان القرآن كالحديث لم يعبر به فى مسائل التحريم الخالص، وانما عبر بالحرام والتحريم كقوله تعالى «واحل الله البيع وحرم الربا» ثم جاء اصطلاح الفقهاء من بعد ذلك فخص الحرمة بالكسر بما حكمه المنع شرعا اى بالحرام والمحرم فى الشرع .

السحاءة والكلأ

هاتان كلمتان عربيتان ليس عليهما غبار، ولا فى معناهما لبس، ولم نوردهما لتصحيح لفظ او تحديد دلالة، ولكن لاقتراح اطلاقهما على مدلولى لفظين اعجميين أحدهما لا اسم له عندنا فيما اعرف، والثانى يعرف باسمه الاعجمى معربا فى بعض الاقطار العربية، على حين انه لا اسم له فى بعضها الآخر .

فأما السحاءة فهى مأخوذة من سحا الكتاب شده بسحاءة كسحاه واسحاه وهذا لفظ القاموس، وفيه ايضا وسحاية القرطاس وسحاؤه ما سحى منه اى اخذ. وزاد فى شرحه وقد سحا من القرطاس اذا اخذ منه شيئا قليلا، واستدرك عليه السحاة كحصاة لغة فى السحاءة. وهذا الذى فى القاموس هو ما فى الصحاح واللسان تقريبا ولا يظهر به المعنى الحقيقى للسحاءة، ولكنا نجده مبينا احسن التبيين فى صبح الاعشى وصاحبه كما هو معلوم من اهل صناعة الكتابة او على الاصطلاح الجارى من الفنيين الذين يرجع اليهم فى هذا الامر .

فهو يتحدث عن ختم الكتاب ويقول ان له ثلاث صور، الصورة الثالثة وهى محل الحاجة «ان يلف عن الكتاب بعد طيه قصاصة من الورق كالسير فى عرض رأس الخنصر وتلف على الكتاب ثم يلصق رأسها، ويكون ذلك فى الرقاع الصغيرة المترددة بين الاخوان وتسمى القصاصة التى يلصق بها سحاءة بفتح السين وبالمد، وتقال بكسر السين ايضا وربما قيل سحاية، ويقال فيه سحوت الكتاب اسحوه سحوا وسحيته بالتشديد اسحيه تسحية فهو مسحو ومسحى ومسحى والامر من سحوت الكتاب اسح ومن سحيته

سح واصله من السحو وهو القشر يقال سحوت اللحم عن العظم اذا قشرته.

انتهى كلام صاحب صبح الاعشى وفيه بيان تام للاجمال الواقع في كلام القاموس وغيره من المعاجم، ومعلوم اننا لم تعد نطلق هذه الكلمة على الكتاب المختوم ولا نستعملها ومشتقاتها في ختم الكتب فلذلك اقترح اطلاقها على هذا النوع من الرسائل البريدية الذي يطوى على نفسه ولا يحتاج الى ظرف يدرج فيه ويسمى بالفرنسية Carte Lettre وبالانجليزية aer Gram و air Letter

وأما الكلأ (1) فهو مشتق من الكلاءة بمعنى الحراسة والحفظ، ويطلق على ساحل النهر ومرفأ السفن ومما يروى فيه من قول سمرة بن جندب «من عرض عرضنا له ومن مشى على الكلأ قذفناه في النهر» اى من لم يصرح بالقذف عرضنا له بضرب خفيف ومن صرح حددناه. استعار المشي على مرفأ السفينة للتصريح والتفريق للحد.

وبما ان هذه الكلمة ترد بمعنى المرفأ والساحل وهي غير مستعملة في ذلك اذ ان كلا من المرفأ والساحل اشهر منها واكثر ورودا على الالسنة فاني اقترح اطلاقها على ما يسمى في بعض البلاد العربية بالكرنيش وهو الممشى والرصيف الذى يشاد على حافة النهر أو البحر يعد للفسحة والنزهة (2) لا سيما وهو يحوط بما يكلأ المارين عليه من درابزين ونحوه فمعناه اقرب الى المراد من كلمة الكرنيش التى هى فى الاصل فرنسية ولا تدل على اكثر مما تدل عليه كلمة (Cornisa) الاسبانية اى الافريز والاطار.. فاذا كان التوسع في معناها هو الذي سوغ اطلاقها في بعض البلاد العربية على ما ذكرنا فان التوسع في لفظ عربي قريب المعنى من المراد هو اولى واحق، والنظر للزملاء الكرام كلأهم الله .

---

1) هو بفتح الكاف وتشديد اللام على وزن شداد

2) وقد وردت في كلام الجاحظ بهذا المعنى اكثر من مرة في كتاب البخلاء.

الدكتور محمد عزيز الحبابي

محاولة تحديد «شخصانية» اسلامية

تقتصر في هذا البحث على تعريف الشخص وتحديد احواله ومصيره، معتمدين على ما يمكن استنباطه من القرآن والسنة، مجتنبين دراسة الآثار الخاصة التي خلفها مفكرو الاسلام في الموضوع، لان امثال هذه البحوث تتعلق بما يسمى بالنزعة الانسانية، اكثر مما تهم «الشخصانية» (1).

واننا، اذ تقتصر على الكتاب والسنة في بحثنا، نتناول بالدرس الاسلام قبل اتصاله بالثقافات اليونانية والفارسية والهندية، واحتكاكه بالديانتين الاسرائيلية والمسيحية.

هكذا نصل الى ابراز مقومات «شخصانية»، هي في صميمها شخصانية اسلامية اصيلة محض.

* * *

صدر عن دار المعارف بمصر، الكتاب التكريمي للدكتور طه حسين، بمناسبة مرور سبعين سنة على مولده، والى جانب كبار المستشرقين الغربيين، والمفكرين المرموقين بالشرق العربي، ساهم الاستاذ العميد الدكتور محمد عزيز الحبابي، بالدراسة الآتية، تقديرا منه لشيخ الادب العربي الشهير، فيسر مجلتنا ان تعيد نشر هذه الصفحات تعميما للفائدة شاكرة الدكتور الحبابي ودار المعارف موافقتهما على ذلك.

1) اننا نفضل استعمال هذه الكلمة لسببين : اولهما انها ماخوذة من كلمة «شخص» التي توافق تماما كلمة personne (كما يتضح فيما بعد) وثانيهما ان العبارات التي استعملت حتى الآن، للدلالة على الشخصانية تعد غير ملائمة : «فالفردية» تقابل كلمة individualisme من individu «فرد» وهو لا يتوفر على الوعي النفساني والاجتماعي الذي يتميز به الشخص أما «الذاتية» فتقابل moïté (الانية) وهي في مستوى عميق من حيث السيكولوجيا، وضئيل من الناحية الاجتماعية

1

المفاهيم الاولى

الاسلام مجموعة احوال لكيان الشخصية. ولكى يحيا الانسان حياة المسلم يجب عليه، قبل كل شيء، ان يعى انه كل من شعور وضمير، وهذا الكل متجسم، مندمج فى العالم، وملزم بالبحث عن حقيقته كانسان. فعلى عاتق كل واحد منا، بصفته متجسما، واعيا، وملتزما، ان يغير ما بنفسه، ويغير ما بالعالم تغييرا مصلحا فى جميع الميادين، ووفقا للقوانين التى ارتضاها الله .

لقد كان شعور المرء بنفسه عند العرب، فى العصر الجاهلى شعورا مضطربا، يعكره نوع من مركزية النواة المنحلة فى «انانة» معشرية او عصبية قبلية. ومنذ ظهور الاسلام، تغيرت هذه الوضعية : فاصبح للمؤمن شعور قوى بانه جزء من الامة، والامة تتجاوز الافراد والقبيلة والعرق، وبمقتضى هذا، اصبح المسلم مسؤولا فرديا عن جميع اعماله امام الله، الكائن المطلق وامام البشر اجمعين، الذين ليسوا الا امثال بعضهم، وإخوة، اذ هم جميعا مخلوقات الله الكائن الكل».

نشاهد هنا، بالنسبة للعصر الجاهلى ثروة وثورة فى معنى الشخصية من حيث التوسع والعمق، اذ ان الاسلام بتحطيمه الحدود الضيقة للعصبية ، وبابداله بالقبيلة الامة، يعطى للانسان اتساعا لا حدود له، حيث انه دين شمول : «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» (21 : 156) وفى آية اخرى : «انا ارسلناك للناس بشيرا ونذيرا» 34 : 28) .

وللشخص ابعاد توسعية وعمقية، للاولى حتما تاثيرات مباشرة على الثانية: اذ كلما توسع الافق الجماعى، وتوسعت معه الاكتسابات الجديدة فى اختلاف انواعها، وقع نمو فى الحياة النفسانية والثقافية (2) .

وبما ان جميع البشر مخلوقات الاله الاحد، فهم اشخاص متماثلون وليس الفرق بينهم فرقا نوعيا، كما هو عند ارسطو حين يجعل العبيد «آلات متحركة»، كانها اشياء . بل الفرق فى الاسلام فرق قيمة ذاتية فحسب، فهناك المؤمنون وغير المؤمنين من كافرين، ومشركين، ووثنيين. والرسالة

---

2) انظر، فيما يتعلق بالابعاد العمقية والابعاد التوسعية، كتابنا :
De l'Etre à la Personne, essai de personnalisme réaliste, Paris, P. U. F., 1954.

الالهية، اذ تتوجه الى كل من هؤلاء تعترف بمساواتهم النوعية، وتعطي بالتساوى لكل شخص قيمة ذاتية. فليس هناك اذن نوع منحط من الاشخاص ونوع مرتفع، بل ذوات متساوية امام الله وامام المجتمع. على ان للمؤمن وغير المؤمن قوى شخصية تخول كليهما، سواسيا، تغيير وضعيته من حيث الايمان والكفر. ولا ينتقل كائن من حالة الفرد الى حالة الشخص الا بقدر ما تتأكد فيه مطامح انسانية، مثل الايمان والردة والشك واليقين، او كل تغيير، أو كل موقف يتخذ عن تأمل وتبصر .

2

الشخصية واستقلالها الذاتي

ان الشخص في جوهره قوة مبادهة واختيار : يلتئم، ويندمج، ويختبر، ويقبل او يرفض. وهذه هي الصفات اللازمة للاعتراف بالاستقلال الذاتي للشخصية. لقد كانت منذ القرن الاول في الاسلام طائفة المرجئة تعرف الايمان بانه اعتقاد باطني. فلا يزول ايمان المرء، في نظرهم، ولو اظهر الكفر قولا او فعلا او باتباع الملة اليهودية او النصرانية في دار الاسلام، ما دام متيقنا، يقينا باطنيا، ان لا اله الا الله. ان ابن حزم ينسب هذه النظرية لجهم بن صفوان، بل وحتى الائمة سنيين، وعلى رأسهم الاشعرى : «ان جهما والاشعرى يقولون ان الايمان عقد بالقلب فقط، وان اظهر الكفر والتثليت بلسانه وعبد الصليب في دار الاسلام بلا تقية (3)».

ومعنى هذا ان الايمان، هو قبل كل شيء، الاعتراف بوحدانية الله واستقلاله المطلق، فيجب على المؤمن، اى الفرد الذى يعترف لله بهاتين الصفتين، أن يعترف كذلك لنفسه، وبكيفية تناسبه، انه هو الآخر واحد ومستقل. ومفهوم الاستقلال هنا، هو ذلك الشيء الخاص بكل شخص، وواقع فرديته، اذا قلنا باستقلال الاشخاص، فمعناه اننا نؤكد ان لا وجود لنموذج انساني، او لقالب يفرغ فيه جميع الاشخاص، ليكونوا على نمط واحد، اذ لكل شخص وجهته وتطلعاته الخاصة، وهي منبع لا ينضب من التلقائية

3) ابن حزم، الفصل ص 88، ج 2 ، القاهرة سنة 1347 هـ.

والمبادهة : «ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات !» (2 : 148)، وفي آية اخرى (17 : 83) : «قل: كل يعمل على شاكلته، فربكم اعلم بمن هو أهدى سبيلا». وورد في هذا المعنى الحديث المشهور : «اعلموا، فكل ميسر لما خلق له» (البخارى، الصحيح). فهذا الحديث يقر بأن لكل شخص معطيات طبيعية، لكنها لا تستثمر الا بالعمل.

تبتدىء الشخصانية عند ما يرفض الشخص الطاعة العمياء، طاعة الاشخاص، وطاعة الاشياء، ويعترف بالقيمة العليا للعقل والروح. والاعتراف بهذه القيمة ليس معناه قبول المخاتلات، او السماح لعقول الآخرين بالاستبداد ولا الخضوع الاعمى الذى يفرضه مذهب من المذاهب، ولو كان دينيا : «لا إكراه فى الدين» (2 ـ 256) .

لهذا لا تقبل فى الاسلام أية وساطة، كليريكية او غيرها، بين الناس وربهم : «واذا سألك عبادى عنى فانى قريب، أجيب دعوة الداعى اذا دعان» (2 ـ 186).

يعد كل شخص نسخة من صنع الله، ولكنها نسخة فريدة.

فمثل العالم الانسانى كمثل كتاب عظيم غير متناه، تتجاذب اوراقه، وتتكامل، مع اختلافها واستقلالها وترابطها فى هذا الاستقلال. فنحن هنا بعيدون، كل البعد، عن الذهنية البدوية العربية، ذهنية العصر الجاهلى، التى لا تتصور الكائن الانسانى الا داخل مجموعة، شريعتها العصبية القبلية، حيث يعد افرادها كنسخ يطابق بعضها البعض، على وجه التقريب، فكأن الشخص يذوب فى القبيلة. ولم تكن العصبية القبلية لتعترف بالتضامن والعلاقات الودية الا فيمن تجمعهم رابطة الرحم، من قريب او بعيد.

ولقد كانت واقعية العصبية مبنية على تقديس الجد المشترك. وبقى هذا الميز سائدا حتى فى الايام الاخيرة، من العصر الجاهلى، حيث اجتيزت حدود القبيلة، شيئا ما، مع عدم تفهم الشخصية الانسانية فى معناها الشامل فكان هناك فرق بين العربى الذى يعد نفسه حراً مثل المواطن الاثينى، وبين العجمى او الاجنبى الذى يجوز، طبعا، استرقاقه، وهو ما يماثل البرابرة عند الرومان، مثل الغاليين والسيثيين والبارثيين والافارقة. فسقراط يتحدث عن روح الفرس والكلب، ثم ينتقل الى روح العبد، كأنه يجد بينهما صلة طبيعية بديهية! (4) والاسلام، على عكس هذا، يعتبر كل كائن انسانى

4) انظر أفلاطون، هيبياس الصغير، 375.

شخصا، بقطع النظر عن عرقه، ولغته، ولونه، اذ لا فرق بين العربى والعجمى (5) .

ولنستمع الى بعض ما جاء فى «خطبة الوداع» الشهيرة، حيث يقف النبى بين آلاف المؤمنين ويقول :

«ايها الناس ! ان دماءكم، وأموالكم، عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم (...) وانكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن اعمالكم... (6)». كما يصرح النبى فى خطبة القاها بباب الكعبة (نظر ابن هشام، ج 4 ص 32) : «الناس من آدم، وآدم من تراب» فالاختلافات العرقية ليست الا آيات لقدرة الله الذى، «من آياته خلق السماوات والارض، واختلاف السنتكم والوانكم،...» أليست اللهجات والالوان والاعراق الا مجرد اختلافات شكلية، عرضية، لغاية عملية؟ «يا أيها الناس، انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا». فلا فخر اذن باللون، او الانتساب لاية عشيرة، اذ يزيد القرآن : «ان اكرمكم عند الله اتقاكم...» «49 — 23 (7) .

نخرج، مما تقدم، بفكرة عن ذلك الواقع الحى، الغنى الجوانب الذى هو الشخص، ولنحاول قصد تفهمه، او على الاقل قصد التبصر بعدة من مظاهره، ان ننظر اليه من جوانب شتى .

3

من المفهوم الى الكلمة

إذا اعتبرنا الدور المهم الذى لعبته اللغة العربية، بصفتها لغة القرآن والثقافة الاسلامية، وجب ان ندقق هنا فى بعض مفرداتها التى لها مساس بمفهوم كلمة «شخص».

5) ورد فى القرآن الجذر، ع، ج، م، اربع مرات، دون قصد ازدراء او احتقار: (16 — 103) و (41 — 44، مرتان فى هذه الاية) و (26 — 198).

6) عبد الملك ابن هشام، سيرة النبى، القاهرة، ج 4، ص 275 .

7) التقوى : من الجذر: و، ق، ى، لا ينحصر مدلولها فى المعنى الدينى المحدود (اى القيام بالشعائر، أو الزهد) بل تدل الكلمة على كل نشاط يدفع السوء عن النفس وعن الغير (الغير فى معناه المطلق)، فيكون اذن العمل من اجل الصلاح، الخاص او العام، وقاية، اى تقوى وقد اتجه نحو هذا المعنى بعض المفسرين حيث فسروا التقوى، بمعنى صيانة النفس من كل ما يؤذيها، وحفظها مما يؤثم (انظر : آل عمران 28)

ان كلمة فرد (التى تقابل كلمة جماعة) تطلق علـى الاشياء كما تطلق على الكائنـات (8) .

وهناك لفظة «شخص» تدل، مثل ما تدل الكلمة اللاتينية (9) persona (القناع) على المظهر الجسمانى، الخارجى للانسان، او على شبحه الظاهر، أى ظلـه.

أليست فى الحقيقـة كلمة persona بالنسبة للواقع، الا ظلا، ومجرد كائن مسرحى مقنّع (احيانا بقناع المأساة، واحيانا بقناع المهزلة) ؟

بيد ان مدلول «شخص» يزداد، فى الاسلام غنى ودقة فى آن واحد، اذا اصبح الفرد لا يسمى شخصا الا اذ انضمت الى فرديته امتدادات، مثـل:

العرض : وهو ما يستحق ان يدافع عنه المرء او يحفظه من كل دنس، اى الفضيلة، والروح، والسمعة والشرف .

والحسب، وهو القيمة، والنبل، سواء كـان مكتسبا بجهود شخصية او مـوروثـا .

والنسب : وهو الاصـل والانتسـاب بالوراثـة لعصبة او عنصر ما.

من هذا يلزم، فى دراستنا للشخصية، ان نراعى جـانبين اساسيين : جانبا جسمانيا خارجيا، وجانبا معنويا نفسيا .

لقد تبنى الاسلام محتوى كلمة «شخص» فـزاده قوة، وادخله فى نطاق الفقه والمعاملات .

إننـا لنجده فـى زمان النبى، وقد تجرد من كل الأساطير، وتخلى عن أثقال المعتقدات الطوطمية، فجسم فى الكتاب والسنة حقيقة جديدة، خاصة، مميزة حتى أصبح «الشخص» موضوعا للأحكام الشريعة، بصفته كائنا مسؤولا عن فعاليه، اذ يقوم بأعمال تنطبق عليها أحكام الدين، والاخـلاق، والمجتمع، ويعد ذاتا، لها حياة مستقلة.

هكذا تطورت كلمة «شخص» توسعـا وعمقـا، مثل مقابلها فى اللغة اللاتينية persona فمفهوم هـذه اللفظـة تفتـح هو الآخر، بفضل تطوراته

8) كلمـة مستعملـة فى القـرءان : (6، 94) و (19، 80 و 95) و (31، 89)، و (34، 46) .

9) كلمة شخص مـن الجـذر: ش، خ، ص، : برز وظهر (يقال للاشياء) او بدا (يقال للاشباح) انظر بالخاح : «شاخصة ابصارهم» (14، 42 و 31، 79) او تصور و شرح (أشخص: اى اعطى نظره).

العديدة، منذ الكلمة الاتريسكية (10) فيرسو phersu الى الصيغة الفرنسية personne في معناها الحالي .

أطلقت كلمة persona في البداية على القناع، ثم صارت تدل، منذ عهد شيشرون، على «الدور» الذي يلعبه الانسان المقنع في التمثيلية. ثم خضع هذا المفهوم لتغييرات جديدة منذ فجر المسيحية (11) .

* * *

اننا لنرتكب خطأ اذا استنتجنا من وجود كلمة phersu اتجاها ونوايا شخصانية. ذلك ان الاتريسيين كانوا، مثل اليونان، يقربون القرابين البشرية لآلهتهم، بخلاف ما أتت بهم الديانات الابراهيمية (اليهودية والمسيحية والاسلام) التي ابدلت القرابين البشرية بالاضاحي الحيوانية.

ولا يمكننا كذلك، أن نقول بوجود شخصانية عند الرومان لمجرد استعمالهم كلمة persona . فلقد سادت في المجتمع الروماني الاسترقاقية، الى ابعد حد من الفظاعة (12)، كما سادت العنصرية في قوانينهم واعرافهم التي كان العبيد، بل وكثير من الاحرار، ضحية لها. فمهنة «المصارع» le gladiateur مثلا، التي لم يرتضها، ابدا المواطن الروماني، كانت مخصصة للعبيد والاسارى، وحتى للاجانب الاحرار من جرمانيين، وسوريين، وبربر.

لقد انحصر دور المصارع، شيئا ما، في دور حيوان للعب، لا يصلح الا لتسلية الرومانيين.

كان المرشحون في الوظائف العمومية يكترون المصارعين من جمعيات مخصصة للدعاية والاشهار، كما تكرى الخيول، لان حفلات التسلية من الوسائل المستعملة للدعاية الانتخابية .

اما في الاسلام، فالفرق الوحيد الذي يمكن اعتباره، هو التمييز بين المؤمن وغير المؤمن، على ان كلا منهما يعد شخصا، يساوي جميع الناس من حيث الكرامة الانسانية وقداستها، فلكل شخص قابلية فطرية للايمان، وقدرة اندفاعية طبيعية على الشك، فالبشر كلهم من جوهر واحد، كما يقول الحديث : «كلكم من آدم، وآدم من تراب» .

---

10) نسبة الى Les Etrusques سكان اطريريا (ناحية من نواحي ايطاليا ينتسبون الى شعب نزح من آسيا الصغرى)

11) لا نذكر هنا الاشواط التي قطعها معنى «شخص» طوال العصور وفي مختلف الثقافات والاديان، انظر كتابنا : De l'être à la personne ص 66 – وما تبعها باريس 1954

12) انظر في كتابنا Liberté ou liberation الفصل الذي يدرس «التملك»

ان النبيين انفسهم من ذات الطينة التى تكون منها سائر الناس، فهم ايضا اشخاص، واشخاص لا اكثر : «اوعجبتم، أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم، ينذركم ولتتقوا، ولعلكم ترحمون ؟» (7 ـ 62)، «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ...» (3 ، 142) ، «لقد جاءكم رسول من انفسكم، عزيز عليه ما عنتم...» (9 ، 227) (13)

كلما تحدث القرآن او السنة، عن الجنس البشرى، استعملا كلمتى «انسان» او «آدم» (ابى البشرية)، فلا يفضلان عصبة او عرقا ما : «لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم» (95 – 4)، اى ان الانسان بصفة مطلقة كنوع، لا كمنتم لامة، او قبيلة، أو أسرة معينة. وبعد ان خلق الله الانسان الذى يعد اشرف الكائنات واعزها، لم يلق بهذا الابداع السامى فى هاوية من النسيان، وعدم الاكتراث، بل احاطه بجليل عنايته : «وهو معكم اينما كنتم » .

«ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد» (50 ـ 16) .

ان الله مع الانسان، فى كل مكان وزمان، فى السراء والضراء، فالاسلام يعتبر الـ «انا» شعورا ووعيا، كأنه من نور الله، وعلى العكس من هذا فى العصر الجاهلى، لم يكن «الانا» مركزا فى داخله، بل مشتتا على الخارج، اى انه منعدم الذاتية، حسبه المشاركة فى ذاتية قبلية مشاعة، لا يصل الى درجة الوعى، لان شعوره كان يذوب فى شعور جماعى غير محدد، قانونه العصبية الضيقة المحض :

وهل أنا من غزية، إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

لم يكن العرب اذن، قبل الاسلام، يعرفون مدلول «شخص» ولا اللفظة نفسها، اذ هى كلمة وضعها مفكرو الاسلام فيما بعد (اخوان الصفاء، ابن سينا) .

* * *

يبدو من الآيات القرآنية ان الجذر ش. خ. ص. كان معروفا فى معناه القديم، كما رأينا. اما كلمة «شخص» هذه فلم تكن موجودة، مطلقا، للتعبير عن المعنى المعروف عندنا. كانت لفظة «وجه» تدل على معنى الشخص فى القرآن، وهذا ما يؤكد قرابته بكلمة persona (التى تدل على المظهر الخارجى)

13) انظر كذلك : (33، 40) و (48، 29)

فلنتتبع تطور معنى «وجه» فى اللغة العربيـة، لنتفهم بكـل وضوح، المراحل الاولى الغامضة التـى قطعها معنى «شخص» حتى نصل الى المفهوم الواضح الذى حصل عليه فى الاسلام .

فمن المدلول المادى لكلمة «وجـه» (قـرآن 13 ـ 92) نصل الى المدلول المجازى (يدل الوجه على النظر فى القـرآن : 2 ، 143 ، ومن 147 الى 149) وبما ان الوجه يعد اشرف ما فى الكائن، صار يـدل علـى الكائـن كله فى اتساع معناه (14) .

وهذا ما يذكرنا بالكلمة اليونانية prosopon التى دلت، أول الامر، على وجه (مثل face الفرنسية)، ثم على قناع (قارن بين هذا وبين persona اللاتينية). وبعد ذلك بكثير اكتسبت معانى اخرى، منها : «ظهور» و «صورة» (قارن ذلك فى العربية بـ «ظل»، واخيرا دلت على الوجـه، ثم على الشخص .

وجاءت فى القرآن عبارة «وجه الله» للدلالة على الذات الالهية : «أينما تولوا فثم وجه الله» (15). كما تستعمل نفس الكلمة فى القرآن، للدلالة على الشخص الانسانى (16) .

فالشبـح، او الظـل، او الكائن الذى يصعب تمييزه وتحديد هويته، يعد فردا او كائنا، ولكنه ليس بكائن معين. فالخصائـص الشخصية، لكل انسان، توجد فى وجهه : فعلى الوجه تبـدو الملامـح، والسن، وما تحتوى عليه بعض النظرات ـ احيانا ـ من معان («تبـوح العيون بسر الفؤاد ») . وفى الوجه ايضا الانف الذى هو رمـز الكرامـة والانفة : «اخضاع الانف» هو الاذلال. فلا غرابة اذن أن يجدع بعض المقاومين الجزائريين أنف خونة القضية الوطنية فى بلادهم. ويروى السيد يوسف شلحود ان عرب الكويت يقطعون ارنبة السارق، اقتصاصا منه لانه رجل لا كرامة له (17) .

وفى الوجه اداة التفـاهم التـى تعد مـن اهم ما فى الكائن الانسانى : فباللسان يتصل المرء بغيره، وبه يتكلم ويؤدى الشهادة .

14) نجد هذا المعنى فى عبارة «كرم الله وجهه»؛ والوجهاء هم القوم الذين يقدمون للنيابة عن غيرهم فعيسى بن مريم «وجيها فـى الدنيـا والآخرة ومن المقربين» (قرآن 3، 44) وموسى «كان عند الله وجيها» (33 ، 69) .

15) انظر : (2، 115 و 272) و (13، 226) و (30 ـ 37 و 38) و (55 ـ 25) و (72، 9) و (92، 20) .

16) انظر الآيات : (2 ، 112) و (6، 156 ـ) و (22،) و (30 ، 30) (31،) .

17) انظر : R. d'Histoire des Religions, T. CLI, N° 2, Paris 1957.

هكذا نرى كيف حصل اشتراك في الدلالة بين وجه وشخص، ويمكننا ان نذكر هنا، علـى سبيل الشبه، ما كتبه موس Mauss عن بعض المجتمعات البدائية : إذا امتنع احد رؤساء العشيرة من القيام باحدى التزاماته، قيل عنه : «إن وجهه متعفن»، لان اهل الشمال الغربي بامريكا يعتبرون ضياع السمعة بمثابة ضياع للروح او فساد للوجه. ومن اضاع دم وجهه «فقد اضاع حقه في حمل الروح ولبس الشعار، والانتساب للطوطم (18) .

لم يقع الفصل بين «وجه» و «شخص» في سائر الثقافات الا مؤخرا ، فلا توجد فكرة بدائيـة مباشرة عن «الشخص»، بل على العكس، ليس هناك الا ما يحملنا على الاعتقاد أنها فكـرة مكتسبـة جـاءت مؤخرا، بعد تطورات كثيـرة .

هكذا فرضت كلمة «شخص» نفسها، فصارت تدل على الكائن الانساني باجمعه، لان محتواها المعنوي حصل، في الجو الاسلامي، على كثافة جديدة، ومتانة خاصة بينما بقي مدلول «وجه» محصورا فـي معنـاه المادي، رغم ان الوجه اشرف ما في الانسان .

* * *

وبعد ما تعرفنا على الرابطة التي تجمع بين «وجه»، ومدلـول «شخص» يلزمنا الآن ان نحلل كلمات اخرى لها مساس بمفهوم شخص .

ف «ذات» تدل على «الجوهر» وكثيرا ما تعنـي، في الفلسفة، «الفرد» غير ان هذين المعنيين جاءا متأخرين، ولفظة «فرد» نفسها (التي تقابل كلمة جماعة) تطلق على الكائنات الحية، كما تطلق علـى الاشيـاء الجامدة. ومن جهة اخرى، فان لفظة «ذات» لا تختص بالشخص الانساني فحسب، بل تطلق كذلك على الاشياء. فالقـرآن يقول : «انه عليم بذات الصدور» (3 — 119) اي بخفايا العقل والقلب (19) وتصف آية أخرى السماء بـ «ذات البـروج» (58 ،) كما نجد ان النار «ذات لهب» (111 ، 3)

فلفظة «ذات» تعبر عن اوصاف متصلة بكائنات، لا على جوهر وذاتية الكائنات. وهذا ما يبعدنا عن المدلول الفلسفي : «جوهـر» ، وعـن الحقيقة الحية التي هي «الشخص» بمعناه المحدد . فمدلول «ذات» ينحصر في التعبير عن حالة أو عن كيفية لا تتصلان، فـي الغالـب، الا باشيـاء مادية. والقرآن

18) L'Année Sociologique I, 1923-24, p. 102

19) انظـر كـذلـك : (3 — 154) و (5 — 7) و (8 ،43) و (11 — 54) و(31 ، 23 و 35 ، 38)

يعطينا على ذلك امثلة، منها ما يتعلق بالاشياء من حيث مكانها : «وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم، ذات اليمين، واذا غربت تقرضهم، ذات الشمال ...» ... ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال...» (18 ، 18 – 17)، او وصف للمكان : «وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين» . (23 ، 50) (20) .

هذه الاسباب ترغمنا على ان نرفض «ذاتية»، التى يستعملها بعض الكتاب المعاصرين، لترجمة كلمة personnalisme فمحمد إقبال، مثلا، يسمى مذهبه الفلسفي «خودي»، ويقصد بهذه الكلمة النزعة الشخصانية «21» . ولقد عرب بعضهم «خودى» بـ «ذاتية» ، ومنهم عبد الوهاب عزام، فى ترجمته لديوان اقبال : بيام مشرق (ص 41) .

إن لفظة «شخصانية»، فى نظرنا، اقرب الى الصواب من «ذاتية» ألسنا نرى ان لفظة «شخص» تنحصر فى الدلالة على الانسان، فى حين ان كلمة «ذات» يشترك فيها الانسان، والحيوان، بل وحتى الاشياء ؟ نقول الرجل ذاته، والحصان ذاته، والورقة ذاتها .

* * *

وهناك لفظان آخران لهما علاقة ماسة بموضوعنا : «امرؤ» «وانسان». وبما ان الكلمتين لا تدلان على «الشخص»، حسب المعنى المحدد اصطلاحا، فاننا نترك الحديث عنهما الى دراسة عن النزعة الانسانية فى الاسلام .

ومنذ القديم، احدثت لفظة «انسان» مشكلة لدى المثقفين العرب. فلنكتف بالاشارة الى ما رواه ابن حزم، فى هذه القضية، حيث حكى النزاع الذى حصل بين من يدعي ان «الانسان» لا يطلق لا على الجسم وحده (مثل ابى الهذيل العلاف)، وبين من يقول بانه يختص بالنفس وحدها (قول ابراهيم النظام)، وبين من، على عكس ذلك، يرى ان «انسان» يطلق على الوحدة التى يؤلفها الجسم والنفس معا. وبعد عرض افكار هؤلاء، ختم ابن حزم حديثه قائلا : ان «انسان» يطلق على الجسم (ألا يبقى الميت انسانا ؟) كما يدل على الروح، لانها نواة الاحداث الشعورية، والملكات المختلفة،

20) انظر كذلك (34، 16) و (54 – 13) و (55 – 11 و 48) و (59 – 7 و (58 – 1 و 5) و (96 – 11 ، 12) و 7 (89 –)"

21) انظر كتابه : «اسرار خودي» (الترجمة الانجليزية) *The Secrets of Self*, translated by R.A. Nicholsoln, Lahore 1920.

والامزجة. وأخيراً نعبر بـ «إنسان» عن وحدة الجسم والروح، إذ أن كل واحد منهما يرتكز على الآخر (22) .

نستخلص، من هذه المحاولة الموجزة، ان مفهوم «شخص» اكتسب، منذ فجر الاسلام، معاني كثيفة، حية، مليئة. لم يكن لهذه اللفظة، في العصر الجاهلي، مدلول محدد، لكنها بفضل تعاليم الاسلام، حصلت على محتوى متين واضح، فصارت معانيها، تدريجيا، تزداد دقة وتحديدا، فنتج، منذ ذلك العهد، انقلاب شامل في الذهنية العربية، أخرجها من الصور الجماعية الشاملة اللامحددة الى التعقل الفردي وإلى الوضوح والوعي .

ومنذ هذه المرحلة، لم تعد القبيلة هي الحقيقة الوحيدة ذات القيمة الفذة، بل أصبح كل عضو من العشيرة (بصفة شخصية) ـ دون اعتبار السن أو المكانة، او الجنس ـ يشعر بوجوده كشخص، يحمل كرامة، وقيما، لا عن طريق العصبية القبلية، ولكن لانه شخص وكفى : اذ انه الحقيقة الاولى الداعمة لكرامة لا تهان. انه من المخلوقات التي سوى الله بينها، وكرمها على بقية ما في الكون، فهو اذن اشرف المخلوقات واعزها : إنه «شخص» .

22) الفصل، ج 5 ص 41، القاهرة 347 هـ.

عبد اللطيف الخطيب

شارل جاجيرشميد
وعلاقات المغرب بفرنسا واسبانيا اواسط القرن التاسع عشر

«رأس السريجة» اسم يطلقة سكان قبيلة «بنى بوززة» بناحية غمارة على رأس صغير يبعد عن تطوان نحو جنوبها الشرقى بمسافة ستين كيلومترا اما البحارة الاسبانيون المقيمون بسبتة والقادمون من طريف والجزيرة الخضراء فيسمونه «رأس الذهب» لكثرة السمك الموجودة بجواره. وتوجد امام هذا الرأس جزيرتان صغيرتان تعرفان باسم «التوأمان». ويرجع اسمهما هذا الى اقصوصة يحكيها سكان الاقليم وهى ان نعجة هجرت ولديها التوامين فعاقبها الله بأن احال الولدين الى حجرتين فصلهما عن الشاطىء وهو شاطىء وعر لا اثر فيه لنبات او حيوان ويعلو خلفه جبل شاهق.

وقد اطلق على الرأس المذكور والجزيرتين المقابلتين له اسم «رأس وجزيرتان جاجيرشميد» عند ما وضعت للمرة الاولى خريطة الساحل المغربى على البحر الابيض المتوسط اواسط سنة خمس وخمسين وثمانمائة والف. وانعقد بباريس سنة 1875 مؤتمر دولى للعلوم الجغرافية اهتمت احدى لجانه بوضع معجم للاعلام الجغرافية وبالبيانات المدلول الصحيح لتلك الاسماء والسبب الحقيقى لاطلاقها على تلك المواقع. ولهذه القضية اهمية ظاهرة لا من الوجهة اللغوية فحسب بل من الوجهة التاريخية ايضا.

واكبر الجزيرتين لا تعدو مساحتها اربعمائة وثمانين مترا مربعا. وتبعدان عن الشاطىء بمسافة ستمائة متر. و «جاجيرشميد» هو اسم لدبلوماسى مثل فرنسا لدى المغرب اواسط القرن المنصرم وقام اواخر سنة 1854 بتيسير مهام بعثة فرنسية جاءت مكلفة بدراسة كافة التفاصيل والخصائص المتعلقة بالساحل الجنوبى لبوغاز جبل طارق على طول امتداده بين طنجة وسبتة وشارك فى تنقلاتها بين المدينتين. وواصل المهندسون الفرنسيون فى السنة التالية اعمالهم على طول الساحل المشرف على البحر

الابيض المتوسط وقرروا اطلاق اسمه على موقع هام من مواقع ذلك الساحل اعترافا منهم بحسن صنيعه .

وقام «معهد الدراسات العليا المغربية» سنة احدى وخمسين وتسعمائة والف بنشر كتاب قيم يقع في مائتين وتسعين صفحة للاستاذ «جاك كايي» مدير الابحاث بالمعهد المذكور، وعنوانه «شارل جاجيرشميد القائم باعمال فرنسا في المغرب». وقد ولد في السنة العشرين من القرن المنصرم فعمر اربعة وسبعين عاما. وولد شارل جورج جاجيرشميد بباريس يوم ثالث يونيه من السنة المذكورة في اسرة نزحت من الالزاس وتؤمن بعقيدة البروتستانت . وكان صاحبنا خامس اخوانه الستة، وكان جميعهم ذكورا .

وحدثت سنة 1849 ازمة في العلاقات الفرنسية المغربية من جراء بعض الحوادث قادت الى انقطاعها واستئنافها فيما بعد. وكانت طنجة سنة خمسين وثمانمائة والف اكثر المدن المغربية اتصالا باوربا وتأثرا بها لان ممثلي الدول النصرانية قد استقروا بها ابتداء من السنوات الاخيرة للقرن الثامن عشر، كما كان يقيم بها بعض التجار الاوربيين ايضا. وكان كل من الدبلوماسيين والتجار يتنقلون بحرية تامة عبر شوارع المدينة. وكان كثير من اليهود يقومون بمهام الترجمة لدى القنصليات فكانوا يحظون الى حد ما بالتسهيلات الممنوحة آنذاك للنصارى .

وكان ممثلوا الدول النصرانية لا يتصلون بحكومة السلطان مولاى عبد الرحمن (1822 ـ 1859) الا بواسطة نائبه الممثل له والذى كان يقيم على العموم بطنجة واحيانا بمدينة العرائش ايضا. وكان السيد العربى بن المختار يقوم بمهمة المراسلات الملكية اواسط القرن المنصرم. وقد صدر قرار بتاريخ 2 يونيه 1850 يقضي بتعيين شارل جاجيرشميد كاتب المفوضية ملحقا بمقر البعثة الفرنسية بالمغرب فوصل طنجة في اليوم الحادى عشر من شهر يوليوز التالي.

واذا كان «شارل جاجيرشميد» لم يتقابل ابدا مع السيد العربى بن المختار فقد كان على اتصال مستمر بنائبى السلطان اللذين عينا خلال اقامته بطنجة. فاما اولهما فهو «بوسلهام بن على» الذى كان باشا على طنجة والعرائش. وكان كثيرا ما يقيم بهذه المدينة الاخيرة فلم يكن من شان ذلك تيسير مباشرة القضايا، ولقد كلفه السلطان مولاى عبد الرحمن بعد وقعة «ايسلى» بمناقشة شروط الصلح وامضى اتفاق طنجة يوم عاشر سبتمبر سنة اربع واربعين وثمانمائة والف وتفاوض في السنة التالية مع «ليون روش»

في موضـوع التصديـق علـى اتفـاق «لـلا مغنيـة». ولقـد كانت علاقاته بالدبلوماسيين الفرنسيين باردة للغاية فى معظم الاحيان بينما كانت علاقاته بممثلى انجلترا تتسم بالصداقة والود .

اما النائب الثانى فهو الحاج محمد الخطيب الذى حل مكانه اول الامر بصفته نائبا للسلطان فى شهر مايو 1851 ثم بوصفه باشا على مدينة طنجة في الشهر التالي. ويقول الاستاذ «جاك كايييه» فى وصف النائب الحاج محمد الخطيب استنادا الى المعلومـات التـى استقاهـا من مذكرات القائم باعمال فرنسا السابق الذكر انه كـان تاجـرا فيما سبق فاغتنى. فقد اقام بمدينة جبل طارق سبعة عشر عامـا واكثـر مـن التنقـل عبر مختلف اقطار اوربا واستقر مدة طويلة بمرسيليـة. وكـان قبل تعيينه نائبا للسلطان امينا على ديوانة طنجة خلال سنوات عديدة فاكتسب حب الناس واحترامهم له. لذلك وقع نبأ تعيينه موقعا حسنا من نفوسهم. فلقد كان الحاج محمد الخطيب رجلا عادلا نزيها يجنح الى الوئام والوفاق، وكسب ماله الوفير بفضل عمله الموصول فكان همه ان يتمكن من الاحتفاظ بما جمع والتمتع به فى هـدوء وطمأنينة. وسبق له فى السنة الاخيرة ان رفض تعيينه باشا على مدينة تطوان. ثم انه كان رجلا متواضعا للغاية فامتنع بعد تعيينه نائبا لجلالة السلطان من الاقامة بدار «القصبة» التى كان يقيم بها كـل الذين سبقوه الى تمثيل السلطان وظل يسكن داره المتواضعة كما كان شأنه عند اشتغاله بالتجارة .

لقد ادرك مولاى عبد الرحمـن بعـد وفاة «بوسلهـام» ان نائبه لم يكن يظهره على كثير من القضايا كانت لبعضها اهمية دقيقة وكان فى الامكان ان تسفر عنها نتائج خطيرة . اما الحـاج محمـد الخطيـب فقد درج على احاطة السلطان علما بكل صغيرة وجليلة، اذ لم يكن يخاف شيئا كما يخاف اغضاب السلطان ويمسك عن اعمال رأيه فى قضية من القضايا. ويروى صاحب الكتاب انه أسر ذات يوم الى ترجمـان المفوضيـة الفرنسية بأنه كتب الى السلطان يلتمس منه اعفاءه من ذلك الوظيف السامـى الذى كان يؤثر عليه ان يرتدي مرقعة من صوف ويسير لجمع الاعشاب في الحقول ليقتات بها. وكان ممثلو الدول النصرانية قد قابلوا بالرضا خبر تعيينه نائبـا للسلطـان اول الامر لانهم كانوا يعتقدون انهم سيستفيدون كثيرا من وجود رجل سبقت له معرفة أوربا فى ذلك الوظيـف «لان اغـراق المغاربـة فـى الجهل يضاعف تعصبهم ووقاحتهم فى معظم الاحوال» ...

وكان للنائب جلساء يستشيرهم وينصت اليهم. وكان من هؤلاء مصطفى الدكالى الذى كان من اكبر التجار وكانت له حظوة عند مولاى عبد الرحمن.

وكان يتكلم اللغتين الانجليزية والاسبانية بطلاقة كبيرة وزار عددا من اقطار اوربا. كما اقام بمرسيلية وباريس ولندن وسكن مدة طويلة بجبل طارق ايضا. ويقول «جاك كايي» انه وقف نفوذه لدى النائب وحظوته لدى السلطان على الدفاع عن المصالح البريطانية .

اقترنت هذه الفترة بحوادث عديدة يتعلق معظمها بما اصاب بعض المواطنين الفرنسيين وخدم المفوضية ومترجميها فاشتطت الحكومة الفرنسية في المطالبة بالتكفير عنها بتقديم تعويضات وامتيازات، فلما لم يقبل السلطان مطالبها انقطعت العلاقات بين القطرين احيانا وظلت قائمة احيانا اخرى دون ان تتصف بالود او الثقة. ولم تكن علاقات المغرب باسبانيا في هذه السنوات على ما يرضي. وتوفي مولاى عبد الرحمن سنة تسع وخمسين وثمانمائة والف فخلفه ولده مولاى محمد الذى ابقى الحاج محمد الخطيب فى منصب نائب جلالته بطنجة. ففى هذه الفترة وقعت حرب مليلية ثم حرب تطوان التى انتهت بابرام معاهدة الصلح بهذه المدينة فى اليوم السادس والعشرين من ابريل سنة 1860. وقد امضاها السيد محمد الخطيب نيابة عن المغرب.

واذا نحن نظرنا فى اسفار التاريخ الاخرى التى تعنى بالعلاقات الاسبانية المغربية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجدناها تجمع على القول بأن الحاج محمد الخطيب كان ميالا الى ترضية الاسبانيين فى بعض ما يطلبون من معاقبة المسؤولين عن تلويث شعار دولتهم من اهل انجرة وتقديم بعض التعويضات «المعنوية» عن ذلك الحادث نظرا لما كان له من العلم باختلال شؤون الدولة وضعف سلطتها ولما كان له من الاطلاع على استعدادات الاسبان وامكانياتهم فى القتال ومراميهم منه، وقد اخذ نفسه باظهار السلطان على جميع جوانب الضعف فينا ومواطن القوة فى صفوف الاسبان، الا ان بعض المقربين درجوا على نصح السلطان فيما كانوا يزعمون بفائدة الامتناع كليا عن الاستجابة ولو لمطلب واحد من المطالب التى قدمها قنصل اسبانيا العام بطنجة. ولما لم ينجح الحاج محمد الخطيب فى استمالة السلطان للأخذ بنظره فى هذه المشكلة الهامة وجد نفسه مضطرا الى الانقياد للرأى السائد وفضل الاخذ بهذا الموقف على الانصراف عن السلطان فى مثل تلك الظروف الحرجة التى جاءت مع الاسف الشديد مصدقة لما كان يتوقعه ويحذر من الوقوع فيه .

اما اذا نظرنا فى الاحوال الداخلية لاسبانيا آنذاك وجدنا ان سياستها الداخلية وتطاحن احزابها ومصارعتها الى تملق الملكة كانت فى طليعة

العوامل التى هيأت لقيام تلك الحرب. فقد قيل «ان ملكة اخرى تسمى «ايسابيل» ايضا هى التى ستنفذ وصية ايسابيل الاولى بشأن افريقيا وبسط رداء النصرانية عليها، وانقادت ايسابيل الثانية بالفعل لهذا القول وشرعت تمنى نفسها بالجزاء الجزيل على مثل هذا الصنيع فسارعت الى التبرع بحليها وجواهرها اقتداء بايسابيل الكاثوليكية التى وهبت ما كانت تملك منها للانفاق على «كولون» وتسديد تكاليف حملة الاستكشاف. وقام بعض الخطباء فقالوا ان اسبانيا لا تريد توسيع ممتلكاتها وانما تحرص عن انقاذ شرفها. وذهب بعض المقربين الى الهتاف داخل القصر الملكى بحياة «ملكة تطوان ...»

وكانت حكومة مدريد فى انتظار جواب نائب السلطان على المذكرة التى قدمها قنصلها العام عند ما جاءها نبأ وفاة مولاى عبد الرحمن فأراد بعض المسؤولين انتهاز هذه الفرصة واستغلال الاضطرابات التى يمكن ان تقع فى فاس وفى غيرها من جهات المملكة فاجمعت الاحزاب الممثلة فى البرلمان (مجلس الكورطيس) على اعلان الحرب على المغرب يوم 22 اكتوبر سنة 1859 اى قبل يومين اثنين من وصول جواب السلطان الى مدريد.

كان مجموع القوات المغربية خمسة عشر الف رجل يقودهم مولاى العباس بن عبد الرحمن شقيق السلطان الذى تمت له البيعة قبل ايام معدودات. اما القوات الاسبانية فكانت تعادل ضعف قواتنا على التقريب ويعززها اسطول ذو وحدات شراعية وبخارية كانت مساهمته فعالة فى انجاح هذه الحملة العسكرية التى عهد بأمرها الى الجنرال «أودونيل».

واذا استثنينا بعض المناوشات عند ابواب سبتة فان الجيش الاسبانى لم يشرع فى زحفه نحو تطوان الا فى فاتح السنة الجديدة، اذ انه قضى الشهرين الاخيرين فى استقدام القوات من شبه الجزيرة وتركيزها وتنظيم جميع ترتيبات الحملة. واخذ الاسبانيون يزحفون نحو تطوان عبر الاخدود الساحلى الواقع بين جبال «الحوز» و «انجرة» وبين الشاطىء الذى كان الاسطول يتجول فيه باستمرار لضمان تموين القوات من جهة وحماية ظهرها من جهة اخرى. وفى اليوم الاول من الزحف دارت معركة الفنيدق التى اقترن ذكرها بذكر هذه الحرب عند الاسبان. ولم ينصرم الا اسبوعان حتى قام الاسطول الاسبانى فى اليوم السادس عشر من يناير بانزال عدة كتائب عند مصب نهر مرتيل فاستقرت به واقامت عدة تحصينات اصبحت فى نفس الوقت قاعدة هامة للزحف الاخير على تطوان ومواصلة العمليات العسكرية بعد احتلال هذه المدينة.

ودارت معركة تطوان فى اليوم الرابع من شهر فبراير واستسلمت المدينة بعد يومين فدخلها الجنرال «أودونيل» الذى سارع الى الشروع فى تطبيق وصية ايسابيل الثانية بتحويله بعض المساجد الى كنائس اقتداء بالكاردينال «ثيسنيروس» عند ما احتل وهران فى السنة التاسعة من القرن السادس عشر وشرع فى البرور بوصية ايسابيل الاولى. وبعد مرور خمسة ايام على وقوع تطوان فى ايدى الاسبان بعث مولاى العباس رسله الى قائدهم الاعلى لمعرفة شروط الصلح فوجدها مرهقة مهينة وقرر مواصلة القتال الذي اشتد في معركة «وادراس» التى دارت فى اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس التالى وانتهت باحتلال الاسبانين لفندق العين الجديدة الذى اتخذوه قاعدة هامة لمواصلة الزحف المامول على طنجة ... ولما كان الغد تقدم مولاى العباس بطلب الصلح وامضى فى اليوم التالى شروطها التمهيدية بعد الاتفاق على اقرار الهدنة بين الجمعين المتقاتلين، وبعد ان كان الاسطول الاسباني قد قام خلال الايام العشرة الاخيرة من الشهر المنصرم بقصف طنجة واصيلا والعرائش ورميها بنار مدافعه .

وعلينا ان نقول ان اعتراض انجلترا على احتلال طنجة المحتمل وتحذيرها لحكومة مدريد من مغبة الاقدام عليه لان احتلالها بصورة دائمة تهديد لسلامة جبل طارق كان فى طليعة العوامل التى اكرهت الاسبانيين على توقيف زحفهم اما معاهدة الصلح فقد اجبرت المغرب على الاستجابة لمطلب الاسبانيين الهام فى توسيع قطاع سبتة بالاضافة الى الالتزام باقامة الحراسة من حول مليلية وحجرة بادس وحجرة النكور لضمان امن هذه المواقع والى الاعتراف بما سمى بحق اسبانيا فى اقامة مراكز الصيد على مقربة من المواقع التى كانت لاسبانيا فيما سبق على البحر المحيط (إفنى) واحتلال الاراضى المحيطة بتلك المراكز لتأمينها ثم الحصول على تعويض يقدر بعشرين مليون ريال مع البقاء بتطوان واعتبار احتلالها ضمانة للاداء والترخيص للمبشرين النصارى من الفرنسيسكان باقامة مركز لهم بفاس والتصديق على الامتيازات التى كانت لهم فى عموم الايالة من قبل الى جانب الزام المغرب بابرام معاهدة تجارية اعترف فيها للاسبان بالعدد العديد من الامتيازات .

ورغم ما سبق ذكره فقد اعتبر بعض الاسبانيين ان تلك الحرب كانت فشلا فى مجال سياستهم وان كان الجيش الاسبانى قد خلد فى قولهم امجادا لا تنسى على مر الشهور والاعوام. وقد لاحظنا ان الحرب قد اقترنت منذ فترة اعدادها السياسية والعسكرية بصبغة الحملة الصليبية على المغرب

واعتبارها معبرا نحو التوسع المنشود والبرور بوصيــة الملكتيـن ايسابيل الكاثوليكية وايسابيل الثانية جميعا .

ثم ان اكراه المغرب على اداء التعويضـات الباهظة قـد اوقعه فى ازمة اقتصادية كان لها الاثر البعيد فى مختلف مظاهر حياته خلال الثلث الاخير من القرن المنصرم. فمن المعلوم ان الحكومة المغربية عجزت عن تسديد مجموع الدين فاضطرت الى قبول مراقبين اسبانيين بمختلف جماركها الهامة للوقوف على مداخيلها وتحصيل نصفها لاداء المتخلف منه، ولما وقع الخلل فى ميزانية الدولة اضطرت الى عقد قروض عديدة مع بعض الدول الاجنبية وحتى مع بعض رعاياها المقيمين بالمغرب، كما اضطرت الى سن الضرائب فكان لها وقع سيء فى نفوس عامة الناس فضاقوا بما فـرض عليهم حتى كان ذلك الاستياء سببا فى قيام عدد من الفتن التى عجلت بانهيـار الدولـة نظـرا لاستفحال التدخل الاجنبى وتكاثر المطامع الدولية فى المغرب .

ونستطيع مما سبق شرحه ان نقول ان العقد السادس من القرن التاسع عشر كان متضمنا لحوادث فاصلة فى تاريخ المغـرب وان حـرب الستيـن كانت فى طليعة تلك الحـوادث بما كـان لهـا من النتائج القريبة والبعيـدة والعابرة والباقية على السواء . وكانت اهميـة هـذه الفترة هى التى جعلتنا حريصين على التعريف بها من خلال ما لاحظـه السيـد شـارل جاجيرشميد القائم بأعمال فرنسا بطنجة عن احوال البـلاد وعن المسـؤول المغربى الاول الذى كان له الاتصال بالـدول الاجنبيـة وهو نائب السلطان المقيم بها. ولا حاجة الى التبيين بأن فرنسا كانت اول دولة عملت على التدخل فى المغرب منذ ان استقر سلطانها بالجزائر وواصلت سعيها فى هذا السبيل حتى كان لها معظم ما ارادت .

ولا نشك فى نفس الوقت اننا كشفنا امر الموقـع الجغرافـى المذكور بشاطىء قبيلة «بوزرة» علـى البحـر الابيض المتوسط والسبب فى تسميته باسم القائم بأعمال فرنسا بطنجة، وهو اسم ظل مجهولا خلال ما يقرب من مائة سنة، وذلك مع العلم بأنه لم يسبق نشر اى شيء بالعربية ولا الاسبانية فى شرحه وتفسيره. وعلينا ان نقول ان شارل جاجيرشميد قد اقام بطنجة خمسة اعوام وبضعة شهور حيث ارسل فى اعقاب سنـة 1855 الـى قنصلية فرنسا بمدينة «اوديسا» عقب الحرب التى دارت بشبه جزيـرة القـريم. ولقد كانت سنة مغادرته المغرب هى السنة التى اطلق فيها اسمه على الموقع الذى يعرف عند سكـان غمـارة الشماليـة بـاسم «رأس السريجة» وذلك منذ مائة سنة وسبع سنين .

ادولف فور

آراء وملحوظات عامة حول الازدواج اللغوى عند العرب وبعض الشعوب الاخرى

طالما اعرب الشبان العرب الذين اتصلوا بالثقافة الغربية فأثارت فى نفوسهم حب الاستطلاع وانساقوا للتعبير عن عدم ابتهاجهم بهذه الظاهرة العجيبة التى تتمثل امامهم فى وجود لهجات عربية بجانب اللغة الفصحى. ويرى كثير منهم تلك الظاهرة عائقا جديا لكل تطور ثقافى منسجم او على الاقل يعتبرونها مصدرا للمصاعب الهامة فى ميدان الاجتماع والسياسة. فهم يقارنون انفسهم بالشعوب الاوربية التى لا تعرف الثنائية اللغوية فيجدونها فى حالة نقصان ويعلقون كل آمالهم على انتصار العربية الفصحى باعتبار أنها اداة وحدة حية للثقافة والفكر والمبادلات اليومية بين كافة الشعوب الناطقة باللغة العربية، وهذا هو ما جعلنا نشاهد منذ مدة طويلة فى اوساط المثقفين ببلاد اللغة العربية ميلا ملحوظا نحو احياء اللغة الفصحى وجعلها لغة يتكلم بها الناس وذلك بتكييفها طبق طرائق الاستعمال الحديثة وبتزويدها بمفردات تمكن الناطقين بالعربية من الوقوف على الحضارة الفنية وتيسر لهم المساهمة فى تيارات الافكار ومجهودات البحث العلمى التى غيرت عالم اوربا الغربية تغييرا عميقا.

وان اهمية هذه المشكلة التى تعرض بسبب ثنائية اللغة للمتكلمين بالعربية هى التى تبرر الاتيان بهذه الدراسة الموجزة التى تعتزم بها الاجابة عن عدد من الاسئلة المختارة حتى تكون الاجوبة ادلة على اهمية تلك الظاهرة واتساعها سواء بالنسبة الى المجموعة اللغوية العربية او بالقياس الى المجموعات اللغوية التى تتكلم بها شعوب اخرى.

فهل الثنائية اللغوية ظاهرة مقصورة على بعض الشعوب او انها على العكس من ذلك واقع ذو مدى عام ؟. وهل يجب اعتبارها امرا من الامور المرتبطة بمظاهر المقومات الاجتماعية يا ترى ؟. وكيف تقوم الصلات يا ترى بين اللغة المكتوبة واللغة العامية ؟ وهل هناك تضارب بينهما أم أنهما تعيشان

جنبا الى جنب كما لو كانتا نتيجة للاوضاع الطبيعية؟ وهل يتعين احتقار احداهما لتزكية الاخرى؟. وهل الثنائية اللغوية يا ترى عائقا للتطور الفكرى والمادى للشعوب ؟. وهل توجد شعوب استطاعت على وعى منها ان تقضى على تلك الثنائية اللغوية او شعوب انقرضت فيها تلك الثنائية مع مرور الزمن ؟ .

ان كل سؤال من هذه الاسئلة يستحق دراسة عميقة. الا ان بحثا من هذا القبيل يتطلب معارف نحن بعيدون عن الاحاطة بها. ولهذا اقتصرنا على ذكر بعض الملحوظات العامة واثباتها .

إن الجواب على السؤال الاول وحده يستلزم الاتيان باستعراض كافة المجموعات اللغوية الموجودة فى عالمنا اليوم ووضع احصائية لها. ولعلنا قد نحسن صنعا فى هذا المكان اذا نحن اقتصرنا على دراسة عدد معين من المجموعات المختارة بين المجموعات الهامة بالنظر فى نفس الوقت الى عدد الاشخاص المتكلمين بها والى بهاء الحضارات التى تمتاز بها.

المجموعة الهندية الآرية

انه لا توجد مجموعة كهذه اذا نحن اردنا اتخاذها نموذجا للموضوع الذى يهمنا الآن ومراعاة منا للتشعب الكبير الموجود فيها. فنحن نجد فى هذه المجموعة لغة مكتوبة كاللغة السانسكريتية ومعنى «سنسكريتى» من وجهة اشتقاق الكلمة (نبيل) كما نجد فى هذه المجموعة ايضا عددا من اللغات الدارجة العامية وهى تسمى «براكريت» التى كان يتكلمها السوقة.

اما السانسكريتية فهى لغة البراهمة. وقد اصبحت لغة معروفة القواعد بفضل النحويين الذين شرعوا فى وضع تلك القواعد منذ القرن الرابع قبل المسيح. ويعتبر كتاب «ريغ فيدا» اقدم الآثار المكتوبة فى الادب الدينى ضمن المجموعة الهندية الآرية لان عهدها يرجع الى القرن العاشر قبل الميلاد. وقد اتت اللغة السانسكريتية بأدب وفير شيق متنوع تضمن الدراما والفن والفلسفة. وهى تستعمل فى عصرنا باعتبارها لغة الاتصال فى ميدان الادب والعلم، فهى عند العلماء الهنود بمثابة اللغة اللاتينية عند العلماء المسيحيين فى العصر الوسيط .

اما اللهجات البراكريتية فاصلها اصل السنسكريتية، غير أنها أبسط منها واكثر مطابقة لحاجيات الحياة وقد وضعت لها فى بعض الاحيان القواعد النحوية كما فعل بالسنسكريتية.

وقد اتفق أنه ارتقت بعض هذه اللهجات ـ بعد أن سطرها ودونها الناس ـ الى مصاف اللغات الادبية، فنشأت اذ ذاك لهجات محلية جديدة يتكلم بها الناس، تتطور بدون تعلق بأخواتها، كأن الشعب لم يكن يجد راحته الا فى الانتصار على لغة دارجة. وقد وضعت ايضا لبعض هذه اللهجات المحلية القواعد النحوية. فأصبحت هى أيضا لغات أدبية فاحتلت مكانة وسطى بين اللهجات المحلية واللغات البراكريتية.

وكانت نتيجة هذا التشعب أن المجموعة الهندية الآرية تشتمل على ما يزيد على مائة لغة يستعملها ما يربو على مائتين وستين مليونا من الاشخاص معظمهم يتكلم لغتين. وتوجد فى الهند الآن عدة مجموعات هامة من اللهجات التى برزت فيها آثار ادبية دارجة. فهكذا نرى اللغة الهندوستانية تشتمل على لغتين ادبيتين هما «الاوردو» و «الهندى» اللتين تختلفان فى حروفهما ومفرداتهما. فلغة «الاوردو» تكتب بالحروف العربية وهى غنية بالمفردات الفارسية. اما اللغة الثانية فحروفها هندية وهى حافلة بمفردات وثيقة الصلة باللغة السانسكريتية. واما مجموعة اللهجات البنغالية فتمتاز بتوفرها على ادب جميل عتيق اضفى عليه الشاعر المعاصر رابيندرانات طاغور حلة الثراء من فكره الوقاد وخياله الاخاذ .

ولعلنا لسنا فى حاجة الى القول بأن اللغة الانجليزية قد احتلت مكانا مبرزا فى هذا الكشكول المتشعب وزودت الهند بلغة الفن والعلم الحديثين نظرا لان السانسكريتية واللغات البراكريتية الادبية كاللهجات المحلية لم تكن تمكن الهنود مما كانوا فى حاجة اليه فى مجال العلوم الحديثة .

المجموعة الايرانية

ان هذه المجموعة الغنية قد انتجت لهجات عديدة فى غابر العصور. وقد استقرت احدى تلك اللهجات بالجنوب الغربى من ايران فأصبحت خاصة لبلاد «الآفيستية» التى كتب بها الكتاب المقدس الايرانى المسمى «افيستا» الذى تم تدوينه فيما بعد على عهد الملوك الساسانيين الذين امتد حكمهم من سنة 226 الى سنة 632 .

وان الآثار المكتوبة التى اكتشفها علماء الآثار فى عهد امبراطورية «سيروس» الاكبر و «داريوس» و «جرجس» لتبرهن على ان اللغة الايرانية لم تكن رغم غناها ـ اذ كانت تشتمل على لغتين ولهجات متعددة ـ قادرة فى يوم من الايام على تجريد لغات المغلوبين العتيقة مما كان لها من الذيوع

علـى الالســن والنقــوش. فلقــد ظهــر ان النقــوش المكتشفــة كــانت فى معظم الحــالات مكتوبــة باللغــة الفارسيــة القديمة والريلاميــة وبالبابلية . ولقــد ظــلــت هــذه اللــغــة الاخــيــرة لــغــة الحــضــارة ولــو بــعــد انكسار الشعب الذى كــان يتكلــم بهــا. ثم ان اللغة النبيلة لم تكن تستعمل فى الدواوين الادارية. فقــد كانــت مختلف الادارات بالامبراطورية تستعمل اللغة الآرامية التى ظلت كذلــك لغــة الكتبــة. وليس فــى هذه الظاهرة ما يبعث حقا على الاندهاش. فلقــد رأينا فــى عهد سابق ان البابلية وهى لغة الشعــب الغالــب لم تنجح فى القيام مقام اللغة السومارية فى مجال العلم والادب. فلقد ظلت هذه اللغة خلال عدة قرون من عهد امبراطورية بابل كما عاشت اللغة اللاتينية فى اوربا عدة قرون ايضا بعد سقوط روما .

ونشأ عن اللغة الفارسية ابتــداء مــن التاريخ الميلادى نوعان جديدان من اللغات المتوسطة هما «البهلوية» فى الغــرب و «الصغديــة» فى الشرق .

اما فى العصر الحالــى فان الفارسية هــى التــى تحتل مكان الصدارة والشرف بين اللغات التى يتكلم بها شعب ايران اليوم لانها تتوفر على ادب غزير. وعلى الايرانــى الذى يريد فى هذا العصر ان يتثقف ثقافة كاملة ان يحيط علما على الاقــل بثلاث لغات هى اللغة الفارسية باعتبارها لغة الادب ولسانــا قوميــا ثم باللغة العربية الفصحى لانها لغة الدين وبلغة اجنبية اوربية باعتبارها اداة للاحاطــة بالثقافــة الغربيــة. وعليه ان يتكلم بالاضافة الى ما سبق احدى اللهجــات المحلية التى لا تزال حية فى البلاد.

المجمــوعــة اليــونــانيــة

اننا نجد فى هذه الناحية من القارة الاوربية ان مجموعة اللهجات التى منها اللهجة اليونانية الآتيكية قد خلفت لنا ادبا راقيا تطور مع الزمن حتى انتهى فى القرن الرابع قبل الميلاد الــى تكويــن لغة موحدة نشأت عنها اللغة اليونانية الحديثــة ولهجــات جديــدة اخرى. ولقد اجتهدت الدولة مستعينة بالمدرسة والكنيسة معا فى المحافظة على لغة مكتوبــة تكون قريبة من اللغة القديمة. وقد تكونت لغة مكتوبــة مشتركــة ابتداء مــن القرن الثامن عشر فتراجعت امامها كافة اللهجات المحلية بكيفية تدريجية مستمرة .

المجمــوعــة الايــطــاليــة

فى هــذه المجموعــة لم تتــوحد اللهجــات، فاللغة اللاتينية قد قضت على اللغتين اللتين كانتا تنافسانها، اى الامبرية والاسكية واصبحت بفضل

السيطرة السياسية والعسكرية لروما اللغة الظافرة المفروضة على قسم هام من العالم الغربي. ثم اصبحت في العصور الوسطى لغة العلم والادب للامم المسيحية بعد ان فرضت نفسها على اللهجات الجرمانية الغريبة عنها وعلى اللهجات الرومانية المتولدة منها.

وهكذا نرى ان الاقطار اللاتينية باوربا قد عرفت ظاهرة الثنائية اللغوية خلال عدة قرون من العصور الوسطى اما في فرنسا فعلينا ان ننتظر عهد الملك فرانسوا الاول لكي يعترف باللغة الفرنسية الدارجة لغة العلم والادب. ومع ذلك فهي لم تثبت في مكانتها هذه الا في مستهل القرن السابع عشر واذا كانت اللغة اللاتينية لم تعد لغة الثقافة فقد ظلت اللغة الجامعة للكنيسة الكاثوليكية .

واذا توفقت اقطار اوربا الغربية في التكتل والاجتماع لتشكيل المجال الموحد السياسي والاقتصادي للولايات المتحدة الاوربية فانها ستكون في حاجة الى الاداة اللغوية التي هي اللغة الانجليزية بالنسبة الى الولايات المتحدة الامريكية. وعلينا ان نلاحظ ان الاتحاد السويسري يملك ثلاث لغات أدبية هي اللغة الالمانية واللغة الايطالية واللغة الفرنسية بالاضافة الى لهجات المانية وايطالية وغالية رومانية. وهذا التشعب اللغوى لا يحول بين الامة السويسرية وبين الالتفاف حول دستورها والقيام بدور مشرف للغاية بين الدول الصغرى في القارة الاوربية .

اللغة المصرية

كان رجال الدين والكتبة في عهد الامبراطورية المصرية القديمة عند بداية الالف الثالث قبل الميلاد يحافظون على لغة الدين والادب التي تلقوها من العهود السابقة ويبقونها على ما كانت عليه. وهي اللغة التي اكتشف البحاث المعاصرون اسرارها في الكتابات الهيروغليفية .

ولقد برهنت الآثار المكتوبة ابتداء من الالف الثاني قبل الميلاد على وجود لغة عامية الى جانب لغة الدولة والدين. ويرى الاختصاصيون ان هذه اللغة هي اللغة التي كان يتكلم بها سكان ناحية ثيبة .

اما في عهد الامبراطورية الجديدة (1600 قبل الميلاد) فقد حافظ الكتبة على لغة العلم والادب التي كانت في عهد الامبراطورية المتوسطة واثبتوها في النقوش الاثرية. الا ان اللغة العامية اخذت تحتل شيئا فشيئا مكانا مبرزا في الكتابات حتى بلغ بها الحال أن اثبتت فوق الآثار الحجرية حوالى 1200 قبل الميلاد .

واذا كانت لغة الدين والادب والعلم قد تراجعت فنحن نجد تراجعا موازيا فى تاخر الهيروغليفية التى تبسطت حتى ادت الى الكتابة الديموتيقية ونرى اللغة المصرية العامية تتغلب خلال هذا التطور على لغة الكتبة القديمة اما الكتابة الهيروغليفية فلم يعد يدركها الا المثقفون .

اللغة اليابانية

تشتمل اللغة اليابانية كالمجموعات اللغوية التى ذكرناها على عدة لهجات وعلى لغة نبيلة هى لغة سكان القصور فى «كيوطو» التى أصبحت لغة الكتابة منذ القرن العاشر للميلاد.

واثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر نشأت لغة متوسطة تولدت عن امتزاج اللغة الشريفة باللهجات المحلية المستعملة فى المدن الكبرى فاصبحت هذه اللغة الجديدة المصطنعة اللغة القومية الرسمية يعلمها المعلمون في المدارس حسب الارشادات الصادرة اليهم من مصالح التعليم . وهى تكتب ويتكلم بها الآن لا فى الارخبيل اليابانى وحده بل كذلك فى كوريا وفورموزة وحتى فى جزر هاواى. اما اللغة القديمة فقد فقدت ميزتها ومكانتها بحكم هذا التجديد الموحد .

اللغة الصينية

خلفت هذه اللغة تراثا ادبيا حافلا مكتوبا ومنطوقا على السواء .

فالى جانب اللغة الصينية القديمة التى تضاعفها لغة صينية متوسطة توجد لغة دارجة تبتعد كثيرا عن اللغة المكتوبة المعروفة فى النصوص التى يرجع عهدها الى القرن الثامن الميلادى. كما توجد لهجات هامة وان كانت قليلة العدد. اما اشهر هذه اللهجات فهى اللغة الماندرينية المستعملة فى الصين الشمالية وفى اقاليم الجنوب الغربى والوسط والغرب .

اما اللغة المكتوبة فقد احتفظت على الدوام بمكانتها. فلقد قامت خير قيام بدورها كأداة للثقافة والحضارة والادارة لا فى الصين وحدها بل كذلك فى «أنام» حتى الاحتلال الفرنسى وكذلك فى كوريا الى ان استولى عليها اليابانيون . ولقد قامت بذلك الدور الى حد ما حتى فى اليابان نفسه اذ لم تترك للغة المنطوقة الا دورا ثانويا .

وان دراسة مجموعات لغوية عديدة اخرى ستسوقنا الى استنتاجات وملحوظات شبيهة بما سبق حتى عند الذين لا يملكون لغات مكتوبة ففى السودان وغينيا مثلا لا توجد لغات مكتوبة. ولكن سكان القطرين لهم

لغات دينية يستعملونها لدى اداء شعائرهم ولقد رأينا بعض اللهجات فى عشائر «بانطو» قد ارتقت الى مرحلة الكتابة بفضل انتشار المطبعة واستعمالها فى الادارة حتى اصبحت لغات الثقافة والحضارة معا.

ان هذه النظرة الاجمالية توقفنا على أن ظاهرة الثنائية اللغوية ظاهرة موجودة عند عدة شعوب قديمة معروفة بثقافتها وبتقاليدها العريقة فى الحضارة. ولقد ظلت هذه الظاهرة قوية عند بعض تلك الشعوب بينما ضعفت عند شعوب أخرى ضعفا يسير بها نحو الزوال. دون أن يتسبب عن ذلك زوال اللغات الاقليمية وغيرها من اللهجات المحلية. كما أنه ظهرت ضرورة استعمال لغة اجنبية فى الهند وايران واليابان والصين للاتصال باوربا الغربية وامريكا .

وسنفرغ الآن للاجابة على الاسئلة الاخرى التى اعتزمنا الجواب عنها منذ الشروع فى هذا البحث .

ان اصول اللغات ونشأتها محجوبة عن الانسان حتى صارت سرا من الاسرار .

فهناك نظريات مختلفة متراوحة بين القول بأنها من الوحى الالاهى والقول بأنها من الوضع الانسانى، مقصودها كلها تفسير هذه الظاهرة التى يتميز بها الانسان عن غيره من الحيوانات .

ومهما يكن من الاختلاف بين هاتين النظريتين فان هناك أمرا لا يلقى أى اعتراض هو ان اللغة المنطوقة يرجع العهد بها الى نشأة الحياة نفسها وأنها مظهر طبيعى من مظاهر تلك الحياة.

اذ فيما يخص خلق طرائق التعبير بسيطة كانت او مركبة نرى ان القوى البيولوجية تتلعب وتنفجر بكيفية تلقائية عجيبة لا ينضب لها معين. فالشعب لا يفتأ يخترع فلا يحس بالتعب والعياء. وان التراكيب النحوية والاساليب والمفردات التى خلقها منذ العهود العريقة فى القدم لامارة على خفقان الحياة وعلى طراوتها وسذاجتها وعلى قوتها الجامحة وشططها وعلى ترددها وفشلها وعلى مواردها المتعددة وتراتيبها العويصة .

واذا اردنا ان نشير الى النشأة العجيبة للغات وقلنا انها من أصل إلهى ففى مستطاعنا ان نفعل لانه لم يسجل فى التاريخ انه اجتمع علماء فوضعوا لغة فرضوها على شعب من الشعوب بل الشعب هو الذى زود العلماء بالمواد التى يتخذونها موضوعا لاعمالهم. فنحن نجد فى هذا الميدان كما فى غيره من الميادين أشخاصا أخذوا أنفسهم بالخلق والابداع واشخاصا آخرين ينفقون ايامهم فى تحليل ما هو موجود واستكشاف اسراره وتحديد خواصه الفنية. ومعنى هذا بالاختصار انهم يحاولون فهم ما صدر تلقائيا عن افواه الناس. ونحن نشاهد هذه الظاهرة فى تاريخ اللغات. فاذا كان للعقل والتنظيم دخل ونصيب فليس فى الابتكار وانما فى التصنيف الذى يأتى فى المكانة الثانية عند ما تاخذ العقول النيرة المفكرة فى التحليل والتعريف والتصنيف والنحت فى المادة الحية بوضع القواعد والقوانين وتعيين ما يظهر انه غير خاضع لقانون او مع فرض حدود على الخيال لا يتعداها. وبعد هذا العمل الذى ينفق فى التهذيب والتسجيل تنحبس اللغة فى المعابد والمكتبات والقصور حيث لا تعود تنتمى الى الشعب بل تصبح شيئا غريبا عنه .

وعلينا ان نضيف الى هذه الاعتبارات ان مؤرخى اللغات قد لاحظوا ان العشائر والجماعات والقبائل واصحاب المهن والطوائف الدينية واللصوص وغيرهم من المجموعة البشرية التى يتجانس فيها اصحابها من وجهة بيئية او قومية أو مهنية الى آخر ذلك تميل بطبعها الى ايجاد لغة خاصة بها. وهذا هو السبب فى نشوء اللهجات واللغات المحلية واللغات الاصطلاحية. فلذلك لا غرو أن رأينا ان لكل طبقة اجتماعية، داخل مجتمع تقليدى، لغة تخصها، وان اللفظة الفرنسية Caste كست مشتقة من كلمة سنسكريتية معناها الوظيفة. وان وجود الفوارق فى المجتمع الواحد اما بسبب وجود الطبقات واما بسبب وجود درجات متفارقة يحدث تخصصات لغوية. وهذه ظاهرة ملحوظة جدا عند الهنود فيما يرجع الى السنسكريتية والى اللغات «البراكريتية» المكتوبة . كما انها تلاحظ عند الايرانيين فيما يرجع الى «الآفيستية» والى الفارسية القديمة واللهجات وكذلك عند المصريين فيما يتعلق باللغة الهيروغليفية القديمة وباللغة الديموتيكية .

اما المهمة الحقيقية للغة الدينية والنبيلة فهى الافصاح بحقائق فوق طاقة البشر والتعبير ـ عموما ـ عن معان ذات قيمة فكرية عليا بحيث لا يمكن ان يعهد بهذه المهمة الى لغات لا تزال فى فترة التطور، ويتعين اللجوء لتحديد العقائد الى لغة غير متطورة ذات قيمة عالمية تجعلها تطغى على اللهجات المحلية الخاصة. فلغة الدين هى لغة الروح والوحدة. اما اللغات التى تتكلم بها العامة فهى لغات التعدد. وهى تخضع كما قال ارسطاليس الى قانون الكون والفساد. وهكذا نجد اللغات النبيلة واللغات الدارجة تسير كل واحدة منها نحو مصيرها الخاص اى مصير الطبقات الاجتماعية التى تنطق بها .

فلغة الدين كانت اول الامر لهجة امتازت على غيرها لعوامل عدة ثم سطرها الناس ودون اللغويون مفرداتها ودرس النحويون قواعدها ففى ذات يوم توقفت عن التطور ثم جعل المتمسكون بفصاحة اللغة وبالتقاليد الدينية يدافعون عنها ولكنها تنتهى مع مر الايام الى أن لا يدركها الا الخواص من الناس كالعلماء والادباء مثلا، وان اتفق ان تضمحل الطبقة التى كانت هذه اللغة اداتها اللغوية فانها تضمحل هى ايضا فتنسى حتى تصبح لا ذكر لها عند الناس ومثال ذلك ان الاحبار فى مصر القديمة قد حملوا معهم الى قبورهم اسرار لغتهم المقدسة واسرار كتابتهم ايضا حتى اضطررنا الى البحث عنها لاستكشاف تلك الاسرار

غير ان قيمة اللغات المكتوبة كامنة فى تعاقب اجيال من الرجال ذوى المستوى الفكرى والاخلاقى السامى عليها وتعهدهم اياها بالبحث والابتكار والاقتباس والتحلية. وان تلك اللغات لتاتى البشرية المعاصرة بأشكال تامة كاملة من التفكير والاسلوب. لذلك فليس من القول الصائب كما لاحظ الاستاذ «ر. جينون» نعتها باللغات الميتة. فالصينية المكتوبة والمصرية «الهيروغليفية» والسنسكريتية والعبرية واليونانية واللاتينية والعربية الفصحى لغات تتوفر كل منها على تراث ثقافى ينتمى الى الانسانية كلها وهكذا نرى ان هذه اللغات تشارك كلها فى الحياة، والحياة لا يمكن ان تنبعث من اشياء ميتة. وان المعاصرين المتعاظمين المسرفين فى الاعجاب بالجديد وانكار قيمة التقاليد الذين يودون لو أن تكون انفسهم مركز كل شىء قوم يجب عليهم أن يعلموا انهم ما كانوا ليصبحوا شيئا لولا تلك اللغات

اما اللهجات فتتقلب بين مختلف ظروف الحياة الطلقة. فهى قد تتعدد وتتنوع وتتفتت حتى تزول. كما انها يمكنها بخلاف ذلك

ان ترقى الى مصاف اللغات الادبية وتبلغ فيها اسمى الدرجات. واللهجات ذات قيمة كبرى بالنسبة الى العلم لانها تحتفظ بتفاصيل الحياة اليومية عند الشعوب وتظهرنا على حاجياتهم الملموسة وعلى عقلياتهم وحكمتهم وفنونهم جميعها. وهذا هو ما يشرح لنا ان اللغـويين الغربيين يعتبرون لغة ـ مهما كانت ـ مجموعـا لا يتجـزأ فيدرسـونهـا دون ان يفرقوا بين مظهرها النبيل ومظهرها العامي، اذ لو فعلوا ودرسوا مظهرهـا الاول مثـلا دون الآخر لصار ذلك في اعينهم عملا مخالفا للامانـة العقليـة منتهيا الى تجاهل واستهانة قسما هاما من الاشخاص.. الذين يتكلمون بها .

والآن وقد عرفنا اللغة العاميـة واللغـة النبيلة ووقفنا على مكانة كل منهما نجد انهما لغتان لا تتعارضـان فيمـا بينهمـا لان كلا منهما تستجيب لحاجة خاصة. فلم نشهد قط ان رجالا من الطبقة الدينية او الحربية قد حاولوا ارغام الشعب على قراءة وكتابة لغة طبقة خاصة. كما اننا لا نجد على العكس ان الطبقات الشعبيه قد حاولـت فـي يوم من الايام اجبار غيرها من الطبقات على استعمال لهجاتها. وهكذا نرى انه في مجتمعات من هذا القبيل تترتب فيها الطبقات حسب ترتيب لا يتغيـر حتى تكون متكاملـة، لا تتعارض اللغات فيهـا بـل تتكامـل ... فيمـا بينهـا وتظهـرها على اوجه مختلفة من حياة الانسـان ثم ان وجـود اللغتيـن العامية والنبيلة او الفصيحة في شعب مـن الشعوب لا يعتبر عائقا لتطوره الفكري اذا نحن نظرنا الى النتائج التي وصل اليها الهنود والايرانيون واليونانيـون في عالم الفكر. غير انه من الواضح ان وجود اللغتين يصبح عامـلا من عوامـل التعـارض اذا ما طرأ على هذه المجتمعات تطور فجائي يجعل الطبقات الاجتماعية تتقرب وترمي الى الاتحاد.

ويمكن ان نستخلص ممـا سبـق بعـض الاستنتاجـات حول العلاقات الموجودة بين اللغات المكتوبة والمنطوقة وان ندلي ببعض المقترحات اليسيرة.

ـ ان لغة ادبية مكتوبة يمكن ان تتكون من اختلاط عدة لهجات (اليونانية القديمة) او ان يكون مصدرها لهجة فرضت نفسها بحكم السيطرة العسكرية والسياسية للفئة التي تتكلم بها (اللغة اللاتينيـة التـي كانت لهجة قبائل اللاسيـوم) .

ـ يمكـن للغات الطبقات الوضيعة ان تصبح لغات ادبية مكتوبة بعد وضع قواعدهـا النحوية والصرفية وتصنيف مفرداتها (اللهجات البراكريتية في المجموعة الهندية الآرية) .

ان لغة عامية اصبحـت لغة ادبيـة مكتوبـة يمكنها ان ترد الى الوراء لغة الخاصة حتى تضمحل هذه فلا يبقى لها ذكر عند الناس

– ومن الممكن ان تصبح لغة عامية لغة ادبية تكتب دون ان تقضى على اللغة الادبية، هذه اللغة الصينية .

– ان لغة الادب والدين يمكن ان تصبح مقصورة على الدين وحده (اللاتينة فى أوربا والعربية الفصحى عند الايرانيين والاتراك)

– ان سياسة التوجيه اللغوى يمكن ان تؤدى اذا قام عليها المصلحون ورجال التربية الى اشاعة لغة متوسطة تقوم مقام اللهجات واللغة المكتوبة معا (اللغة اليابانية) .

اللغة العربية

تميز تاريخ اللغة العربية بسلسلة من الاحداث الفاجعة كان بعضها فى العنف. فنحن نلاحظ مع سير الزمن ابتداء من القرن السابع للميلاد تنزيل القرآن وفتح العرب لفارس والعراق والشام ومصر ذات الحضارة العريقة واختلاط العرب فيما بينهم واختلاطهم بغيرهم من الامم. كما نلاحظ تدهور الخلافة العباسية ابتداء من القرن العاشر وغلبة الاتراك السلجوقيين اواسط القرن الحادى عشر واستمرار سيطرتهم حتى القرن الثالث عشر ثم غزو المغول الذى اصاب الخلافة الاسلامية فنقل مركز ثقل الثقافة العربية من بغداد الى القاهرة ونزول سيطرة الاتراك كصفيح الرصاص على العالم العربى خلال عدة قرون. اما العصر الحديث فقد استهل بحملة (بونابارت) اواخر القرن الثامن عشر ثم التدخل الاوربى فى الاقطار الناطقة بالعربية بالشرق وافريقيا آخر الامر .

وقد يكون من المفيد ان نتتبع هذا التاريخ خطوة بعد خطوة داخل اطار هذا البحث القصير. غير ان المجال يعوزنا. لذلك فنحن سنقتصر على الاتيان بعجالة نشير فيها على الخصوص الى كيفية نشأة الثنائية اللغوية داخل هذا الفرع من اللغات السامية وكيف تماسكت تلك الثنائية وتقوت حتى وصلت الى عصرنا هذا .

ومع انه كانت العرب فيما سبق منقسمين الى عشائر متعددة تتكلم كل منها لهجة من اللهجات فانه من البين الواضح انهم قد احسوا على الدوام بوحدة لغتهم العربية. ولعل هذا الاحساس والشعور بضرورة التوفر على لغة «فصيحة» يفهمها كافة العرب كانا فى طليعة العوامل الخفية التى ساعدت على تكوين اللغة الفصحى فى العصر الجاهلى، فان عناصر المجتمع العربى التى شاركت فى تكوين تلك اللغة سواء من النصارى او اليهود ومن الشعراء

او الخطباء كانت تستجيب لحاجة ماسة الى شيوع لغة واحدة شاملة الى لغة مشتركة يفهمها كافة العرب. وهكذا اللغة المشتركة التى صنعها الشعراء والتى كانت تجعلهم على يقين بأن قصائدهم تفهم فى قصور الحيرة بالعراق كما تفهم فى قصور الغسانيين والاسلوب الذى استعمله الخطباء هما دليل على ان العرب كانوا يطمحون الى وحدة لغوية ما كانت لتتم على الوجه الاكمل الا بتنزيل القرآن .

لقد كان الوحى حدثا ذا اهمية حيوية كبرى فى تاريخ اللغة العربية. فلقد ارتقى بالعربية الفصحى الى مرتبة لغة الدين والادب. ولا يهمنا ان تكون لغة القرآن اول الامر لغة الشعراء او لهجة الحجاز المنمقة. فالظاهرة التى يتعين علينا اعتبارها فى هذا المقام هى ان هذا النص المكتوب جاء امدادا لاعمال علماء اللغة وان العقول النيرة المفكرة التى اشرنا اليها فيما سبق قد استطاعت ان تقبل على البحث والتصنيف بفضل ذلك النص. فقد اصبحت المجهودات التى بذلها اللغويون قصد وضع قواعد اللغة وتدوين مفرداتها تنبثق من الايمان الراسخ بأن العربية الفصحى هى الاداة التى اختارها الله لتنزيل وحيه ومخاطبة العرب جميعا. وهكذا ارتقت اللغة الادبية فجأة الى درجة عليا ما كان لتنزل منها ابدا .

ولم يكن ذلك الارتقاء عامل اضرار باللغة التى تتكلم بها العوام فقد حدث بالفعل عكس ما كان ينتظر. ففى الوقت الذى كان فيه المثقفون يتدارسون اللغة، كانت اللهجات البدوية تطرأ عليها تغيرات خطيرة تجعلها تبتعد عن اللغة الادبية بعد ان كانت نواتها حلوا نشأت فى المعسكرات لهجات جديدة. اما فى المدن فقد اضطر جمهور الاجانب الذين حلوا بها الىالاستعراب فأحدث هؤلاء الاجانب ـ ويسمون بالموالى ـ لغة منحوتة من اعرافهم وتقاليدهم الفكرية وذلك انهم كانوا يركبون الجمل العربية غير حافلين بالرفع والنصب والجر ـ وبوجه عام ـ بما يسميه النحويون بالاعراب فتطورت لغتهم فكانت اجمالية فأصبحت تحليلية. وعلينا ان نلاحظ انه اذا كان اولئك الموالى عوامل افساد اللغة لفائدة اللهجات فقد ساهموا ببحوثهم ودراساتهم فى تعزيز مقام اللغة الفصحى الجميلة، فلقد كان سيبويه امام النحويين كما كان ابن المقفع خالق الاسلوب المرن الدقيق فى العربية وكل منهما فارسى الاصل والنشأة .

اما مطلع القرن العاشر فقد اختص من الناحية السياسية بتدهور الخلافة العباسية وبتدخل الاتراك فى شؤون الدولة. الا ان هذه الفترة قد اختصت بظاهرة جديدة فى مجال اللغة. فان اللغة العربية الفصحى التى كانت تستعملها طبقة الخاصة سواء فى قصر الخليفة او فى المدارس او فى المحاكم لم تعد اداة المخاطبة وانما اصبحت لغة الكتابة لا غير. فلم يعد استعمالها يتجاوز المناسبات الكبرى. واصبح الاشخاص الذين يصرون على التخاطب بها والتمسك بقواعدها فى النحو والصرف يعتبرون متشدقين متكلفين. وكانت كلما تنحبس فى الكتب تزداد جمالا وورونقا وصعوبة اذ لا يفهمها الا العلماء والادباء والفقهاء وغيرهم من الناس المثقفين

ولم تفتأ الفوارق تستفحل بين اللغتين خلال القرون التالية حتى قامت هاوية بينهما. ولقد كان الانحلال السياسى للخلافة ببغداد فى القرن العاشر ونشأة الممالك الصغيرة مما ساعد على تطور اللهجات. والشىء الخطير هو أن اللغة المكتوبة قد انتجت خلال القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر مؤلفات متفاوتة القيمة تفاوتا كبيرا. فاذا كان بعضها صعبا ذا تكلف فقد كان البعض الآخر عليلا سىء الاسلوب اذا لم يكن يخضع مؤلفوه – وهم من الاتراك ومن الفرس – لقواعد النحو والصرف بسبب جهلهم لها. وفى نفس الوقت اخذ بعض المؤلفين يستعملون اللغة العامية كما فعل أسامة بن المنقذ فى مذكراته وابن ابى اصيبعة فى تاريخه للاطباء (القرن الثالث عشر) وابن جزمان من شعراء التروبادور الاندلسيين فى القرن الثانى عشر

ووقعت حوادث هامة اخرى اضعفت مجال اللغة المكتوبة. فقد عاد الفرس الى لغة اجدادهم لما استعادوا حياتهم السياسية القومية. وعمل الاتراك نفس الشىء فحصروا اللغة العربية فى الاشياء الدينية أيضا. وجاءت الحملة المغولية ونهب بغداد وسيطرة العثمانيين فكانت كلها عوامل لم تساعد بأي حال على نهضة اللغة الفصحى التى اصبحت ميزة بعض المثقفين من القضاة والفقهاء

وكانت الامور تسير سيرا سيئا ايضا غرب الامبراطورية الاسلامية فقد عاد استرجاع الاسبانيين التدريجى لاسبانيا الاسلامية بهزيمة كبرى على اللغة العربية على العموم وعلى الفصحى بصورة خاصة. وقد كان تقلص ظل اللغة العربية يفيد اللهجات واللغة العامية. فلغة التخاطب تجهل تقلبات السياسة. وهى تتابع الحياة وتجرى معها ضد الاعاصير والزوابع على السواء .

إن هذا البيان لموجز لتاريخ اللغة العربية يظهرنا على جسامة المهمة التى تنتظر المحدثين من الناطقين بالعربية. فالمشكلة التى تعرض لهم مشكلة ثلاثية .

ـ جعل اللغة الفصحى لغة حديثة لتصبح اداة التعبير عن البحث العلمى وحضارتنا الراهنة .

ـ توحيد اللغة فى مجال الاقطار الناطقة بالعربية.

ـ تعميم العربية وجعلها لغة شاملة لكافة الطبقات الاجتماعية.

فقد بوشرت تجاريب من هذا القبيل فى اليونان واليابان على الاقل. غير انه يتعين علينا ان نلاحظ ان مساحة كل من هذين القطرين مساحة ضئيلة بالاضافة الى احتشاد السكان فيها وخضوعهم لنفس السلطة السياسية والادارية القائمة فى كل قطر من القطرين. ثم ان اليونانية الحديثة واليابانية الحديثة لغة وسطى بين اللغة النبيلة واللهجات. ومع ذلك فان اليابانيين المعروفين باتقانهم للفنون وباجتهادهم فى البحث لا زالوا يستعملون اللغة الانجليزية فى المجلات العلمية التى ينشرونها على العلماء .

ان التجربة التى يحاولها الناطقون بالعربية تجربة ذات قيمة كبرى بالنسبة لمؤرخى اللغات. فلنحاول ان نبين بعض المصاعب الرئيسية التى يجب عليهم ان يتغلبوا عليها قبل الوصول الى غايتهم.

انه فى المستطاع ان نقول ان اللغة الفصحى الآن مقبوضة بين سنى كلابة اى بين اللغات الاجنبية من جهة ـ وهى اداة الثقافة والعلوم الحديثة وتستعملها النخبة الغربية، واللغات العامية، من جهة أخرى التى يستعملها الشعب العربى، وهو متمسك باخلاقه القديمة وتقاليده العتيقة المختصة بالاباء الاولين لا يزال سواده من الاميين.

ان النخبة الآنفة الذكر تحظى وتتمتع بنبوغ من الدرجة الاولى وبقدرة كبيرة على الابتكار. فالصقالبة والسكسونيون والجرمانيون واللاتينيون يتنافسون فى جميع ميادين الثقافة والعلم. ثم ان التوتر السياسى والتعارض المذهبى للذين يعملان فى هذه الشعوب هما عامل قوى كل يوم فى اوربا وامريكا بكيفية تلقائية كما تتطلبها الحياة دون اى حاجة الى عالم من أعضاء المجامع اللغوية، فما هو العمل يا ترى امام هذا التشعب والتكاثر فى المفردات والافكار ؟ هل سننقل هذه المفردات الى اللغة العربية؟ حقا ان الترجمة واحداث مفردات جديدة وسيلة من الوسائل التى بها تستطيع

لغة أن تتوسع وتغتني ولكن إلى اى وقت يمكن العمل بهذا التلقيح وعلى اية كيفية وفى اى وقت ينتهى؛ وهل فى مستطاع عمل من هذا القبيل ان يمكن النخبة الناطقة بالعربية من المساهمة فى البحث والاختراع بطريقة ذاتية أصيلة؟ وما هى قيمة كلمات ستعيش فى بيئة عربية دون المختبرات التى نشأت فيها قيمة تلك المدارك عند ما تترجم الى العربية فتصبح كما لو نفيت من اوكار الفكر التى نشأت فيها؟

ان هناك اسئلة كثيرة ترمى الى ان تبرهن على ان المشكلة ليست لغوية فحسب، فالقول بأن العربية قد قامت بدور علمى مهم فى القديم وانها قادرة على القيام به حتما فى الوقت الراهن قول يستدعى بعض التحفظات. انه من الحق والصواب أن العربية الفصحى قد اصبحت خلال العصور الوسطى لغة الثقافة والحضارة والادارة ولكن قد تحقق لها هذا بوجود ظروف استثنائية لا تتوفر لديها اليوم. فعند ما استفادت العربية من التراث القيم للثقافة اليونانية كانت هذه الثقافة قد اصبحت جامدة ويمكن هضمها بكل سهولة وبكل راحة على مهل دون استعجال. وان تزويد العالم العربى والاسلامى بالافكار اليونانية قد حدث بواسطة الترجمة التى نهض بها الرهبان النصارى فى الشام والعراق من اللغة اليونانية الى السريانية. كما تزود بتلك الافكار بواسطة اعمال مكتب الترجمة للخليفة المأمون حيث كان المترجمون يقبلون على نقل المؤلفات اليونانية من السريانية واليونانية الى اللغة العربية. وقد تم تحويل ثقافة العالم اليونانى الى اللغة العربية بكيفية منجمة خلال عدة قرون. فقد بدأ فى القرن الخامس ولم يبلغ اوجه الا فى القرن التاسع .

اما فى الميدان الادارى فقد نفحت سوريا والعراق اللغة العربية بالتقاليد الادارية القديمة التى كانت ببيزنطة وفارس منذ عهد الساسانيين. فقد استعرب عدد عديد من الكتبة الاجانب فجعلوا يسبكون لغتهم الجديدة أى العربية طبق مهامهم الجديدة ايضا. الا ان فى هذا الميدان كانت التقنيات الادارية مصابة آنذاك بالجمود كذلك. ولنفرض الآن ان ثقافة الغرب وفنونه العلمية قد توقفت عن التطور وان الشعوب التى أوجدت تلك الثقافة والعلوم قد اصيبت بنكسة سياسية واجتماعية شبيهة بالكارثة التى نزلت بالعالم الرومانى عقب فتوحات الجرمان فى القرن الخامس وان الشعوب الناطقة بالعربية قد وقاها الله تلك الكارثة فاستطاعت ان تعيش فى سلام او كان لها من القوة ما هيأها لاقرار حرمة كيانها القومى. عند ذلك فقط ستتوفر

الظروف الشبيهة بتلك التى ساعدت الشرق العربى فيما سبق وسيصبح لدى العالم العربى ما يكفيه من الوقت للاستناد الى الثقافة الاوربية فى خلق ثقافة جديدة تكون اللغة العربية اداتها ولكن الحالة الراهنة للغرب ليست حالة الانحطاط والجمود. ان العروبة لا تجد امامها ثقافة جامدة غير متطورة ذات نماذج غير متغيرة يسهل عليها ادماجها فيها بل الانسان الغربى المعاصر هو الآن فى اوج قوته. واذا كنا غير قادرين على اصدار الحكم حول نتيجة جهوده ففى مستطاعنا مع ذلك ان نقول ان نبوغه القادر على الاختراع ومنجزاته الصناعية وعزمه على ان يكون قويا قادرا على كل شىء تخلق حوله فورا عجيبا يعجز قوة البشر ويجعله يشبه جبابرة الميثولوجيا اليونانية واعلاجها اكثر مما يجعله يشبه الاشباح الكرام الذين يطوفون حول صرح ثقافة نشأت فى عهد الاسكندر ازدهرت ثم ذبلت الى الابد .

اننا لن نقول شيئا حول توحيد اللغة العربية داخل مجال الشعوب الناطقة بها لانها قضية ترتبط بالعوامل السياسية ارتباطا وثيقا. ويبقى لنا ان نتحدث الآن حول السن الثانى من الكلابة التى أشرنا إليها فيما سبق وهو لغة التخاطب .

ان اللغة الفصيحة تتوفر الآن على الوسائل العلمية الحديثة لتحل مكان العامية التى يجرى التخاطب بها. وهذه الوسائل الحديثة هى المواصلات السريعة والصحافة والراديو والتلفزيون فى وقت قريب .

ولكن هناك سؤال : ماذا يكون مصير اللغة الفصحى عند ما تظل جارية على ألسن العوام ؟ هلا تترك زينتها الملكية ؟ هلا يكون من الصواب أن نقول بأن اللغتين ستتقاربان تقاربا حتميا حتى تتولد عنهما شيئا فشيئا لغة جديدة تكون وسطا بين لغة العلماء ولغة الشعب ولا يخفى على احد أن مثل هذا التقارب يتوقف على تطور اجتماعى منسجم .

اننا قد فرغنا فى القسم الاخير من هذا البحث بصورة خاصة الى اظهار المصاعب، غير ان هذه المصاعب لا تعنى المستحيلات ابدا. فاللغة العربية الحديثة ثمرة مجهودات عظيمة حقا. فقد تم ادراك نتائج ملموسة بفضل

بحوث اللغويين المحدثين وبفضل تجديد طرائق التربية، فالصحافة والراديو لا يسمحان للغة الفصحى ان تنعزل عن الحياة بل تجبرانها على ان تتصل بها. ثم ان العالم العربى يقوم كل يوم بكفاح سلمى حتى يندرج مع لغته فى حركة علمية انتقلت بالبشرية فى فترة قصيرة من الزمن من عصر البخار الى عصر الطاقة النووية ومصير هذا الكفاح لا يتوقف على الاعتبارات العاطفية والمباهاة الفارغة العقيمة بمفاخر الماضى. ان النصر يقتضى العمل المستمر المنتظم القائم على الطرائق الدقيقة كما يستلزم التعاون الوثيق مع العالم الغربى فى ميدان العلم والثقافة.

عبـد القـادر زمامـة

ذكر بعـض مشاهيـر اعيـان فـاس فـي القديم

بين يدي الآن هذا الكتاب المخطوط الذى قرأته عدة مرات، ورجعت اليه مستفهما مستوضحا عدة مرات، وكلما ظفرت بنسخة قديمة او جديدة، الا واسرعت اليها فى تلهف، علنى اجد فيها جوابا شافيا عن سؤال من هذه الاسئلة، التى يلقيها الباحث المنقب عن المخطوطات ومؤلفيها، ولا سيما اذا كان المخطوط قد عبثت به ايدى الزمان عبثا يضلل الباحث، ويصرفه عن الحقيقة، الى الرجم بالغيب والضرب فى مجاهل الفروض والاحتمالات .

والمخطوط غزير الفائدة، وان كان صغير الحجم فهو لا يتجاوز 72 صفحة فى بعض النسخ ولا ينقص عن 58 صفحة فى نسخ اخرى حسب الخطوط المختلفة، وتكاد نسخة تكون متماثلة في الخطأ والصواب، والابتداء والانتهاء

فهو مبدوء بهذه العبارة فى جميع النسخ التى رأيناها: «ذكر بعض مشاهير اعيان فاس فى القديم» وقد كتبت هذه العبارة فى رأس الصفحة الاولى منه وسط السطر، مما يدل على انها عنوان الكتاب الذى اختاره المؤلف او الناسخ للاصل، ثم تناقلها النساخ كما هى.

وبعد عبارة العنوان نقرأ ما ابتدأ المؤلف به كتابه وهو هكذا : «فمنهم بيت بنى فذّة بفتح الفاء والذال المعجمة المشددة. بيتهم قديم بفاس، واظنهم من البربر ولهم بفاس سوق يعرف بسوق ابن فذة، ويقال له الآن : رحبة القيس. وبه فندق كان لهم بقرب شهود فاس، وادركت منهم ابا عبد الله محمد ابن فذة، يسكن فى حانوت، وهو خامل الملبس، ولا عقب لهم بموته»

وتابع المؤلف حديثه عن مشاهير اعيان فاس فى القديم، بالحديث عن اربعة وثمانين بيتا من دون ترتيب على حروف المعجم، وانما ذكرها على النسق الآتى :

1 — بيت بنى فذة
2 — بيت بنى المزدغى
3 — » » الاوربى
4 — » » المكودى
5 — » » الزواوى
6 — » » الملجوم
7 — » الشرفاء الصقليون
8 — » » منديل
9 — » » بنى عمرو
10 — » » حزب الله
11 — » » عشرين
12 — » » المغيلى
13 — » » الزرهونى
14 — » » ابى الفضل
15 — » » شيبون
16 — » » علـى
17 — » » صـوال
18 — » » دبـوس
19 — » » حـمـد
20 — » » ياسين
21 — » » عـزانـة (1)
22 — » » زنوبـة
23 — » » دجانـة
24 — » » لواتـه
25 — » » شلوش
26 — » » الوادى
27 — » » الاوربيين
28 — » » بكـار
29 — » » ملولـة
30 — » » فرقاجـة (2)
31 — » » الولـى
32 — » » حنيـن
33 — » » المصمودى
34 — » » حنـون
35 — » » زكـون
36 — » » خنوسـة
37 — » » الغازى
38 — » » عزوز
39 — » بكار القيسيين
40 — » » يسـكـر (3)
41 — » » وشون
42 — » » الاوربيين
43 — » » الجزرلى
44 — » » مليـل
45 — » » هشام
46 — » » عبد الحق
47 — » » القباب
48 — » » الحـاج
49 — » » السـلالجـى
50 — » » البـان
51 — » » لبابـة
52 — » » الملحوم
53 — » » الغديرى
54 — » » المليلى
55 — » » الملياني
56 — » » الخلوف

1) عزانة، تشاءم الناس من هذا الاسم فحرفوه، ونطقوا به هكذا «عزاهم» وما زال درب ابن عزاهم بالطالعة الكبرى الى الآن
2) ويقال فيه ايضا فرقاشة
3) نجده بالسين تارة وبالشين اخرى

57 — » » الغمارى	58 — » » الخبـا
59 — » » زنبـق	60 — » » عبد الرزاق
61 — » » حـدور	62 — » » عتيـق
63 — بيت بنى عبودة	64 — بيت بنى الموحدين
65 — » ابى مدين	66 — » » المليلى
67 — » » القـورى	68 — » » الورياغلى
69 — » » الهزميرى	70 — » » السكـاك
71 — » » مسونة	72 — » » العجـوز
73 — » » جشار	74 — » » يزناسن
75 — » » الفشتالى	76 — » » الجنيارى
77 — » » واشـون	78 — » » العافيـة
79 — » » الغـرديس	80 — » » رضـوان
81 — » » السراج	82 — » » الحضريين
83 — » » الحميديـين	84 — » » المسونيين

فهذه القائمة المبتدأة بالـكـلام على بيت بنى فذة تنتهى انتهاء غير طبيعى بالكلام على بيت بنى المسونيين هكذا : «ومنهم بيت بنى المسونيين، منهم الفقيه الخطيب الحاج ابو يحيى ابو بكر بن ..... »

مما يحمل على الظن ان الكتاب لم يكمل، او كمل ولكن ضاع من آخره شيء قليل او كثيـر... ! وعلـى كل فالنسخ التى رأيناها من الكتاب كلها تنتهى انتهاء بالعبارة السالفة .

والملاحظة الاولى التى يلاحظها الباحث هى ان هناك اضطرابا وتباينا فى اسلوب الكتاب، فهناك من البيوتات ما اخذ من الكتاب سطرا او سطرين بينما هناك ما أخذ صفحات، كبيت بنى الملجوم، والشرفاء الصقليين، وبيت بنى شيبون، وبيت بنى ياسين ...

ولغة الكتاب تعلو حتى يظن ان كاتبها اديب متضلع من اللغة والبيان.. وتنزل حتى يظن ان كاتبها يكتب بلهجـة قريبة من لهجـة العـوام... ولهذه الملاحظة اعتبارها الخاص فى حيـاة الكتـاب واطـواره التى مر بها حتى وصل الينا على هذا الوضع الخاص .

واستطـرادات الكتاب وخروجه عن الموضوع ظاهرة عامة فى الكتاب وهى اهم وافيد ما فيـه لانهـا تحتـوى على معلومات لا نكاد نجدها فى غير هذا الكتاب بهذه الصورة المدققة .

وسننقل لك بعضها لترى اهمية الكتاب التاريخية وما يحتوى عليه من معلومات جاءت عفوا دون تصميم ولا ترتيب، على ان بعض الاستطرادات قد حشرت حشرا فى الكتاب مع كثير من التشويه والخلط مما يزيدنا يقينا ان الكتاب تداولته عدة ايد بالحذف تارة وبالزيادة والتشويه تارة اخرى.

فعند حديث المؤلف عن بيت بنى الملجوم احفاد عمير بن مصعب الازدى وزير الامام ادريس بن ادريس وزوج ابنته السيدة عاتكة، يقدم لنا فذلكة تاريخية طويلة الذيل، عن اعمال ابى العباس السفاح التى قام بها للانتقام من بنى امية واشياعهم وكل من آذى اهل البيت، او اثار فتنة من الفتن، بعد قتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه الى ان انتصب العباسيون «فمن ادركه حيا قتله، ومن وجده من عقبه، وتمكن منه قتله»، والفذلكة هذه مكتوبة بروح متشيعة ناقمة على الامويين واشياعهم فهم كما يقول بلفظه :

«اعداء رسول الله فى الجاهلية، ورؤساء الاحزاب، وممدغين (كذا) اكباد آله، صلى الله عليه وسلم»

فنحن نرى ان هذه المعلومات عن السفاح قد حشرت هنا حشرا لا داعى اليه فلعلها من الزيادات التى تطوع بعض النساخ بزيادتها فى صلب الكتاب.

وروح التشيع كانت فاشية فى العصر الذى الف فيه الكتاب ولها مظاهر كثيرة فى اعمال المرينيين ولا سيما ابو عنان الذى يقال انه هم باحراق قبر الامام ابى بكر بن العربى من اجل ما نسب اليه من قولة فى حق الحسين السبط رضى الله عنه ..

وعند حديث المؤلف عن بيت بنى عشرين الخنزرحيين نجد قصة احراق المدونة على عهد الناصر بن المنصور، ويعقب المؤلف على ذلك بانتقاد الموحدين الذين اعتمدوا مذهب الظاهرية فى الاصول والفروع، كما ينتقد عقيدة المهدى ابن تومرت ودعواه فى العصمة، ولا يكتم سروره بما قام به المرينيون من ارجاع القضاء فى المغرب الى الفقه المالكى والمدونة بنوع اخص...

وعند الكلام على بيت بنى شيبون نجد المؤلف يتحفنا باستطراد فريد فى بابه وهو جمعه لعناصر السكان فى المجتمع الاندلسى من عرب وبربر ومستعربين، وما كان لكل عنصر من حيثيات ووظائف واعمال حرة او رسمية فى الدولة، مما يفيدنا فائدة جليلة فى معرفة الحياة الاجتماعية فى الاندلس ومظاهر نشاطها، وما كان لهذه الحياة من عادات وانظمة شبيهة بما كان هنا فى المغرب... فيقول المؤلف :

«ولما فتحت جزيرة الاندلس صرف اهل الاسلام وغيرهم من اليهود هممهم الى الحلول بها، فنزل بها من سادات الناس وجرائيمهم الجم الغفير واورثوها اعقابهم الى أن كان من امرهم ما كان، واهلها على اربعة اجناس : الجنس الاول دخل اليها من بنى هاشم الجم الغفير من الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر وبرقة وافريقية والمغرب الاقصى والسوس الاقصى. الجنس الثانى دخل اليها من سادات العرب وجرائيمهم ومواليهم الجم الغفير من سائر البلاد التى ذكرنا. الجنس الثالث دخل اليها من بربر المغرب وافريقية الجم الغفير، الجنس الرابع فى أهلها الذين دخل عليهم المسلمون منهم من أسلم واستقر بموضعه. ومنهم من سبى عند الفتح واستقر بها وبقى عقبه. ومنهم من اسلم بعد الفتح او سبى بعده واستقر بها عقبهما وهذا الصنف على اجناس منهم الروم والجلالقة وقشتالة وراغون البرميدى والغريقيين والينير والطوطين من الامم القديمة. ومنهم اهل بريس مدينة مستقر طاغية افرانصيص المنسوب الى افرنصية (1). ومنهم عجم رومية ومنهم من كان من اليهود مستقرا بها قبل الفتح وأسلم عند الفتح أو بعده او سبى عند الفتح او بعده او دخل اليها بعد الفتح واسلم .

«ثم ان اوصاف اهلها بعد استقرارهم بها.. اما بنو هاشم وقريش وبنو اسماعيل وبنو قحطان. فانهم احترفوا فى الحلول بها الحرف التى ليست بخاملة نحو تدوين العلم والتوريق على الكراسى وتحمل الشهادة والنساخة للكتب. وتعليم الصبيان، وامامة المساجد والوقوف عليها من نحو اصلاح وقبض كراء... وولاية نظارة وحسبة وكتابة عند الملوك ووزارة وولاية الامور الصالحة، ومن احترف منهم فاحترف بفلاحة وخدمة اجنات غلة وغرس ونسج حرير وبيعه غير منسوج وطريه وبيع بز وتسبب بجلبه وبيع عطر وسبك شماع وبيعه ونسج غزل الكتان وبيع لبن البقر لمن يمخضه ومن توقع - كذا - يبيع الفاكهة والخبز والخضر وهذا يخص منهم اهل الحسب والحياء... واما اهل التصرف والشورى فانه يدخل فى عدد الجيوش من أهل الحل والعقد ...

«واما البربر فانهم احترفوا بجلب البقر والفحم والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والاعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك، واهل الحاضرة منهم احترفوا ظفر الحلفة وخدمة الاوعية اى

1) كذا عند المؤلف وقد تعرضت كثير من الاعلام الاعجمية لتحريف المؤلفين العرب كما وقع العكس ..

السلل للزرع وفتل القنب والمحاريث والبراذع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار وصيادة الطيور للاكل، والحملان في الاسواق وحملان الزرع الى الديار وبيعه في الاسواق وخرز الولاء وجلب الماء والبناء وطبخ الجير والجبص ونحو ذلك .

«واما من اسلم من أهلها فمن كان منهم في البادية فاكتسبوا البقر والغنم والحرث والعسل واهل الجبال منهم فكانوا يغرسون الاجنات والفواكه وقطع الخشب وطبخ الفحم ومن ولى البحر منهم فكانوا يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وءالتها الى غير ذلك .

واما الموالى فاما من كان بالحاضرة منهم فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخرازة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلالب ونسجها والضرب بالطبول والبنود والحجامة وحمل الموتى وحفر قبورهم ودواء المرضى وعلاج الجرح والمرضى (كذا) وطحن برحى وخرط عود والقيام بالمساجد والاذان بها ورصد وقت وبيع لحم ونجارة خشب وعظم سرج وصنع كسوة جياد وسرير مكحلة وخدمة فخار وغيره وسبك حديد وءالة الحرب وصنعة نحاس ومبيتة الاسواق بالميل وحرس الفنادق وتسمير البهائم وحمل السلع من بلد الى بلد ...

واما من اسلم من اليهود فاحترف بخياطة الملف والثياب وظفر القيطان الذى يخاط مع الثياب ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصفيتها وحجامة وبلاجة ودلالى الاسواق وبيع لبن ممخوض وبيع واصلاح نعل مخروز ..

واما الموالى منهم فاحترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء وصنعة القدور للطبخ وبيعها وعصر الزيت وحملها والصابون وبيع ملح وحوت وشحم وصناعة فانيد وبيعه وبيع ادوية عشب وتسفير كتب وتجبيص الرباع وتزويق الخشب وتزليج الرباع وصناعة منسج للحياكة وصناعة صفر وصباغة وخدمة حمام وسقى ماء وسبك فداويش وشعريا وثريد ومقروط ورغائف بقصد البيع وبيع صوف وكتان وآلات الطرب والتغنى بها والضرب للدنانير والدراهيم وحلى لنساء وخرط مرجان وبيعه وكراء اوانى البناءين وحفر بئر وتصفية معدن وخدمة الرخام .

«والعرب الذين دخلوا اليها استقر اكثرهم بالحواضر.. واما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقر فى المدن ومن كان من البادية استقر فى القرى، واكثر جيوشها كانوا من العرب الذين دخلوا اليها الى أن رجع امرها

الى امراء العرب فاقرهم يوسف بن تاشفين اللمتونى الصنهاجى على ما كانوا عليه وامدهم باث (كذا) جيوش الشورى ـ كذا ـ فكانوا مددا لاهل الثغور الى أن غلب الموحدون على اللمتونى فردوا أهلها نائبا (كذا) لاهل المغرب، فضعف اهل الاندلس بسبب ذلك وكان عمر بن عبد العزيز نفذ بها جباياتها لانقطاع اهلها عن ارض المسلمين وجوارهم لاهل الكفر خوفا على اهلها ان يضعفوا عن مقاومة الكفار».

وقد نقلنا لك هذا النص على ما فيه من الفاظ فنية خاصة بالاستعمال الاندلسى والمغربى، وتعابير بعضها ركيك والآخر مستقيم لتعرف قيمة الكتاب وفائدته التاريخية للباحثين فى تاريخ المغرب والاندلس.

وكلما قرأت استطرادات المؤلف تمنيت ان يكثر منها وان يملى عليك منها ما شاء لانها طريفة ومفيدة فى وقت واحد وهى اهم ما فى الكتاب وافيد ما فيه. وكثيرا ما تكون المعلومات التى تجدها هناك وحيدة فى الموضوع.

فقصة الشيخ ابى عمران الفاسى مع امير صنهاجة فى القيروان اشار اليها كثير من المؤرخين.. كما ان ترجمة ابى عمران غير مجهولة(I) عندهم لكن مؤلف هذا الكتاب يأبى الا ان يعطينا معلومات اخرى اكثر دقة واغزر فائدة فيقول عند كلامه على بيت بنى ياسين:

«ثم ان يحيى وابا بكر بن عمر خرجا الى الحج مع قومهما فمروا بمدينة القيروان يتبركون بالعلامة ابى عمران الفاسى حيث بلغهم ان اهل فاس اخرجوه من مدينة فاس لنهيه لهم عما احدثوه من البدع والمظالم والمغارم واخذهم اموال الناس بغير حق، واعانوا على ذلك ولاة امرهم من بنى ابى العافية المكناسيين ومغراوة وبنى يفرن وكلهم من زناتة من البربر حيث ولّوا من ولّوا منهم ولذلك نهاهم ابو عمران فأخرجوه بسبب ذلك واستقر بالقيروان، ولما اجتمع مع يحيى بن عمر ندبه ابو عمران الى قتال برغواطة ببلاد السوس وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم واستنزال رؤسائهم من الولاية فوعده عمر بن ابراهيم بالنهوض الى ذلك وطلب منه أن يوجه معه الى بلاده بعض طلبته لينظر فى امور ديانتهم واخراج زكاتهم واعشارهم وفيمن تصرف مع اخماس غنائمهم فعرض ذلك ابو عمران على طلبته فامتنعوا من المسير مع يحيى بن عمر بن ابراهيم لبعد البلاد والمشقة وانقطاع الصحراء عن بلاد افريقية. ثم قال له ابو عمران نكتب لك رسالة الى فقيه بالسوس

I) التشوف ط. الرباط 64 ـ والديباج ص 354 وانظر بحثنا عنه فى مجلة (البينة) عدد 3 يوليوز 1962.

مما يلى بلادك يدعى بوجاج ممن كان قرأ عليه بفاس قبل ارتحال ابى عمران عنـهـا (1) ».

ورغم ان المؤلف تشابه عليه الامر فى اسم امير صنهاجة فسماه يحيى ابن عمر مع انه يحيى بن ابـراهيم الكدالـى كمـا أشار له كثير من المؤرخين فان المعلومات التى سطرها عـن حيـاة ابى عمران فى فاس وموقفه من مغراوة وبنى يفرن... مع اخذ وجاج بن زلـوا اللمطـى العلـم عنه وهو فى فاس قبل الهجرة الى تونس يعد شيئا فريدا... بالنسبة لما سطره مؤرخون آخرون...

وينقل المؤلـف معلوماته عـن دولة المرابطين من مصادر سطرها هى : زهر البستان لصالح بن عبد الحليم. والحلـل الموشيـة. وكتاب ابن صاحب الصلاة. وكتاب ابى عبيـدة المـراكشى...؟ ولذلـك كانـت دقيقة مع اخطاء لا تخفى... بسبب الايدى التى تداولت الكتاب فشوهت معالمه ونقصت منه وزادت ...

وعند ذكر انقراض دولة المرابطين يقـدم لنا المؤلف المهـدى بن تومرت فى حلقة ابى حامد الغزالى وهو يدعو عليهـم حينمـا استجابوا لفتوى علماء قرطبة وقاضيها ابن حمدين فأمـروا باحـراق كتاب احياء علوم الدين. وابن تومرت يلح على شيخه ليكون انقراضهـم علـى يديه. ويخلو به شيخه بعض الوقت ليعلمه التوقيت والتعديل والهيئة وخواص الاعشاب والتدبير والمعادن والاشكال والخط والطـب والحكمـة وصناعـة الجـدول والطلاسم والحروف واسرارها، وعلم الحدثان وسائر علوم السحر...!! وامره بالمسير الى المغرب والقيام به ...!!

ويتابع المؤلف حديثه فيذكر لنا ان محمد بن عبد الملك بن الودون ألـف كتابا فى تاريخ الادارسة. وانه كـان يتولـى القضـاء فى ايام مغراوة...! فاذن كان هناك تأليف ومؤلفون. وتاريخ ومؤرخون فى ذلك العصر ...

كما يذكر لنا ما عزم عليه ابو عنان فى شأن الامام أبى بكر بن العربى وقولة المقرى الجد فى شـأن حديـث الخلافـة فـى قريش تلك القولة التى بعثت ابا عنان على تقديم صلة سنية لصاحبها ..!

وفى مصرع لسان الدين ابن الخطيب يزيدنا معلومات واخبارا اكتنفت الحادث واهملها كثير من المورخيـن ...

وعند ذكره لكتاب القرطاس يتحفنا كعادته بهذا النص الفريد :

1) فى التشوف ص 66 انه اخذ عنه بالقيروان.

«وقد ذكر ذلك صالح بن عبد الحليم (1) في الانيس المطرب روض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس وكان انتهاؤه لتاليفه ـ كذا ـ عند وفاته في سنة ست وعشرين وسبعمائة فكان ابن الخطيب في ذلك الوقت شابا بالاندلس بلوحه في المكتب، وقد ألف صالح بن عبد الحليم كتابا آخر سماه زهر البستان في أخبار الزمان اكبر من الانيس.

والانيس الثاني الصغير هو تاليف صالح بن عبد الحليم المذكور، والكبير هو تاليف الشيخ الكبير الامام الخطيب البليغ الواعظ الورع الزاهد الولي الصالح العلامة المدرس المفتي ابي العباس احمد بن ابي زرع، تولى الامامة والخطبة بجامع القرويين بطلب العوام منذ ذلك ولحظه الناس وطلبوا منه سنة الاستسقاء فصلى بهم خارج باب الفتوح وقدم بين يديه آله صلى الله عليه وسلم ليشفع بهم كما فعل عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عنهما فسقى الناس وحمدوا الله على اجابة دعائهم. وكانت وفاة ابن ابي زرع في بضعة عشر وسبعمائة. وكثيرا ما يتفقان فيهما في الاخبار بالمسائل»

وكان هذا النص سببا في جلاء بعض الغموض عن كتاب القرطاس ومؤلفه، وقد استفاد من ذلك صاحب «سلوة الانفاس» فنقله عن صاحب هذا الكتاب (2) .

والى جانب هذه النصوص التاريخية نجد المؤلف يعتني اعتناءا خاصا بذكر بعض مشاهير الاعلام من علماء وصلحاء ووزراء وقضاة في كل بيت من البيوتات الشهيرة فيقول ومنهم فلان ويذكر ترجمته وما اشتهر به من علم او اصلاح او حادثة او نادرة طريفة وسننقل لك بعضها فيما يأتي :

وهكذا جمع الكتاب اشتاتا والوانا من اعلام التاريخ المغربي منذ العصر الادريسي الى اواخر عهد بني مرين وهؤلاء منهم الشهير الذي نجد ترجمته في كتب الطبقات والرجال ومنهم المغمور الذي لا نعرف عنه شيئا سوى ما في هذا الكتاب «كالولي الصالح ابي يوسف يعقوب المنصور (كذا) بن الاشقر البهلولي المتوفى في آخر المائة السابعة أو أول الثامنة» (3).

---

1) ذكر المؤلف في موضع آخر من الكتاب ان صالحا كان من كتاب دولة بني مرين .

2) السلوة ج 3 ص 358

3) يقال ان حمة مولاي يعقوب الشهيرة منسوبة اليه ـ السلوة ج 3 ص 219

وشيء آخر يعتني بـه المؤلـف هو احياء فاس واسماء بعضها التي ما زالت محفوظة الى الآن فتجد فيه :

رحبة القيس ـ درب ابن شلـوس ـ وطـا فرقاجة ـ او فرقاشة ـ وطا المغيلي ـ طالعة فاس ـ عقبة المكودي ـ جسر ابي طوبة ـ درب ابن شيبون ـ عقبة ابن صوال ـ عقبة ابن دبـوس ـ ميزاب لبي حنين ـ زقاق مصمودة ـ جزاء ابن زكوم ـ درب خلوف بالكدان ـ عيـن ابـي خزر ـ الباب الحمراء ـ وادي الزيتون ـ حومة صاريوة ـ حومـة الجيزييـن ـ سويقة مغراوة ـ درب ابي حاج ـ زنقة الغديري ـ درب الغماري ـ جراوة ـ بني مسافر ـ درب ابن عتيق ـ درب ابن عبود ـ شيبوبة ـ القطانين .

وجل هذه الاسماء ما زال يطلق نفس الاطلاق الذي كان على عهد المؤلف كما أن هناك أسماء اخرى في الكتاب لا نعرف مدلولها بسبب تغير الاوضاع وعلى كل فالفائدة التاريخية نجدها في عمل المؤلف ولا شك .

بعد هذا سنقتطف بعض النوادر والطرف التي نشرها المؤلف في كتابه هنا وهناك فمنها :

1 ـ بـاب الفتـوح وبـاب الشريعـة

عند ذكر القاضي محمد بن علي الرزاق تلميذ ابن رشيد الفهري ذكر انه كان مفتتنا بابن شيخه المذكور (1) يبيح له أخذ الرشوة بعض الطرف عنه فهجاه محمد بن يحيى بن ابي طالب بن ابي القاسم العزفي بأبيات كتبها في جدران باب الفتوح وباب الشريعة وهي :

أقاضـي الجمـاعـة قـد شنتهـا ... واحـدثـت فيهـا امـورا شنيعة
ظـلـمـت العبـاد ورمـت العنـا ... دوخـ دعت في الدين كل الخديعة
فتحـت لنجلـك (1) بـاب الفتوح ... واغلقـت للنـاس بـاب الشريعة

2 ـ مـن عبـده ابليـس اللعيـن

عند ذكر بيـت بنـي الخبا ذكر ان ابا القاسم بن ابي مدين العثماني اشترى روض جراوة من مالكه احـد بنـي الخبـا، فكتب الموثق حلية ابي

---

1) في الجذوة ص 143 ان القاضي المذكور افتتن بابنه هو لا بابن شيخه وهو الذي يظهر حيث يقول ابن العزفي فتحت لنجلك ...

القاسم، فحلاه بالفقيـه، ذى الوزارتين، الحاجب، صاحب العلامة الى اكثر ذلك... ثم تحير فى كتابه حلية البائع ابن الخبا، فقال لزميله الموثق الآخر:

ما تقـول فيـه ... ؟ فسكت هذا وتحيرا ...! فلم يكن من ابن الخبا الا أن قال لهما على وجه النادرة ...

ـ قولى ... اشترى الله عز وجل.. من عبده ابليس اللعين... هذا هو كتاب «ذكر بعـض مشاهير اعيان فاس فى القديم» وهذه صورة عما يتضمنه من فوائد ومصادر تاريخية لا بالنسبة لناحية او بقعة من المغرب بل بالنسبة لتاريخ المغرب والاندلس على العموم ...

فمتى ألف هـذا الكتـاب ... ؟

ومن يكون مؤلفه ... ؟

هنا نجد الالغاز والظنون والاحتمالات، والـذى دعا الى ذلك شيئان .

أولا : عدم كتابة اسـم المؤلـف فـى جميـع النسخ التى عثرنا عليها الـى الآن .

ثانيا : ما يذكـره المؤلـف من وفيات لعدة شيوخ وما يذكره من انه اخذ عن بعضهم مع ما يتبع ذلك من اخطاء فى كتابة هذه الوفيات ولنستعرض بعض ذلك فيما يأتى :

1) يذكر وفاة ابن عرفة التونسى الامـام الشهير انها وقعت سنة 880 ويكتب الناسخ ذلـك بالحـروف مع ان ابـن عرفة توفى سنة 803 (1) ويقول عن ابن عرفة الجزولى انه توفى بعده .

2) يذكر وفاة ابى عبد الله محمـد بن عبد الله القورى سنة 872 كما يذكر وفيات اخرى بعضها فى القرن العاشر .

وهذا ما جعـل صاحـب السلوة يذكر هذا الكتاب كمصدر من مصادر مؤلفه، وينسبه لبعض تلامذة الامام القورى (2) .

والحقيقة التى يلمسها المؤرخ الباحث من خلال ما يجـده من نقـول عن هذا الكتاب فى المخطوطات التى نقلت عنه كثيرا وكذلك المطبوعات، انه من تاليف الامير أبى الوليد اسماعيل بن يوسف ابن الاحمر الذى استوطن فاسا مدة طويلة من الزمن واتصل بملوك بنى مرين اتصالا وثيقا من عهد ابى عنان (752 ـ 759) الى عهد السلطان ابى سعيد عثمان بن ابى العباس (800 ـ 823)

1) وفيات ابن قنفذ ص 63 ط. القاهرة

2) سلوة الانفـاس ج 3 ص 219

ولهذا الاخير ألف كتابه روضة النسرين التى يصف فيها ملوك بنى مرين فى هذه الحقبة (1) ويقول عن كل واحد منهم رأيته ومن صفته كذا وكذا ...

واخذ عن عدة اشياخ بها وألف عدة كتب مذكورة فى ترجمته (2) ومنها هذا الكتاب. وقد نسبه إليه المورخ أبو عبد الله ابن ابراهيم الفاسى فى كتابه «سلسلة الذهب المنقود» (3) . وابن القاضى فى جذوة الاقتباس ...

وقد جعل الشيخ بابا السودانى وفاة ابى الوليد ابن الاحمر سنة 810 بينما يجعلها بن القاضى سنة 807 وعلى كل فما نجده فى الكتاب من وفيات بعد هذا التاريخ هو ولا شك طرر وتعليقات زيدت بعد وفاة المؤلف الذى يظهر انه لم يتم كتابه... فجاء الناسخون وظنوا انها من الاصل وبذلك وقع تضليل الباحثين والمؤرخين فى نسبة الكتاب .

على ان هناك شبهة اخرى يمكن ان تلقى على نسبة الكتاب الى ابن الاحمر... وهى ناحية اللغة والاسلوب فالمعروف عن المؤلف فى نثير الجمان وغيره أنه من كتاب السجع المتفق... والكتاب الذى بين ايدينا فيه صفحات مستقيمة اللغة والاسلوب بينما فيه فقرات ركيكة احيانا وقريبة من العامية

غير ان المتتبع لما نقله السودانى عن فهرست ابن الاحمر فى كتابه نيل الابتهاج يجد ان ابن الاحمر يسجع احيانا ويترسل اخرى .

ونحن لا نشك ان الكتاب الذى بين ايدينا قد تداولته عدة ايد بالحذف والزيادة والتشويه والاختصار ...

كما لا نشك ان كلمتنا حول هذه النسبة ليست هى الاخيرة فى الموضوع فمن الجائز ان نجد فى المخطوطات التى ما زلنا لم نطلع عليها من مؤلفات ابن الاحمر ومعاصريه ما يكشف القناع عن الحقيقة .

وقد اختصر الكتاب ابو زيد الفاسى وزاد على الاصل عدة بيوتات وطبع هذا المختصر على الحجر بفاس وهو مفيد جدا.

فعسى ان تكون هذه الكلمة سببا فى تمحيص بعض الحقائق التى ما زالت رهن البحث والتنقيب ...

---

1) انظر روضة النسرين ـ مخطوطة

2) انظر السودانى فى نيل الابتهاج ص 99 ـ والسلوة ج 3 ص 256 وجذوة الاقتباس ص 99

3) مخطوطة

محمد بن تاويت

من زوايا التاريخ المغربي

اعتاد منا القراء ان ننشر تحت هذا العنوان وثائق تاريخية مترجمة الى العربية، وفي هذا العدد من مجلتنا، سننشر وثائق أخرى، بعضها ـ وهو الغالب ـ مترجم في اصله، وبعضها مترجم في ملخصه، ثم أخرى ننشرها في نصوصها العربية.

وهذه الوثائق متشعبة في موضوعاتها لهذا جعلناها ثلاثة اصناف فالاول يتعلق بالموريكسكوس ونشاطهم وما كانوا يلاقونه من اضطهاد، وقد اعتبرنا هذه الوثائق من تاريخ المغرب، لان لها تعلقا شديدا به كما سنرى فيما خصصناه بهذا العنوان .

استماتة المسلمين بالاندلس

من المعروف أن طرد العرب المسلمين من اسبانيا تبعه نظام التفتيش الذى فرضته الكنيسة وعضدته الدوائر الحكومية، وكان نظاما جهنميا يفرض على هؤلاء الذين بقوا بالاندلس وتظاهروا باعتناقهم للمسيحية قيودا ثقيلة وخضوعا لتدخلات حتى في نظام البيت، فكان نظام التفتيش يهدف الى محق ما عرف به المسلمون حتى ولو كان متصلا بالنظافة واللباس، اذ وجود حمام في منزل كان كافيا لتعريض أهله على التعذيب والتصليب والاحراق من جانب رجال الكنيسة وزبانيتها كما ان اتخاذ شارة كان كافيا بالاحرى في ذلك

وقد تحمل هؤلاء الذين ظلوا مقيمين باسبانيا كل ما فرض عليهم، لكنهم في داخليتهم ما فتئوا يلقنون اطفالهم تعاليم الدين ويحتاطون في كتم ذلك بوسائل في منتهى الدقة، ان الرجل يلقي بكلمة الى طفله بعد ما يانس منه تلقنها، ويسر اليه بالا يفشي ذلك لاحد، ثم يخبر بذلك زوجه التي تلح على الطفل بأن يفضي اليها بما تلقاه عن والده فان أخبرها بذلك احتاط الوالد في التلقين وارتاض له طرقا اخرى وان احتفظ بالكتمان رجي لهذا الطفل ان يستمر في تلقنه مبادىء الدين فصار يتدرج به في تلك

هذه العملية استمرت في اجيال عديدة وظل هؤلاء الاولاد وهؤلاء الاحفاد واولادهم واحفادهم يمارسون رسالتهم الشاقة المحاطة بالاخطار، وكلما عثر عليهم نالهم هم وجماعتهم ما ينالهم من التعذيب والنفي من البلاد.

وحدث في اواسط القرن السادس عشر، ان حاول هؤلاء الثورة المنظمة على فليبي الثاني، بعد ان اشتدت وطأته عليهم، واشتط اكثر من سابقيه في منعهم من التكلم بالعربية، وأخذهم بالتخلي عن تراثهم العربي وتسليمهم لما بقي لهم من كتب عربية الى حكامهم، وتغيير ملابسهم وما بقي من عوائدهم العربية وكذلك أوجب عليهم ان يستبدلوا أسماء مسيحية بأسمائهم الاسلامية، وامر بهدم حماماتهم وترك ابواب دورهم مفتوحة، وان ينطلق نساؤهم سافرات غير محجبات .

وكتبت بذلك البلاغات واعلنت على لافتات كبيرة، في جميع المملكة، وعرضت على الجماهير بين قرع الطبول ونفخ الابواق زيادة في الاعلان مما كان له كبير استياء بين هؤلاء الموريسكوس، وحملهم ذلك على الثورة، بعد ان بايعوا منهم شابا مسلما، كان اسمه «فرنندو القرطبي» Fernando de Córdoba او فرنندو دي فلور Fernando de Valor وكان من مدينة غرناطة، بايعوه عليهم ملكا باسم (محمد بن امية) ودامت الحرب في هذه الثورة سنتين كاملتين وصلت في خلالها بعض النجدات من الاتراك والمغاربة اليهم، ولكنهم في النهاية انهزموا، ومع هذا فلم ييأسوا من معاودة الثورة، كلما اشتد عليهم الاضطهاد، ووجدوا الفرصة سانحة لهم في ان يثوروا .

وتكرر ذلك مرارا وكان آخره ما حدث في القرن السابع عشر وفي عهد فيليبي الثالث، حيث عثر على هؤلاء الموريسكوس وهم يدبرون مؤامرة يهدفون بها الى الثورة معتمدين في ذلك على تأييد الدولة العثمانية والدولة السعدية، ولكن اولئك ولا هؤلاء كان منهم هذه المرة ما يشجعهم على تخلصهم من هذا النير، اللهم الا ما كان من وعود ومناوشات، يقوم بها المتطوعون من الاتراك والمغاربة على حساب القرصنة في الواقع، بل إن هؤلاء الملوك كانوا يستفيدون من تعلق هؤلاء الاندلسيين بهم .

لقد اخذت القضية كما قلنا ادوارا خطيرة ومتعددة ألف فيها مؤلفات بعينها وقد عثرنا على وثائق تتعلق بها فأحببنا ان ننشرها مرتبة حسب تواريخها كالآتي : ففيما يتعلق بالثورة على فيليبي الثاني، نجد رسالة وليم فير Willim Phayre الى وليم سيسل William Cecil يقول فيها :

واخيرا فان الملك قد اصدر اوامره الى فصيلة من الجيش المرابط، ليعسكر في كل مدينة من مدن اسبانيا، وذلك ـ كما يقال ـ ما هو الا لخوفه من الموريسكوس واليهود، الذين تمتلىء بهم البلاد، وان كانوا قد اتخذوا اسماء مسيحية، ولم يقع منهم تمرد منذ ثلاثة اشهر خلت، الا ان هناك حالة عظيمة من الذعر، وقد اكتشفت محاولة تمرد في اريفالو Arévalo

المدينة التي تقع غربي قشتالة بعد اجراء عجيب استغرق وقتا طويلا، استعملت فيه المكاتبات وتلقيت فيه التعليمات، واعلنت به الدعوة في قوة وايمان، ولكن كشف ذلك في الختام، وألقى القبض على رسول لملك فاس، كان يتردد على هذه البلاد سنويا، فيباشر حمل الاتاوة التي كان الموريسكوس المذكورون يؤدونها لسيده الملك، كاعتراف منهم بأنه ملكهم الشرعي وسيدهم الحقيقي، ولما قبض على هذا الرسول واوقع عليه انواع التعذيب، ليقر بما كان يزاوله، اكتشف ان له زملاء آخرين، وهم خمسة كانوا منتشرين في نواحي غرناطة وبلنسية، فأجرى البحث عنهم، وقبض عليهم جميعا، فضبط عدد هائل من الامتعة، بحيث إن الملك لم يفقد شيئا .

والآن فان هذا الحادث قد حسب له حسابه بصفة جدية، ونشأ من هذا الخطر الذي كان وما زال محدقا بالدولة أن أعلن الملك عن جوائز، وأشاع في كل البقاع الامتيازات التي منحها هؤلاء الذين سيسجلون انفسهم في الجيش المرابط المذكور، وانهم سيتمتعون بالمزايا العديدة العظيمة، مقابل التزامهم لبعض الانظمة التي عليهم ان يراعوها، أما خصائص هذه الانظمة وتفصيلها، فاني حتى الآن ما استطعت ان اتبينها، ولكنها قريبا سيعلن عنها في المنشورات، ولهذا فاني لم ارسل الى سيادتك هذه التفاصيل .

من مدريد في السابع عشر من نوفمبر سنة 1565

* * *

ثم بعد ذلك بأربع سنوات نجد رسالة فوركوفو (1) الى كطارينا دي ميديسيس، يقول فيها

قد تأكد صدى تمرد «الموريسكوس» بغرناطة واصبح يعظم يوما بعد يوم حتى إن «الملك الكاثوليكي» (2) قد بعث منذ ثلاثة ايام ثلاثين الفا من الايسكودو (3) الى «كونت طينديا» (4) نائب الملك بغرناطة ليجند الناس وثلاثين الفا أخرى الى ماركيز بادس (5) بالاندلس وفي اليوم الخامس من هذا الشهر ابلغ صاحب الجلالة بواسطة كاردينال «سيغمويتسة» (6) خدمه الشبان بالقصر وفرسان الطرق الدينية واعيانها بأنهم سيحسنون صنعا

(1) Fourquevaux كان سفيرا باسبانيا للوصية على ابنها شرل التاسع Catherine de Médicis.

(2) يريد فليبي الثاني وهو لقب منحه البابا ملوك الاسبان منذ ان طردوا المسلمين من اسبانيا

(3) Escudo عملة قديمة ذهبية ثم صارت تتخذ من فضة

(4) Conde de Tendilla. (5) Marquez de Vélez. (6) Cardinal de Siguenga.

اذا ما ذهبوا للالتحاق بنائبي الملك المذكورين وساروا في أثرهما لمحاربة اولئك الثوار، وهم يفعلون هذا بعضهم بالعمل يوميا وبعضهم بصفة غير متصلة. وقد قال لي بعضهم ان ملك الجزائر(7) وملك فاس (8) سيرسلان النجدات الى الموريسكوس المذكورين، ومن الواجب ان يتوجه «دون سانتشو دي ليبيا» (9) في ثلاثين قاربا الى مالقة ليحول دون وصول تلك النجدة. وانا اعلم انه كانت توجد بشاطىء غرناطة مرافىء مهمة بالنسبة للنجدات الواردة من شمال افريقيا وانه في المستطاع ان تقام بها الحصون فيصبح المعتصمون بها في مأمن ضد اسبانيا. ويرى بعضهم ان القوات التي يحشدها ملك الجزائر بقصد مهاجمة وهران ستستعمل في نجدة الثوار، ويقول آخرون انه سيستغل الثورة لتيسر له استرجاع وهران (10) .

مدريد 6 يناير 1569

* * *

ثم نجد رسالة له الى شارل التاسع ملك فرنسا يقول فيها :

سيدى

كل شىء بهذا القصر لا يزال كما كان عليه عند ما بعثت اليكم كتابى المؤرخ باليوم الثالث والعشرين من دسمبر.

اما ما عدا ذلك يا سيدى فان الخبر المذاع هنا في هذا الوقت هو خبر تمرد النصارى المحدثين بمملكة غرناطة والذين يسمون «الموريسكوس» . فقد عظم يأسهم الآن بعد ان حرم عليهم ارتداء الزى الموريسكى والتحدث بلغتهم. وقد بلغ بهم اليأس درجة اصبحوا معها يؤثرون الموت على الحياة . وقد ثار عدد منهم يقدر بثلاثين الفا وهم يحملون السلاح فهاجموا عددا من أماكن النصارى واحتلوها وقتلوا الرهبان والشمامسة وحرقوا الكنائس واتوا كل اعمال العداء. وقد ادى عملهم الى انتشار القلق في كافة أرجاء المملكة. ويقال انه يوجد ما يزيد على مائة الف منهم لهم نفس النية في الثورة والعزم عليها. ولقد أرسل إليهم ملك الجزائر الاسلحة وعدداً من الاتراك والمغاربة لقيادتهم. وكل يوم يعبر الناس من بر البرابرة لنجدتهم.

7) يريد باشا الجزائر من قبل سليم الثاني

8) يريد عبد الله الغالب

9) Don Sancho de Leyeva.

10) لم يسترجع الاتراك هذه المدينة الا سنة 1708 م او عام 1120 هـ.

وهم ينتظرون مزيد العون من الجزائر حيث جرت الاستشارة منذ عام وصدر الامر بتلك النجدة من القسطنطينية .

اما وسائل الدفاع التى اتخذها الملك لحد الساعة فهى ارساله ثلاثين قاربا فى الحال الى شاطىء غرناطة للحيلولة دون وصول تلك النجدة وسيأتى «خوان اندرى دوريا» (11) بقواربه وقواته، ومجموعها ثمان عشرة فرقة من المشاة تقسم عى جهات مختلفة. ولقد ارسل صاحب الجلالة ثلاثين الفا من «الايسكودو» الى «ماركيز «مونديخار» (12) نائب الملك بغرناطة ليجند الناس على عجل، وهو الآن بصدد القتال معتمداً على النجدات التى ارسلتها المدن الطيبة اليه وعلى اصحاب النبل الذين خفوا للقائه. كما بعث ثلاثين الفا اخرى الى «ماركيز دى فيليز» لوقاية الاندلس التى يوجد بها الموريسكوس ايضا. ويوجد منهم بمملكة بلنسية ما يربو عددهم على بقية الممالك، الا انهم لا يزالون هادئين فى الوقت الراهن. اما مدينة المرية فيحاصرها ثلاثة او أربعة آلاف من المسلمين. وان ما يزيد على مائة مدينة صغيرة وقرية توجد بجانبهم وربما تكون الشائعة اكبار من الحقيقة الا ان العجائب تحكى عنهم رغم كونهم لم تمض الا أيام معدودات على شروعهم فى الثورة. وان السيد «طريغوين» الذى يحمل هذا الكتاب لن يستطيع اخبار جلالتكم الا بالمعلومات والتفاصيل الواردة بعد مستهل هذا الشهر. وأن السادة الموجودين بالقصر لا يعيرون ذلك شيئا كثيرا من اهتمامهم. الا ان «دوق سيسى» (13) وغيره من الرجال العارفين بالموريسكوس والذين توجد املاكهم بغرناطة يهتمون بها غاية الاهتمام .

ان حقيقة التمرد المذكور ستتضح فيما بعد. واذا كان هناك ما يدعو الى الثقة بما يقال عن وصول الرجال والاسلحة من بر البرابرة، وهو ما اشك فيه كثيرا ــ فانه لم يمض من الايام ما يكفي لوقوع كل تلك الحوادث التى يتقول بعضهم بها .

مدريد 13 يناير 1569

* * *

Juan André Doria. (11
Marquez de Mondeja. (12
Duque de Sesso. (13

وله من رسالة أخرى اليه ما يأتى :

سيدى :

لقد علمت بعد كتابى الاخير المؤرخ بمتم اكتوبر ان تسعة قوارب قد غادرت مرسى العرائش ببلاد البربر (وهو خارج عن مضيق جبل طارق) وهاجمت فى اليوم الثانى والعشرين من شتنبر جزيرة «لانثاروطى» (14) من الجزر الخالدات واستولت على المدينة وأحرقتها كلها تقريبا كما احرقت جميع الكنائس الموجودة بها واسرت عددا كبيرا من الاسرى من بينهم ست سيدات من البيوت المحترمة. كما قامت تلك القوارب باستطلاع جميع موانىء «كاناريا الكبرى» واحرقت جميع المراكب التى كانت موجودة بها او اسرتها وقد اشعرت بأنها تريد العودة للقضاء على الملاحة المتصلة ببلاد «البيرو» ومع جزر الهند التى تحتلها البرتغال. وأن سكان تلك الجزر قد ارسلوا إلى سيدهم ملك اسبانيا كتابا يتوسلون فيه الى حضرته ان يغيثهم ويرسل اليهم خمسمائة رجل، وقد حدث النزول المذكور يوم 22 شتنبر .

كما ان احد الاتراك قد اغتال سليطين الموريسكوس الذين ثاروا بغرناطة (15) لكونه قتل تركيا ارتكب جريمة، فانتخبوا بدله سليطينا آخر هو عم السلطان المذكور (16) وتتوفر فى هذا شروط الامارة والقيادة اكثر من سلفه، اذ أنه قادر على أن يأتى اعمالا عظيمة، ان استطاع الدفاع عن نفسه امام القوات التى يبعثها عليها اخوكم (17) الملك. واظن انه سيستغل الجنود الذين كان قد وعدكم بارسالهم، وهم اربعة آلاف جندى، حيث سمعت اخيرا ان هذه القوات لما نزل بمدينة «فيطوريا» (18) واحوازها، ولا يبدو عليها انها تنوى المسير الى ابعد منها .

مدريد 5 نوفمبر 1569

* * *

14) Lanzarote.

15) هو محمد بن أمية واسمه المسيحى Don Fernando de Valor.

16) اسمه عبد الله بن عبو

17) لم يكن اخاه نسبا

18) وردت الكلمة فى النص هكذا Victoree والمراد Victoria.

وورد في رسالة أخرى له نفس الملك ما يأتي :

اصدر ملك اسبانيا امره الى جميع اساقفة مملكة قشتالة بتجنيد جميع الرجال الذين تلزمهم تعبئتهم عند ما تحدث حالة الطوارىء الحربية ويكون الدفاع واجبا عليهم كما يجب على امثالهم في فرنسا عند صدور الامر، وسيبعث الرجال المجندون الى غرناطة

وقد تلقى السادة الكبار بهذه المملكة الامر بأن يرسلوا الى غرناطة العدد الذي ينوبهم من الرجال بمقتضى ذلك الامر وبأن يكونوا انفسهم على استعداداً ليتوجهوا عند الاعلام الاول إلى المكان الذي سيحيطهم الملك علما به. الا أن معظمهم قد قدم .

وقد خرج الفرسان والاعلام من «شانتياقب» و«قلعة رابح» و«القنطرة» (19) بقصد الاجتماع في غرناطة، ومن هؤلاء من لا يتعدى معاشهم خمسة وعشرين «ايسكودو» ويسمى فرسانهم بفرسان «الخبز والماء» قد جاءوا راكبين يحملون رماحهم .

أما المجندون بالمدن فقد بدأوا مسيرهم ويجتمع معظمهم في أبدة (20) التي هي مدينة طيبة تبعد بمسافة سبعة عشر فرسخا عن غرناطة. ويقال ان المدن قد قدمت اثنين وثلاثين ألفا من المشاة وأنها ادت لهم رواتبهم لمدة شهرين .

أما المسلمون الثائرون بغرناطة فعددهم يتراوح بين ثمانية وعشرة آلاف ويتوفرون على البنادق النارية والرماح والفؤوس والسهام، بالاضافة الى ما يزيد على ثلاثين الف رجل يتوفرون على اقواس ونبال واسلحة أخرى بسيطة .

وقد قتل ملكهم كما كتبت لكم من قبل فانتخبوا عمه الذي يلقب بلقب «القائد العام للسيد الاكبر» (21) لا بلقب الملك، وربما كان في صحبته من الاتراك الوافدين عليه من الجزائر ما يتراوح بين اربعمائة وخمسمائة. ورغبة في الايهام بأن عددهم يفوق ذلك المجموع فقد عمدوا الى عدد من كبار المسلمين الشجعان وألبسوهم زي الاتراك .

---

19) هي هكذا : Alcántara, Calatrava, Santiago.

20) Ubeda.

21) Gran Señor. والمراد به السلطان العثماني

وقد وصل فى الايام الاخيرة قاربان من الجزائر فافرغا الذخائر والاسلحة بشواطىء «سييرا نفادا» رغم صدور الامر إلى القوارب الاسبانية بضرورة الحضور. الا أن تلك القوارب قد عادت دون ان يحيق بها أى خطر. ولا يريد المجلس الحاكم لاسبانيا ولا محكمة التفتيش ان يتمكن اولئك المسلمون من مغادرة البلاد ولا الانسحاب الى شمال افريقيا مع العلم بأن معظمهم لا يريد غير هذا. فمحكمة التفتيش تدعى ان اولئك المسلمين قد ارتدوا عن العقيدة النصرانية فأصبح من المتعين قتلهم جميعا .

وحدث فى احد الايام الاخيرة ان قام «دوق سيسى» باسترداد اربعة او خمسة من الحصون الرئيسية منهم وكذلك الوادى المسمى «البوميلوس» (22) والذى وجد فيه من الدقيق والتين والزبيب وغيرها من الفواكه بمقادير تكفى لتموين معسكر من المعسكرات خلال ايام عديدة .

وقد طرد «دون خوان دى اوستريا (23) من مدينة غرناطة جميع المسلمين الذين كانوا لا يزالون بها وشتتهم فى اماكن بعيدة لانه كان يعتبر انه ليس من الخير ولا من المامون ان يوثق بهم، بل انه من المتعين على العكس التوفر على حامية مهمة يتراوح عدد جنودها بالمدينة المذكورة بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف .

اما ملك فاس فانه يقوم بتسليح جيش عظيم، وقد جمع لحد الآن ثمانية آلاف من الخيول الكريمة. وهذا يحملنا على التفكير فى انه يعتزم مهاجمة المدن يملكها ملك البرتغال عند مضيق جبل طارق. ومن شأن تلك القرائن ان تحملنا على التخوف من عبور الفرسان المسلمين الى اسبانيا مع عدد كبير من المشاة تحت حماية الاسطول التركى .

وهناك خوف آخر من الاسطول التركى ومن التاثير الذى قد يحدثه «الموريسكوس» فى بلنسية واراغون حيث لا يدخل عددهم تحت حصر. فمن المقدر ان ثلثى سكان اسبانيا هم من «الموريسكوس» أو من المنحدرين منهم أو من اليهود .

وقد قام ملك البرتغال بتجنيد ثمانية آلاف من المشاة فى مملكته. كما جهز اسطوله الذى يتوفر على عدد كبير من القوارب وعلى ثمانى بواخر . ويقال انه يفعل ذلك لارسال النجدات من الرجال الى مدنه التى هى

---

22) هو Albonnelles وفى النص وردت الكلمة هكذا Albommelos

23) Don Juan de Austria.

سبتة وطنجة والجديدة لان ملك فاس يجيش عددا كبيرا من الفرسان والمشاة دون أن تعـرف اسباب ذلـك. واذا كـان ملك فاس قد اعد عشرة آلاف من الخيول وجهزها احسن تجهيـز فلربمـا كـان السبب راجعا الى رغبته فى عبورها الى اسبانيا باسم السيد الاكبر .

وإن الاعلام الذى وجهته الى جلالتكم فـى بعض المناسبات حول تفاهم «الملك الكاثوليكى» مع «علوج على» ملـك الجزائـر اعلام يمكن الاخذ به فـى هـذه الحالـة .

فان ملك الجزائر يعلم ان «الموريسكوس» سيصيبهم التعب وقد يفرون عن طيب خاطر الى شمال افريقيا لو اصبح البحر حرا امامهـم أو سمح لهم بـالفـرار .

وهو مع ذلك على حـذر مخافة مـن انسحابهم الـى الجزائر لانه لن يستطيع أن يحرم عليهم الانسحاب اليها.

ثم ان الجمع عظيم بحيث يكفى نصـف رجالـه للتغلب على المسلمين وقهرهم. كما انه يوجد عدد كبير من القوارب فى ساحل «اسطورسى» (24) .

كما يوجد ايضا رصيد مليون ونصف من «الايسكودو» بالاضافة الى المرتب الذى تدفعه مملكة قشتالـة الـى اثنيـن وثلاثيـن الفا من المشاة خلال شهريـن .

وقد وصل الاعلام بأن القوارب الاسبانيـة قـد اعتقلت خمس قوارب وباخرة بساحل غرناطة عند ما كـان يركبهـا المسلمـون الفارون الى شمال افريقيـا .

مدريد 19 دجنبر 1569

* * *

ثم نجد فى رسالة له الى «كاطالينا دى ميديسيس» ما يلى :

سيدتـى :

اذا كان السيد «طريغوين» (25) قد استطـاع اجتياز جبال البرنيه فانه يكون فى الساعات على وشك الوصول الى حضرة جلالتك حاملا للاخبار التى كانت عندى فى اليوم السابع عشر من هذا الشهر .

24) هكذا وردت الكلمة فى النص Astheurcy ولا ندرى اين يقع مسماها.
25) Tregoyn كان يقوم بحمل الرسائل الى شرل والى كترينى

وارجو من الله يا سيدتي ان يحفظك مدة طويلة متمتعة بالعافية التامة والسعادة الشاملة .

لقد قال لي احدهم انه من المؤكد المحقق ان الموريسكوس بغرناطة سيصرون على عنادهم وسياخذون بطريقة محكمة للتخلص وفيهم ما يقارب ثلاثين الفا من الافواه العديمة الجدوى. فمنهم رجال مشبوه فيهم وهم الذين اخذوا بمواثيق جلالتكم الكاثوليكية، ثم الشيوخ والنساء والاطفال الذين لم يكن لهم ما يغذيهم، لان الباقين الذين لا يعرف عددهم كلهم رجال مقاتلون. كما قال لي ان اربعمائة من المغاربة او الاتراك قد جاءوا لنجدتهم يحملون الاغذية والذخائر التي بعثها اليهم ملك فاس في قوارب صغيرة خرجت من ميناء العرائش وعددها ثماني عشرة. ولما كانت عائدة اسر «دون سانتشو دي ليبيا» خمسا او ستا منها كانت فارغة من الرجال ووسائل الدفاع، اذ لم يجد بها الا عشرين من البحارة المسلمين المغاربة وعشرين من الاسرى النصارى المجبرين على العمل .

مدريد 29 ينيه 1570

* * *

ثم جاء في رسالة له الى شارل التاسع ما يلي :

سيدي :

لقد اعلمت جلالتكم بواسطة رسولي في اليوم الرابع من الشهر الجاري بتسلم الكتابين اللذين تفضلتم بارسالهما الي بتاريخ 29 يوليوز و 14 اغسطس تعدونني بتفاصيل اخرى يحيطني بها علما السيد «فولو» (26) الرسول الحالي الذي سيواصل اخبار جلالتكم كيف أن «الملك الكاثوليكي» قد قابلني في اليوم الثلاثين من الشهر المنصرم، حيث قدمت اليه مضمون رسالتكم الاولى حول فقد العلب والحقائب ....

وتدور شائعة مفادها ان ملك البرتغال قد يريد خلال السنة المقبلة ارسال جيش قوامه عشرون ألفا من المشاة وخمسة آلاف او ستة آلاف من الفرسان لمقاتلة ملك فاس. وهو يقوم لهذه الغاية باستكتاب رجال مملكته حيث علم ان مدينة لشبونة وحدها قد جند من رجالها اربعة وعشرون الفا وقد يكون السبب في هذا راجعا ايضا الى تخوفه من مهاجمة الفرنسيين

(26 Vallue.

له. ولقد اراد بعضهم ان يقول ان ملك الموريسكوس قد أخذ يتفاوض مع أعدائه. الا انه لا اساس لكل ذلك. فلا يوجد اى خبر يقول بانه يريد وضع السلاح والاستسلام، شأنه فى ذلك شأن رجاله .

وارجو الله يا سيدى ان يحفظكم ويبقى عليكم العافية والسعادة سنوات

مدريد 20 شتنبر 1570

* * *

وبعد هذا التاريخ ببضعة اشهر استطاع الاسبان ان يخمدوا هذه الثورة التى شاركت فيها فرق من الاتراك، بحرا وبرا، وتلا ذلك مباشرة، تحطيم جزء كبير من الاسطول التركى، فى معركة لبنتو، سابع اكتوبر سنة 1571

وبذلك فتر تاييد هؤلاء الموريسكوس، بواسطة الاتراك والمغاربة،، الا ما كان من بعض المتطوعة من هؤلاء واولئك، الى أن كان القرن السابع عشر حيث وجدناهم فى اوائله، يعاودون الثورة والاتصال بالخارج، وذلك فى عهد فليبى الثالث كما سبق، فعزم دوق ليرما (27) اكبر المقربين من فليبى، على طردهم من الاندلس، وصدرت الاوامر المشددة اليهم، بمغادرة بلادهم فى الحين، فخرج جماعتهم من بلنسية، ومرسية، واراغون، وقطلونية، وقشتالة، واسترامادورا، وخصوصا من هرناتشوس (28).

وقد عثرنا على وثائق تتصل بهذا الحادث الاخير، من ذلك ما ورد فى رسالة هولى الى طوماس ولسن (29)

ان الدولة حاليا منهمكة فى التزويد بالسفن القاصدة الى اندلسيا بقصد نقل المسلمين Moores (30) الى بلاد البربر، بسبب خيانة التآمر التى اقترفوها بتمهيد السبيل لعظيم الترك الى هذه المملكة، مما قد اكتشف اخيراً وقد حكم عليهم حكما عاما، بأن يطردوا من كلتا مملكة اسبانيا ومملكة البرتغال، وان تنتزع منهم اراضيهم وامتعتهم

---

27) Duque de Lerma.

28) Hornachos تقع باقليم بطليوس Badajoz

29) Hugh Lee قنصل انجلترا باشبونة، Thomas Wilson كاتب ودبلوماسى انجليزى .

30) هكذا ترد هذه الكلمة، فى الوثائق الانجليزية، وغالبا ما يقصدون بها المسلمين، وان كان المراد بهم هنا هم الموريسكوس، او المتخلفين من مسلمى الاندلس وولدهم .

ان دون لويس فشردو Faxardo (31) ومعه جميع سفن الاسطول، موجود بقرطجنة، حيث يقال ان هناك ايضا 30 سفينة للملاحة، ستنقل مسلمي بلنسية ومرسية، ويقال هنا ان مستر انطوني شرلي Anthony Sherly (32) قد اتى من صقلية بعشرين 20 سفينة من سفن الملاحة، وسفن اخرى من ايطاليا، و 12 سفينة للملاحة من دنكرك Dunkirk وعليها الجيوش.

وهذه جميعا ستذهب للالتحاق بدون لويس فخردو، ويظن ان هناك بعض الخدمات الاخرى قد صمم عليها بقصد افريقيا، الى جانب نقل المسلمين وذلك بواسطة مولاى عبد الله بن مولاى الشيخ (33) وهو الآن ملك فاس، لكن مولاى الشيخ نفسه، لن يذهب في هذه الخدمة.

* * *

وورد في رسالة فرنسيس كوتنكتن الى سلبسرى (34) ما يلى :

مدريد 31 مارس سنة 1610

اننا لن نسمح بأن يذهب الموريسكوس الى فرنسا زيادة على ما سبق وانما اعلنا ان اولئك الباقين عليهم أن يلجأوا الى قرطجنة، من حيث سيبحرون الى بلاد البربر.

---

31) دون لويس فخردو، هو القائد العام للاسطول المحيطى، مات سنة 1617 .

32) هذه الشخصية لعبت ادوارا خطيرة، مع ملوك الاسلام من سعديين بالمغرب، وصفويين بالمشرق، كما لعبت ادوارا اخرى مع الانجليز (قومها) والالمان والاسبان، وسنفصل القول في هذه الادوار، التى كان القصد الاساسى منها استغلال العداء بين الامبراطورية العثمانية، وخصومها من ملوك المسيحية والاسلام .

33) ابن احمد المنصور السعدى، الذى لجأ الى اسبانيا بعد ما تلقى عدة هزمات من اخويه ابى فارس وزيدان، واستصرخ بفيليبى الثالث، على اخيه زيدان ـ وكان اخوه ابو فارس قد مات ـ فشرط عليه فيليبى ان يخلى له العرائش مقابل مساعدته، التى لم تتعد بعض الاموال والاعتدة الحربية، وفى هذه الاثناء كان فيليبى يطرد مسلمى الاندلس واولادهم واحفادهم، وكانوا نحو مليونى نسمة، فأراد فيليبى، ان يضرب عصفورين بحجر، فيجعل من هؤلاء المطرودين، رجال الشيخ يحارب بهم خصمه، فهو بذلك يدعى ملكهم، ولكنه لم يتم له ذلك .

34) Francis Gottingion سفير انجلترا باسبانيا، و Salisbury سكرتير الدولة الانجليزية.

وان ملك المويسكوس الذى كان اخيرا بهذه الجهات، يوجد الآن فى سبتة من بلاد البربر (35) وان قواتنا على استعداد للتوجه الى البحر، ولكن لا احد يعلم اين سننجز ذلك المشروع .

لشبونة 21 اكتوبر سنة 1609

* * *

اما الصنف الثانى فقد خصصناه بهذا العنوان :

مناورات واحلاف

ويتصل بهذا دسائس وجاسوسية وما اليها، فقد كان الاسبان والبرتغال يبثون فى هذه البلاد رجالا لهم يدسون بها، او يوافونهم بأخبار وقد يجدون لهم من اهل البلاد من يزودهم بهذه الاخبار، وكذلك كان الشأن من الاتراك الذين بالرغم من مناوأتهم للسعديين حاولوا ان يعقدوا معهم احلافا ضد عدوهم المشترك كما كان يقع من هؤلاء الاسبان والبرتغال بغية القضاء على هذه الدولة الفتية السعدية، وربما حاولت اسبانيا ان تقوم بمناورات اخرى، فتحاول التحالف مع السعديين ضد الاتراك وكل ذلك كان له صدى فى الخارج، فتكتب فيه التقارير، وتتحول به ساحات الحروب، فيقع المؤرخ فى حيرة من امره، وبهذه التقارير الدولية والرسائل السرية، يستطيع الباحث ان يتبين خيوط الاحداث ويفهم جدا تلك الادوار التى كانت تلعبها الدبلوماسية ولا يشاهدها الا الخواص من النظارة، والحق ان هذه الادوار، كانت تقع على مسرح السعديين اكثر مما كانت تقع على مسرح الاتراك، اذ كان هؤلاء فى نظر السعديين لا يختلفون عن الاسبان والبرتغال الا بالدين، اما فى السياسة، فربما كانوا اخطر عليهم من هؤلاء جميعا، ولهذا كان العداء السافر بين العثمانيين والاسبان والبرتغال، والعداء المقنع فى غالب الاحيان بينهم وبين السعديين، كما كان بين هؤلاء وبين الاسبان .

وهذه وثائق بعضها يتصل بالجاسوسية، وبعضها بهذه الاحلاف، ننشرها حسب ترتيبها التاريخى .

من ذلك رسالة سكرتير الالسن والحسابات انطونيو جراسيان الى سكرتير الحربية خوان دلكادو يقول فيها :

جاءنى هذا المساء رسول اوفده الي الكونت دى تشنتشون حاملا الي من قبلك كراستين ..... وفيما يتصل بيحيى بن ميشوجيطى ؟ الذى قال

35) يريد به محمد الشيخ بن المنصور، لكن هذا كان ببادس فى 20 فبراير قادما من جبل طارق الذى ابحر منه فى 18 منه، انظر نزهة الحادى والاستقصا، وتاريخ الدولة السعدية .

عنه قائد قلعة بادس، انه جاء فارا من ملك فاس (عبد الله الغالب) فان صاحب الجلالة يقضى بضرورة مكاتبة القائد المذكور، ليوضح ماذا يريد ان يدلى بـه هذا الملم، وما خطـر هـذا الشخـص ايضـا، ثم يزوده بكل ما يحتاج اليه، ويوجهه الى صاحب الجلالة ...

من الاسكوريال فى تاسع ينيه سنة 1572

* * *

وهذه رسالة اخرى من نفس الشخص الى نفس المبعوث اليه، يقول فيها:

ان صاحـب الجلالة يعلم قائد القلعة (قلعة بادس) بأنه يسمح لابن ملك فاس (36) ووالدته وخادمهما بالقدوم الـى اسبانيا، وبتوجههـم لدى نزولهم اما الى مالقة واما الى قرطجنة، حيـث يجدون فى انتظارهم الاسقف الموكول اليه امر اعتناقهم للديانة المسيحية (37) وما سيتخذ معهم من اجراءات فى هذا الشـأن .

وحرر فى سان لورينثو (الاسكوريال) يوم 30 دجنبر سنة 1573 .

وفيما يتصل بهـذا التحالـف التركـى المغربى وما كان له من استعداد ونتائج ننشر وثيقتيـن، احداهما مؤرخة بمتم ينيه 1565 والثانية بفاتح يليه من السنة نفسها، فقد ورد فى الاولى، وهى رسالة ممثل انجلترا باسبانيا ، روبرت هوجان Robert Hogar الى ايرل ليسيستر Earl Leicester ما يأتى :

قد انهى الى سمـع الملـك (فليـب الثانـى) ان ملـك الجزائر (باشا الجزائر) والشريف (عبد الله الغالـب) قد عقـدا بينهمـا حلفا عظيما، وانهما بموجبه قد صمما العزم على محاصرة وهران، وبناء على هذا النبأ، فان الملك قد عهد الى جوليان (روميرو) رئيس المعسكـر، بـأن يضع فى وهران ألف

---

36) لا شك انه يعنى بملك فاس عبـد الله الغالب، ولا نعلم عن ابنائه ان احدهم توجه الى اسبانيا كما فى هذه الوثيقة، فلعل ذلك من مختلقات قائد قلعة بادس، او ان احدا ادعى هـذه الدعوى التى كثيرا ما تروج فى مثل ذى الظروف التى كانت عليها اسبانيا، خصـوصا بعـد ثورة الموريسكوس عليها

37) لا نعلم من هذا البيـت مـن اعتنـق المسيحيـة، الا ما قيل عن ولد المسلوخ الذى فر الى اسبانيا بعد موقعة وادى المخازن، فقيل عنه انه تمسح وسمى باسم فليب الافريقى .

جندي، زيادة على العدد المعتاد هناك من الجنود، وفعلا فقد نفذ ذلك، واتجه الى عين المكان من جوليتا Goletta (38) بمقتضى الاوامر الصادرة اليه من الملـك ....

من مدريد فى متم ينيه سنة 1565

* * *

وورد فى الثانية، وهى رسالة وليم William Phayra الى وليم سيسل W. CECIL ما يأتـى :

تروج هنا اشاعات بأن ملك الجزائر، قد جثم على وهران، وان ملك فاس يـوجد فـى معسكـره وانهـما معـا قـد كبسا المدينـة، فوقعت فى حصار خطير، ومع ذلك فليس هناك خوف عظيم على المدينة من سقوطها، ذلك انه منذ زمن قليل، كان الملك قد ارسل الـى هنـاك جوليان روميرو القبطان، بألف رجل مع المعدات، وقـد فصـل القبطان جوليان المذكور من جوليتا مع نجدة أخرى، وبقى هناك بناء على الامر الصادر اليه من الملك .

من مدريد فاتح يليه سنة 1565

* * *

وهذه وثيقة تتصل بالجاسوسية الاسبانية فى المغرب :

وهى رسالة باوتيستا دى البويرتو الى بيدرو دى فركاس (39) يقول فيها

لم استطع الراحـة والاطمئنان هذه الليلة لما كان يشغلنى من قضايا خطيرة هامة فنهضت ابتهل الى الله واضع بين يديه المليئتين بالرحمة تلك القضايا، وخلاصة القول فان ما امرنى سيدنا بانجازه قد عزمت على الكتابـة فى شأنه كيفما استطعت وبما علمـت مؤمـلا ان يصدقنى الزمن تمجيدا لله

38) جوليتا هى المعروفة (بحلق الـواد) بين (المرسى) وتونس العاصمة وكان هذ المكان مما وقع بيد لاسبان منذ ان احتلوا اجزاء من القطر التونسى، يقول صاحب النفحة ونقله اليفرني، ان النصـارى لما استولوا على تونس سكنوا قلعة البلاد وما والاها، ثم بنوا حصنا آخـر منيعا علـى باب المدينة خارجها، ثم بنوا مثله فى وسط بحيرة ممدودة من المرسى الى باب المدينة وعند المرسى حلق من البحر يدخل اليها، وبها سمى حلق الوادى، وليس هناك وادي عذب، ثم بنوا على المرسى حصنا عظيما وقشتيلا منيعا متقنا عجز الترك لما أخذوه عن هدمه وملأوه بالانقاض والعدة والقوت بحيث ايقنوا انهم ملكوا تلك البلاد وأنه لا يأتى من يقدر على اخراجهم منها ثم ان الترك انتدبوا اليها واخرجوهم منها ايام السلطان مراد .

39) هو القسيس Gabriel Bautista del Puerto واما بيدرو دى فركاس Don Pedro de Vargas فهو محافظ جبل طارق

وخدمة لمن يمثلونه في الارض، وخاصة ملكنا وسيدنا الذى ابعث اليه هذا الكتاب مؤملا ان يتقبله بما فيه لا بالنظر الى صاحبه .

والمسألة هى اننى قدمت الى افريقيا حيث قضيت عدة ايام اتنقل بمراكش وفاس وتطوان وغيرها من الجهات، ولقد خرجت اليها بحسن الاستعداد الذى لن يفارقنى مؤملا العودة بعد التوقف فى بعض الاماكن لايداع الرسائل التى ارجو ان تصلكم قبل ان اتمكن من مشافهتكم، ولقد حرص رجال كثيرون منذ عدة ايام على الاكثار من القول للاضرار بى وتشويه سمعتى، ولقد اشار على احدهم اليوم فى الصباح الباكر وهو يوم ختان المسيح ببعث الرسائل والمكاتيب مع قارب سيتوجه الى جبل طارق على غير عادته ولما كنت اعتبر حاكم جبل طارق نصرانيا متدينا وجنديا شجاعا، وكانت لى روايات طيبة عنه فقد ارتأيت ان اسند هذا الامر اليه لانه اختير حاكما لتلك القلعة نظرا لتلك الخصال، ولذلك وجب ان تقوم سيادتك بكتابة اربع نسخ من هذه الرسالة او من يساعدك على كتمان سرها فيكبها راهبك الذى تدلى اليه باعترافاتك، فاما احدى النسخ فتبعث الى صاحب الجلالة وترسل أخرى الى اسقف غرناطة، وثالثة الى السيد رئيس قشتالة، والرابعة الى رئيس المكتب الدينى المقدس بغرناطة ليعلموا جميعا بضرورة عدم ارسال اى كتاب الى افريقيا دون ان يستمعوا الي ويعلموا بما يجرى هنا علما يقينيا، ذلك لاننى لن افشى سرا ولو كانت رؤوس الاشهاد مقطوعة، وليعلموا ايضا اننى من رجال الدين ومسيحى وقشتالى وخديم الملك الذى ارجو تنفيذ رغائبه ولو ادى بى تنفيذها الى الهلاك، لذلك فانى سأذهب الى مخاطبك رجها لوجه واضعا نفسى بين يديه، وهذا امر لن يجرأ عليه أولئك الذين يتنقلون فى افريقيا مكاتبين ومتحدثين، واذا ظهر لى ان هناك وشاية أو انهم بصدد اعتقالى كما قد يكون ذلك ممكنا فانى سأتوجه مباشرة من جبل طارق الى غرناطة اما اذا اشعرت بذلك فانى سأحمل البريد ناسيا التحنث والعافية والحياة، اذ انى أؤمل ان اصبح جنديا اذا تقبل الله.

واختم هذا الكتاب مؤكدا انه من الانسب ان لا يرسل اى شىء الى هنا قبل الاستماع الى سلفا، وبذلك أؤدى امانة الله وامانة ملكى وكنيستى الكاثوليكية التى اعتبر نفسى احد ابنائها وان كنت غير جدير بذلك، غير اننى ألتمس تأييدها فى كل اعمالى، وهذا يكفى اذا كان الله لا يريد كشف الاشياء التى أريد كتمانها .

ويتعين كتمان ما سبق كتمانا شديدا، وانا اقول هذا واكتبه واصرح

به مع التزام السر الطبيعي الذى أطلبه من الجميع واحداً واحداً، اما من كان راهبا فانى اسر اليه ما سبق بمثابة سر الاعتراف قائلا لكل واحد منهم ما يتحمله وما يناسب وليكن الله كفيلا بذلك .

وليكن روح القدس مع الجميع ليرشدنا وينيرنا ويقوينا.

سبتة 6 يناير 1575

* * *

وتليها وثيقة اخرى وهى مذكرة جيوفانى بتيستا جيسيو (40) بعث بها الى ملك اسبانيا فيليبى الثانى كما يأتى :

صاحب الجلالة :

عند ما نأخذ نحن فى اعتبار الاسباب التى تسلطت علينا لحسن الحظ او لسوئه

فقد اردت ان يكون هذا الخطاب فى طليعة ذكر تلك الاسباب حتى تتمكن من حسن ادراك واختيار الفرص الهامة التى تعرض لجلالتكم فى هذه الظروف وتتمكنوا من الفصل فيها. ومن بين تلك الاسباب شؤون افريقيا التى ان استوعبناها جيدا واختبرناها بالنظر الى الحالة التى توجد عليها فى الوقت الراهن او التى يمكن ان تصبح عليها فى المستقبل، وجدنا انه من الضرورى لجلالتكم ان تحتاطوا للامر بجمع عدد هام من الجنود فى الاراضى الساحلية لاسبانيا المتاخمة لافريقيا على ان يكونوا قادرين على المقاومة او الغزو بحسب المناسبات لانهم سيضطرون للمقاومة والغزو جميعا اذا نحن تنبأنا طبق ما يجرى الآن. فان الشىء الذى لا ينفذ اختيارا مع حصول الفائدة الكبرى يجب القيام به اضطرارا فيما بعد مع حصول الضرر منه .

ولقد توقعنا منذ زمن طويل نية الاتراك، ونحن نرى اليوم بوضوح ان نيتهم هى حملنا على بسط سيطرتنا على مملكة فاس حتى يتمكنوا فيما بعد من غزو اسبانيا غزوا يسيرا واسهل من اقدامهم على مهاجمة ايطاليا وكذلك للحيلولة دون الاهتمام بشؤون بلاد الهند (امريكا). ولقد وصلت الحال الآن الى درجة ان قيام المعركة بين ملك فاس (يريد محمدا المسلوخ) من جهة ورمضان باشا ومولاى عبد الملك من جهة اخرى اصبح امرا محتوما. ولدى الناس شك كبير فى خروج الاتراك منتصرين من تلك المعركة لاننا اذا نظرنا فى الحروب والوقائع التى قام بها اجدادنا بالنظر الى التواريخ والروايات واختبرنا شجاعة الجيشين وتجربتهما وجدنا فى كثير من

40) Giovanni Battista Gesio ايطالى

المناسبات ان اولئـك الذين لا تنقصهم التجربة وكانوا قلة قد انتصروا على الكثرة من الذين تنقصهم التجربة ايضا. ولهذا فاذا كان ملك فاس يتوفر على جيش عرمرم له اسلحـة وذخائـر عديدة تؤهلـه للانتصار ظاهريا فعلينا ان نقدر تجربة الاتراك وانعدام الوفاء في المغاربـة لهيامهم بالتقلبات، وبالاضافة الى ضعف تصيبهم مـن التجربة في شؤون المعارك بالميادين وعدم معرفتهم باعداد الكتائب. ثم ان انصار الملك في تلك المملكة يحمل عددهم على الاعتقاد بانهـم سيكونـون هـم الغالبيـن اذا لم يعترضهـم حـظ عاثر لا قـدر الله. ولو اعترضهم ذلك الحظ العاثر لكان شاملا للاتلاف والتخريب الذي سيحيق باسبانيا اولا وبايطاليا بعد ذلك. ويمكن ان يحدث بسبب هذا اذا نحن اعددنا عدة حينمـا ينهـزم السلطـان امـام الاتـراك فيضطـر الى طلب النجدة من جلالتكم. وبهذه المناسبة تتمكن قواتنا من فرصـة التدخل في تلك المملكـة فتعمل مع المغـاربة على ابعاد الاتراك الضارين عن كافة القارة الافريقية ثم تبقى فيما بعد سيدة عليها او على جميع الحدود البحرية الافريقية على الاقل.

وفيما اذا انهزم الاتراك في معركتهم مع ملك فاس فان الضعف سينال منهم بعد ان تذهب ريحهـم فتبقـى مدينـة الجزائر من غير حامية او دفاع ويصبح وقوعها في ايـدي قواتنـا المعدة للقتال امرا يسيرا. وحتى في حالة انتصار عبد الملك فان اعتزازه بنفسه ستجعله يسعى لطرد الاتراك من افريقيا كلها، وهو امر لن يتمكن منه دون ان يتحالف مع جلالتكم ويستعين بجيوشها. وهكذا سنتمكن من تحقيق محاولتنا بطريقـة او باخرى. واذا كانت جلالتكم تتوفر على تلك القـوات المنظمـة المعـدة فهي لن تكون ضرورية للغزو والمساعدة فحسب بل ستكون ايضا ضرورية للدفاع. ذلك انه يمكن التفكير في ان الاتراك قد يأتون اعمالا مضادة لاسبانيـا، فـاذا هم رأوا استعدادنا لن يتجرأو على ذلك ولن يتيسر لهم التفكير فيه .

وهذا هـو كل ما يحضرني الآن لاطهر جلالتكم عليه في هذه القضية يدفعني الى ذلك عطفي وشديد رغبتي في خدمتكم وخدمة الصالح العـام . وان حرصي هذا هو الذي يهديني الى التفكيـر في هذه الشؤون التي يمكن ان تفيدكم وتساعدكم. ولعلها تعود بالنفع حتى على اولئك الذين يتوفرون على التجربة التي لا اتوفر عليها .

وحرر في مدريد يوم 24 مارس 1576

* * *

اما فيما يتصل بالحلف الاسباني البرتغالي، فهذه وثيقة مهمة قدمت الى فليبي الثاني، بتاريخ 23 ابريل 1576 كما يلي :

صاحب الجلالة الكاثوليكية :

اذ كان التشاور والتناقش ليس مناسبا فيما يرجع للوقائع الراهنة والغابرة وانما يناسب الوقائع المستقبلة لا غير فانه لا شك في انه بقدر بعدنا في النظر الى الاشياء والتبصر فيها بقدر ما يتوفر لنا المجال لادراك كنهها واعدادها لصالحنا واتخاذ قرار فيها. ولما كانت شؤون افريقيا تعرض الآن في اشكال تسمح لنا بتوقع اخطار قد تصيب مملكتي اسبانيا والبرتغال وربما حدث ان تعزم جلالتكم بغية مجابهة تلك الاخطار على ابرام رابطة مع صاحب السمو ملك البرتغال تقضي بتوحيد القوى للعمل ضد الاتراك او لاغاثة السلطان. ولما كان الحظ صاحب الغلبة في نجاح شؤون الحرب فانه من الممكن في هذه المناسبة ان تستولي جيوش جلالتكم مع جيوش ملك البرتغال على مملكتي فاس ومراكش وغيرهما من الممالك المجاورة لهما. وربما حدثت نتيجة لذلك بعض الخلافات في مطامع السيطرة بين جلالتكم وملك البرتغال. وتفاديا لامكان مباهاة البرتغاليين بالاحتيال علينا، ولما هو اسوأ من ذلك وهو احتلالهم للممالك والاقطار بجيوش جلالتكم وعلى كواهلها فقد خطرت لي بادرة تنبيه جلالتكم الى مسألة قد لا يعتبرها الا القليل .

والمسألة هي ان جلالتكم لا تملك اى حق لفتح مملكتي فاس ومراكش ولا لاية مملكة او اقليم آخر يقع بين خط الطول الذي يبعد 370 فرسخا عن جزر «الرأس الاخضر» نحو الغرب ويمتد الى القطبين والى الجزر ويابس الهند الشرقية وهو نهاية الكرة الارضية ويبلغ انفراجها 180 درجة باستثناء الاماكن الساحلية بحوض البحر الابيض المتوسط لان هذا الفتح هو من نصيب تاج البرتغال حيث إن البابا «مارطين الخامس» اصدر سنة 1442 رخصة خاصة لملوك البرتغال بالملاحة في البحر المحيط ابتداء من رأس «بوجدور» الى الهند نفسها مع فتحهم لجميع الممالك والامارات الواقعة في هذا النصف من الكرة الارضية. كما انه منح البرتغاليين جميع الجزر والموانيء والصيد والافتداء والمعاملات والتجارات في تلك الفتوحات. ثم جاء البابا «اوجينيوس الرابع» والبابا «نيقولا الخامس» والبابا «سيكستو الرابع» فجددوا لهم تلك الرخصة والهبة. وحدث في سنة 1493 ان تم الاتفاق بين «دون فيرناندو» ملك اراغون و «دون خوان» ملك البرتغال على توزيع الكرة الارضية اعتبارا

من خط الطول المار على بعد 370 فرسخا عن جزر «الرأس الاخضر» نحو الغرب وبالاماكن التى سبق ذكرها. ويقضى ذلك الاتفاق بأن جميع الاراضى والاماكن الواقعة شرق خط الطول المذكور والداخلة فى نصف الكرة المذكور الذى يبلغ انفراجه 180 درجة هى من نصيب تاج البرتغال ويحق له فتحها. اما تاج قشتالة فاحتفظ بفتح مملكة غرناطة والبحر الابيض المتوسط بينما احتفظ تاج البرتغال بفتح مملكة فاس ومراكش على ان يبقى النصف الآخر من الكرة الارضية وهو 180 درجة نحو الغرب من نصيب قشتالة لفتحها. وقد اكد البابا الاسكندر هذا التوزيع ايضا. وجرى الاتفاق ابان السلم على ان يكون فتح مملكة فاس ومملكة مراكش من نصيب تاج البرتغال .

وبالنظر الى هذه الرخص والهبات والتأكيدات يتجلى انه لا عمل لجلالتكم فى هاتين المملكتين ولا فى غيرها من ممالك البحر الابيض المتوسط بافريقيا وآسيا. ولذلك وجب التفكير حول كيفية ابرام تلك الرابطة والقيام بذلك العمل حتى لا يسخر منا البرتغاليون. كما يجب لدى تحرير فصول الرابطة واتفاقياتها ان يقع التنصيص على الاعمال التى قد تباشر بصفة مشتركة والغاء الامتيازات التى قد يملكونها فى مملكتى فاس ومراكش بفضل الرخص البابوية، وعلى ان يكون كل ما قد يتم فتحه من الممالك والاقطار ملكا مشتركا بين التاجين رغم الامتيازات التى حصلوا عليها فى الازمان الغابرة، وعلى اساس هذه الشروط وغيرها من التى لا استطيع الادلاء بها والتى تستحسنها جلالتكم والسادة اعضاء المجلس سنجعل شؤوننا قارة ثابتة

ولا ازيد شيئا على ما سبق لانى لست هنا لاسداء النصح وانما للتنبيه الى هذه المسالة التى خطرت لى اذا ما رأيتم فيها بعض الفائدة والجدوى واذا لم يكن ما سبق مناسبا ولا مفيدا فلتكن نيتى الحسنة وولائى فى خدمة جلالتكم كافيين لالهامى كل ما اراه عائدا بالخير والعظمة والنفع والذكر الحسن عليكم. وانى اقبل رجلكم بكل تواضع واجلال متمنيا لجلالتكم كل سعادة .

* * *

واخيرا يأتى كتاب دون دوارطى دى مينيسيس (41) حاكم طنجة الى دون سيبستيان ملك البرتغال بما يلى :

41) Don Duarti de Meneses

سيدي :

جاءت مساء اليوم 20 يوليوز قافلة من القصر الكبير فيها مسلمان ويهودي معروف هو الذي افادني بهذه الاخبار، ولقد قالوا انه وقع في اليوم التاسع من هذا الشهر وعلى بعد ثلاثة عشر فرسخا عن مدينة سلا قتال بين الملكين انهزم فيه الشريف وقتل ما يزيد على خمسة آلاف من انصاره بالاضافة الى قائدين رئيسيين هما ابن شقراء وكرمان من تطوان واعتقل قائدان هما ابن غريمة وكوريطو (42) كانا على المشاة الذين هلكوا جميعا، اما الفرسان فقد نجا معظمهم وانسحبوا مع الشريف الذي لحقه اخوه عبد الملك والقائد ابن غضيفة (43) ولم يكن يعرف آنذاك المكان الذي لجأ اليه الشريف، فمن قائل انه لجأ الى سوس ومن قائل انه لجأ الى مراكش اوا الى الجديدة، وكان مولاي عبد الملك قد قطع مسيرة ثلاثة ايام من المكان الذي دار فيه القتال وذهب توا الى مراكش، وهو سيصطدم بمقاومة ضعيفة، فلقد اخبرني اليهودي ان سبب انتصار عبد الملك كان راجعا الى ان القتال قد دار في ارض يكثر فيها العشب والاشجار حيث لم يستطع الفرسان المشاركة في القتال مع العلم بأن ثقة الشريف كانت موضوعة في هؤلاء بينما كانت ثقة عبد الملك في المشاة وفي كثرة المدافع واتقان استعمالها فكان له النصر، ورغم تلك الهزيمة فقد كان الشريف لا يزال قادرا على الدخول في معركتين، والذي افهم من هذا انه سينكسر في كل المعارك لان اصحابه قد تمكن منهم الفزع .

ويقول فيما بعد انه كتب عدة رسائل وقدم هدايا ثمينة وامر جميع المسلمين واليهود الذين استدان منهم بالقدوم عليه بمراكش ليودي اليهم هناك اموالهم .

وبالنظر الى ما سبق والى قضايا اخرى والجهد الكبير الذي بذله فانه لا يوجد شيء يصعب عليه نيله فيعود الى الهدوء التام، وقد عين قائد القصر الكبير خليفة له على مكناس واعطاه ألفين وخمسمائة من الفرسان وخمسمائة من المشاة، اما اصيلة فقد اعطاها لاخيه الذي كان وليا عليها من قبل وعززه بمائتين من الفرسان، وهذا هو ما تمكنت من الاطلاع عليه من الرجال الثلاثة المذكورين .

42) وردت هكذا Corrito, Ben Grima, Criman, Ben Shkra

43) هكذا Ben Godifa

وساحيط جلالتكم بكل ما اعلم مستقبلا .

وارى أنه من الامكان خلال هذين الشهرين ان نقدم خدمة عظمى لسيدنا وللنصرانية جمعاء وذلك بسهولة وبدون خطر، كما كان عليه الامر لحد الآن، وارى في دخول مولاى عبد الملك لمراكش واشتغاله بأداء الديون وترضية الاتراك ومشاغل عديدة من هذا النوع فرصة احسن من الفرص التى سبقتها، وانا أؤكد من جديد ما سبقت لى فيه مكاتبة جلالتكم وهو ضرورة الاقدام والمغامرة العاجلة حتى لا تستقر أحوال هؤلاء الناس وتعم سيطرتهم سائر البلاد، أما اذا ضاعت منكم هذه الفرصة فانى ارى الخطر محدقا لا بقشتالة والغرب (جنوب البرتغال) فحسب بل حتى بمدينة كسكايس ولشبونة نفسها .

20 يليه سنة 1576

* * *

بعد هذا تأتى المجموعة الاخيرة التى اخترنا لها عنوان :

عظمة مولاى اسماعيل

والوثائق التى تعلق بهذا الملك العظيم اكثر من ان يفى بها الحصر، فلقد تناوله بالدرس والترجمة، كثير من معاصريه الاوربيين، كما تعلقت به كثير من الرسائل والمذكرات، صدرت تلك عنه واليه او عن رجاله واليهم، وكتبت هذه حوله من سفراء استقبلهم او جعلت فى شكل مؤلفات كتبت لذوى الحيثيات فى سيرته وسياسته .

وقد اخترنا من تلك الوثائق التى كتبت فى شكل مؤلفات، على عهده الكتاب الثانى، من الكتب الثلاثة، التى ألفها أسير فرنسى اسمه جرمان موت Germain Mouette لجان بيتست كولبر مركيس تورسى Jean Baptiste Colbert, Marquis de Torcy (الاول منها يتناول المولى الرشيد، والثالث يتناول وصف المغرب واهله).

وحيث ان هذا يقع فى نحو 200 صفحة من صفحات مجلتنا هذه، فقد ارتأينا ان نثبت فى هذا العدد تلخيصا له، ريثما تتاح الفرصة لترجمة نصه الكامل .

واخترنا هذا الكتاب الخاص بمولاى اسماعيل لانه معتدل الى حد ما فى عرض الحوادث، عرضا تاريخيا صحيحا، وفى وصف مولاى اسماعيل ببعض الصفات التى لا تخلو من مبالغة، كما انه يضفى على بعضها شيئا

من التفصيل، ربما لا نظفر به في مصادرنا العربية، زيادة على ذكر شخصيات اهملها تاريخنا، لتفاهتها كما يرى، او لانه رأى من الافضل الا يذكرها، ولكن النظرة الآن تحولت عما كانت عليه، فاصبحت تتجه الى التاريخ، فتسجل منه كل شيء ولا تهمل منه اى شيء، فهو مسجل امين، لابد من ان يحفظ لنا وللاجيال، كل ما في عهدته، وكل يستفيد مما يريد، وكل صالح لزمان واشخاص وموضوع، حتى ولو كانت الحقائق مشوهة، والتاريخ قد عدت عليه الخرافات، فمن الحق ان يحافظ على ذلك، وما اكثر الحقائق التى التقطت من الاساطير .

وهذه الوثيقة تنهى عند سنة 1682 وسنضيف اليها أخرى من رسائله التى كتبها الى ملوك اوربا فيما بعد هذا التاريخ. اما الوثائق التى صدرت عن رجاله، فاهمها ما صدر عن القائد على بن عبد الله الحمامى الريفى ورئيس البحر عبد الله بن عائشة، والى هذا تنسب الرسائل الاربع التى تشير الى خطوبة المولى اسماعيل لبنت لويس الرابع الاميرة الارملة، كما هو منشور بمجموعة دى كسترى، وقد سبقت الاشارة الى ذلك فيما نشر بالعدد السابق من هذه المجلة لجاك كيلى، وما زلنا نشك في هذه الحادثة ونستبعدها من المولى اسماعيل مهما كانت الاحوال، ولنا في ذلك قرائن لسنا بصدد ابدائها في هذا العدد .

وقد ذكر المولى اسماعيل بالملك العظيم وهو وصف غير جديد على صاحبه فقد وصفه بذلك الواصفون وحتى الذين كانوا من اساره كما ألفت مؤلفات باسم اسماعيل العظيم وقد كانت عظمته تهز اوربا وتنحنى لها رؤوس ملوكها ورؤسائها، واول نظرة نلقيها على تلك الرسائل التى كان يراسل بها هؤلاء تمكننا من أن ندرك هذه الحقيقة ادراكا لا لبس فيه، في رسائل تنم عن انفة صاحبها واعتزازه بشخصيته وملكه. وبالجملة فان عظمة اسماعيل لها جوانب متعددة .

فاول ما تتجلى فيه عظمة هذ الملك، ما قام به من توطيد اركان ملكه وقد أوشكت أن تتداعى بتلك الثورات العديدة والمؤامرت الخطيرة، والمناورات المتكررة .

لقد نازعه الملك اخوته وابناء اخوته وابناء اعمامه واولاده كذلك، ودس له خصومه كما دس له رجاله المخلصون واصهاره القريبون، ونشط جيرانه في القيام بمناورات عسكرية الى جانب المناوشات الحربية، فما نال ذلك كله من عزيمة الملك الشاب والكهل والشيخ .

من اخوته كان الحران وهاشم واحمد وحمادة ومحرز، ومن ابناء اخوته احمد والطالب (44) ابناء محرز، ومن ابناء اعمامه ثلاثة انضموا (45) الى اخوته في ثورتهم، ومن اولاده محمد العالم وابو النصر .

ومن المؤامرات التي دبرت له مؤامرة الباشا مسعود الجراري، ومؤامرة صهره الشيخ عمر البطوئي (46) ومؤامرة محمد ابن الباشا زيدان

اما المناورات التي كان يقوم بها جيرانه من أتراك الجزائر، فأعظمها ما دبروه مع الخضر غيلان (47) ومع احمد بن عبد الله الدلائي .

44) هكذا وجدنا اسمه يتردد في كثير من مواقفه مع اخيه احمد، ولا ندرى ما كان مصيره، بعد قتل اخيه.

45) انظر الاستقصا

46) وتآمر معه ولده وعبد الله آعراس واخوته، وكان هؤلاء امراء عسكره فأتلف نفوسهم ونفوس من بقي منهم بفاس، كما في الاستقصا وكانت هذه الحادثة سنة 1086 وفي سنة 1089 امر بجر وزيره عبد الرحمن المنزرى، وقتل اصحابه بالرصاص، وذلك لامر نقمه عليه، كما يقول صاحب الاستقصا والظاهر انه كان قد دبر له مؤامرة اخرى، مع الثائرين عليه.

47) هو المقدم الخضر كان من اكابر اصحاب المجاهد العياشي وقد ذكر السلاوى ان أبا لعباس غيلان الجرفطي، كان مقدما على الغزاة ببلاد الهبط، فلما قتل العياشي استقل بهذه الجهات، وفي سنة 1063 زحف الى القصر الكبير فاقتحمه عنوه، ولما استولى المولى رشيد على فاس سنة 1076 قصد الخضر غيلان ببلاد الهبط، فانهزم من قصر كتامة الى اصيلا، وانه في سنة 1079 ركب البحر الى الجزائر (الاستقصا)

ويذكر في تاريخ طنجة، ان غيلان عقد معاهدة مع الانجليز بها سنة 1666 فكانوا بمقتضاها يمدونه بما يحتاج اليه وهو مقيم بأصيلا وانه في سنة 1068 ركب البحر من طنجة الى الجزائر، ولما توفي عبد الكريم النقسيس، تولى غيلان حكم تطوان، واناب عنه عامله الغزواني ثم استبدل بأحمد بن عبد الكريم النقسيس، فاغتاظ غيلان وهاجم تطوان واخيرا حصل التفاهم والاعتراف من الطرفين بالآخر، وتحول ذلك الى مصاهرة، ولما عاد الخضر من الجزائر سنة 1083 ساعده صهره مفضل النقسيس على النزول بتطوان حيث اعاد تنظيم جيوشه، مستعدا لقتال المولى اسمعيل، وقد استصحب معه عددا من الاتراك، وكان اهل فاس قد اعلنوا العصيان عليه فراسلهم الخضر معلما بوصوله من الجزائر واستعداده للقتال، كما في الاستقصا، وهكذا دارت المعركة، بين المولى اسماعيل وغيلان فقتل هذا سنة 1084 .

حقيقة ان هذه الاحداث ليست غريبة على الملوك، فقد ثار من بني امية يزيد الثالث على الوليد الثاني، وثار منهم مروان الثاني على ابراهيم بن الوليد الاول، وثار منهم بالاندلس جماعة على عبد الرحمن الداخل، وكذلك نجد امثلة من ذلك عند العباسيين وان كان هؤلاء مسيرين في يد القادة والرؤساء من فرس واتراك، فان ولينا وجهنا نحو دول المغرب فاننا نجد امثلة في ابناء ادريس الاصغر وأحفاده وفي أبناء يعقوب الموحدي واحفاده، وفي ابناء ابي الحسن المريني واحفاده، وفي الدولة السعدية عند قيامها الى نهايتها .

ولم ينج من منازعات الامراء داخل البيت المالك الا دولة المرابطين، ولا يعد موقف يوسف من عمه في ذلك، كما لا يعد موقف محمد من أبيه الشريف كذلك .

نعم هذا شيء طبيعي، الا ان الفرق هو كثرة ما حدث منه في هذا البيت العلوي وفي عهد المولى اسماعيل على الخصوص بالاضافة الى تلك الثورات التي كانت تندلع خارج البيت المالك، وهي ثورات لم ينج منها عهد من عهود هذه المملكة، كما ان الدسائس التي كانت تحاك لها داخل القصر وخارجه، لم تكن دسائس من النوع المعتاد في غيرها .

كل هذه المعاول الهدامة كانت تعمل بدون انقطاع في ثل عرش اسماعيل، ولكنه لم يكن ملكا من بين الملوك، حتى يفت في عضده ما كان يطالعه في كل يوم وفي كل ناحية، وانما كان ذلك مما يزيد في عزمه ويقوي من ساعده، فيقضي على الثورات بكل حزم وصرامة، ويقسو ان لزمت القسوة، فيامر بقتل العصاة حتى ولو كانوا في سجنه، ولا يقبل التوبة من هؤلاء المنحرفين ولو أتو طائعين (48) .

هذا ما كان منه الغالب، وفي بعض الاحيان، كان ينزل عند الحيلة او اللين إن رأى ذلك اجدى عليه من العنف والصرامة، فقد دخل فاسا بعد ما خرج منها ابن أخيه، احمد بن محرز، واصدر امره بعدم مهاجمة اولئك المتمردين، وراسل رؤساهم يعدهم بالعفو الشامل، فاشتطوا في شروطهم

48) من ذلك ان اولاد النقسيس الذين كانوا قد لجأوا الى سبتة، بعد مقتل الخضر غيلان، خرجوا منها واتوه تائبين وهو بعسكره من تارودانت سنة 1089، فامر بردهم الى تطوان وقتلهم بها، ثم امر بقتل من كان منهم مسجونا بفاس، فقتلوا اجمعين (الاستقصا)

ففعل ما اشترطوه (49) وخضع للصلح يعقد بينه وبين ابن اخيه احمد، وكان أول بند من بنوده السبعة، ان يحتفظ هذا بلقب الملك (50)

والى جانب هذه العظمة، في توطيد الملك، كانت هناك عظمة اخرى، في خضوعه للدين ورجاله، والاخلاص له والعمل على نشره كما سنرى، لقد افتى علماء الاسلام في حق فلذة كبده الثائر عليه، بأن تقطع اطرافه، فرضخ لفتواهم وقلبه يتفطر ألما وحزنا (51) واستفتى علماء المغرب والمشرق في عدة قضايا (52) وقال له ابنه المامون، ان اليحمدي ينقصك ويزعم انه الذي علمك دينك فأجابه بانه الذى علمني ديني وعرفني بربي (53) :

ومن اخلاصه للدين، ما راسل به ملوك المسيحية يدعوهم الى الاسلام اقتداء في ذلك بالنبي عليه السلام، فقد كتب بذلك الى جمس الثاني الرسالة التي سنرى، كما كتب به الى لويس الرابع عشر وكرلوس الثاني (54)

49) كما ذكر في الوثيقة، ومن قبل قد قاتل اهل مراكش حينما امتنعوا من بيعته، وبايعوا ابن اخيه، فلما قدر عليهم ودخل لمدينة عنوة عفا عن أهلها وذلك سنة 1083 اما حادثة فاس فقد كانت سنة 1084 ثم ان مراكش اذعنت الى ابن اخيه مرة اخرى وقاتلت في صفه حينما عاد اليها، سنة 1086 ولما انتهى القتال بانتصار المولى اسماعيل سنة 1087 ودخوله اليها عنوة، استباحها وقتل سبعة من رؤسائها وكحل ثلاثين منهم (الاستقصا) وحينما جيء بالمولى الحران من الصحراء، بعد ما فر من المحلة اليها، من عليه واطلقه من قيده، واعطاه خيلا واقطعه «داشر» (الاستقصا) ومع هذا نراه يثور عليه مع اخويه هاشم واحمد وابناء «نعامة» سنة 1089 ثم عاد الى حربه منضما الى ابن اخيه بن محرز سنة 1096 (الاستقصا)

50) كما ستجد في الوثيقة، ويظهر ان هذا لم يستمر، اذ توفي ابن محرز في سنة 1096 وهو يقاتل المولى اسماعيل على تارودانت (الاستقصا) وكان معه عمه الحران، الذي بقي يحارب اخاه على تارودانت الى سنة 1098 حيث تمكن منها فافتتحها واستباحها، وفر الحران (الاستقصا)

51) انظر اتحاف اعلام الناس، في ترجمة العالم، والاستقصا في احداث سنة 1067

52) منها قضية ديوان العبيد، كما يذكر ذلك اكنسوس، ونقله عنه السلاوي، وهي التي امتحن فيها العلماء وتعرضوا الى غضب السياسة.

53) كان ذلك لما ولي المامون على مراكش، فأمر المولى اسماعيل برئيس الحضرة وامام الكتاب، احمد اليحمدي، ان يعطيه التقليد ويوصيه وكان المامون منحرفا عنه، فمشى اليه على كره منه، وحاز منه التقليد، واستمع لوصيته، امتثالا لامر والده، ثم عاد اليه، فقال قولته، (الاستقصا)

54) انظر الاتحاف

وهناك العظمة العظمى، وهى تتصل بالدين ايضا، تلك التى تجلت فى تخليص البلاد من جرائيم الاحتلال الاسباني والانجليزى، فقد وضع أمامه تصميما لذلك، فنفذ ما استطاعه منه فى دقة وجلاء، وترك لمن بعده من احفاده، أن يتمموا ما فاته من ذلك التميم .

هذه بعض لجوانب من عظمة اسماعيل، وهى جوانب داخلية، ونترك الجوانب الخارجية التى يراها غيرنا فى دبلوماسيته...

نعم هى العظمة التى يتصف بها المولى اسماعيل، وهى العظمة التى لها تكاليفها وتضحياتها، مهما حاول صاحبها أن يتخلص منها، فالعظمة لله وحده هى التى تتجرد وحدها من تلك التكاليف وهذه التضحيات، والعظمة المثالية هى التى يتصف بها الانبياء والرسل عليهم السلام، اما غيرهم فعظمتهم كما قلنا لها تكاليفها الباهضة، وتضحياتها الجسيمة، فمن تكاليفها فى عظمة اسماعيل، ضغطه على العلماء فى مسالة ديوان العبيد، ذلك الضغط الذى ذهب ضحيته، الشهيد عبد السلام بن حمدون جسوس، ووثيقته التى سطرها وقد أيس من الحياة، تكتب بمداد الفخر لعلمائنا الامجاد، ولكنها السياسة فى ركاب العظمة... ومن تكاليف هذه العظمة، هدم قصر البديع، والبديع لم يكن قصرا، وانما كان مدينة فى قصر بديع، ولكنها العظمة أوحت بهدمه والاستفادة من أنقاضه، كما استفيد من انقاض وليلى .

ويبقى بعد هذين المثالين من تكاليف العظمة، الجوانب الاخرى المشرقة من عظمة اسماعيل، وهى جوانب تفوق غيرها فى أولئك الملوك الذين عاصرهم من ملوك المسيحية والاسلام .

وهذه الوثائق نثبتها حسب تدرجها التاريخ، فالوثيقة الاولى هى الكتاب الثانى السالف، والى القارىء الكريم ملخصه :

عند ما توفى مولاى الرشيد كان حاكم قصبة مراكش السيد «قارة» الذى أصبح صاحب السيطرة المطلقة على القصر لغياب مولاى الحران فأقفل الابواب ونادى بمولاى احمد بن محرز ملكا ووجه اليه رسائل ينصحه فيها بالاتيان على عجل الى مراكش ليضمن لنفسه وفاء المدينة واخلاصها له .

وكان مولاى احمد قد علم من مولاى الحران نبأ وفاة عمه فسارع بالسير من تافيلالت الى مراكش مستصحبا معه اخاه مولاى الطالب بعد أن أعلن أهل المدينة مبايعتهم له، وقد سهل امر مبايعته زواجه من «للا مريم» بنت عمه مولاى العباس، وكانت هذه الاميرة ذات النفوذ على المدينة .

ولما عاد خدام مولاى الرشيد الى فاس وضعوا انفسهم رهن اوامر مولاى اسماعيل الذى صرح بعزمه على التوجه الى مراكش بقصد فتحها ودعا القائد زيدان (45) وامره باعداد القوات .

وفى شهر مايه كان مولاى اسماعيل يسير على رأس جيشه، وقد اراد مولاى احمد ان يحول بينه وبين عبور نهر العبيد. الا ن أهل مراكش آثروا القتال محتمين بأسوار المدينة، وكان مولاى احمد قد عسكر على مقربة منها. وهكذا توجه مولاى اسمعيل نحو مراكش دون ان يجد عائقا أمامه، فأقام الجيش خيامه على مسيرة نصف يوم من المدينة. اما مولاى احمد فقد قسم جيشه الى فرقتين جعل الامارة على احداهما لاخيه مولاى الطالب واحتفظ بامارة الفرقة الاخرى لنفسه. وجعل مولاى اسمعيل قيادة مسيرته لصهره الحاج عمر (56) وقيادة ميمنته بيد الباشا زيدان واحتفظ لنفسه بقيادة الرديف

واستمرت المعركة مدة تزيد على ست ساعات جرح فيها مولاى احمد وهزم، الا انه تمكن من الفرار بصحبة اخيه مولاى الطالب الى جبال جلاوة، وكان جيش مولاى اسمعيل يقتفيهما. وقد لجأ الى قائد «آيت زينب» فخانهما هذا وسلمهما الى خصومهما .

وعند ما مر شيخ القبيلة بجبال جلاوة فى طريقه الى مراكش هاجم الجنود الذين كان مولاى احمد أسيرا فى ايديهم فهزمهم وخلصه منهم. وبعد ذلك بوقت قصير شفى مولاى احمد من جرحه فذهب الى تافيلالت لمقابلة والدته واقام بجانبها الى ان حدثت الفتنة فى فاس البالى.

ونصب مولاى اسمعيل نائبا له بمراكش، ثم عاد الى فاس حيث هم أعيانها المستاءون بقتله. لا أنه علم بنيتهم فى الوقت المناسب بواسطة زيدان فلم يقع فى شركهم، ثم قتل المتآمرون زيدان لخيانته لهم (57) .

وبذلك تمرد اهل فاس على الملك وبايعوا لمولاى احمد، وعمت الفتنة ناحية تازة والريف، وفى نفس الوقت كان اربعة آلاف من الجنود «الشبانة» قد خلعوا الطاعة ايضا وانقلبوا على الملك رغم استمالته اياهم، فتوجهوا الى مراكش وحاصروها .

وخف مولاى احمد الى الاتصال بالمتمردين. وحينما كان مولاى اسمعيل بالريف حيث استطاع اخماد ثورته، كان مولاى احمد قد استولى على تازة

55) هو زيدان بن عبيد العامرى

56) البطوئى

57) وذلك يوم الجمعة 2 جمادى الاولى عام 1083 هـ.

وكان اهل فاس يمدونه بقوات النجدة. فامـر مـولاى اسمعيل اخاه مولاى هاشم الذى كان يقيم فى تافيلالـت بالتوجه الى فـاس الجديد ليحكمه طيلة غيبته فأطاع الامر فى الحال .

ولما سمع الخضر غيلان بهذه الثورة ، كان لاجئا بعاصمة الجزائر يطلب المعونة من الاتراك فحصل عليها حضر الى تطوان فخضع له اهلها كما فعـل سكان اصيلا والقصر وكافة سكان ناحية الغرب .

وهاجـم مـولاى اسمعيل تازة بدون جدوى. وكان سكان فاس وفاس الجديد فـى قتال مستمر على حين كانت جولات غيلان سببا فى قطع طريق التجارة بين فاس وسلا. ثم وجه الملك جيشـا الى غيلان فلم ينجح فى مهمته وقرر مولاى اسمعيل ان يتوجه بنفسه اليه فرفع الحصار عن تازة. وبعد أيام قليلة وصل الى مدينة القصر ففاجأ غيلان الذى اضطـر الى مـواجهته بقوات قليلة العدد ثم انصرف عنـه معظمها. وحاول غيلان ان يقاتل مولاى اسمعيل شخصيا فلم يحقق رغبته. الا أنه شتم الفارين واقدم على مقاتلة الاعداء الذين أصاب العدد العديد منهم قبل ان يسقط على الارض جريحا. فتقدم اليه أحد الجنود السود واحتز رأسه فأرسله مولاى اسمعيل الى فاس فأمر مولاى هشام بالطواف به عبر المدينة ثم اعاده الى السلطان الذى امر بدفنه صحبة الجثة .

وجاء هذا النصر لمولاى اسمعيل مباغتا للثوار الذيـن كانوا قد عرضوا العرش على مولاى هاشم فلم يقبل .

اما مولاى احمد فقد توجه الى قبيلة قلعية لما رفع السلطان الحصار عن تازة ثم استولى على دار بن مشعل التـى استقـر بها واسند عمالة تازة الى اخيه مولاى الطالب بعد ان اصبحت القبيلة المذكورة مناصرة له.

ولما نشر مولاى اسمعيـل السلام علـى باقـى الجهات توجه الى فاس بعد عشرة شهـور علـى خروجـه. فكان اول امر اصـدره هـو عدم مهاجمة المتمردين خارجها رغبة منه فى كسبهم بالعفـو والصفـح احسن من اخضاعهم بحد السلاح. وبالفعل كتب الى رؤسائهـم يعدهم بالعفـو التـام عدة مرات ويحذرهم من العقاب الشديد الذى سيـأخذهم به اذا هم تمادوا فى العصيان .

وقبـل الثوار ان يخضعـوا بشرط ان يقسم السلطان على قبر مولاى الرشيد وعلى المصحـف باحتـرام الصلـح. وقد كان ذلك كما طلبوا فقامت االقوات الملكية فى نفس الليلة بجمع الاسلحة من جميع سكان فاس .

وفرغ السلطان للراحة خلال شهرين متتابعين اعلنت تازة خلالهما طاعتها من جديد لمولاى اسمعيل فاضطر مولاى الطالب الى الانسحاب بجانب مولاى احمد .

وفى اوائل السنة التالية التى هى سنة اربع وسبعين وستمائة والف تقدم السلطان فى جيشه حتى اصبح على مسيرة يوم واحد من دار ابن مشعل التى عسكر بها مولاى احمد. وقد تراءى الجمعان دون ان يقتتلا، بينما كان الملكان يحاول كل منهما ان يستولي على خصمه بمكيدة من المكائد. وقد وجد مولاى اسمعيل اشياعا له فى صفوف مولاى احمد الذى اضطر الى الفرار والاعتصام بالجبال، ثم توجه الى تافيلالت وعبر وادى درعة الذى مكنه منه مولاى الحران منتظرا فرصة مواتية .

وعاد مولاى اسمعيل الى فاس بعد ان نشر السلام على بلاد الريف .

وفى اواخر ابريل وصل الى مدينة سلا ثلاثة من الرهبان المبشرين الفرنسيين الذين افتكوا تسعة وخمسين اسيرا فرنسيا. وعاد اثنان منهم الى فرنسا بصحبة الاسرى بعد ثلاثة شهور. اما الراهب الثالث فقد قضى سنة ونصفا لافتكاك الاسرى الآخرين وكان عددهم تسعة عشر، ثم تمكن من العودة بهم فى شهر نونبر من سنة 1676 .

وفى اواسط مايه ذهب مولاى اسمعيل على رأس جيشه نحو مراكش بعد أن أسند عمالة فاس الى اخيه مولاى احمد .

وقد كان الجنود الشبانة ما زالوا يحاصرون مراكش بينما كانت المدينة فى اشد الحاجة إلى المواد الغذائية، فسارع مولاى اسماعيل الى إغاثة المدينة، فلما اقترب منها غادرها المحاصرون وهموا بقطع الطريق امامه. الا انهم انسحبوا فى نظام بعد بضع مناوشات وعبروا نهر «تسوت» وفى نفس الليلة فروا فى صمت واعتصموا بالجبال مصحوبين بأهليهم وامتعتهم .

وتوجه مولاى اسمعيل الى مراكش ومنها الى حاحة، ثم ذهب لمقاتلة الشبانة قبل ان يعود الى مراكش التى عين يحيى آعراس نائبا له عليها.

وفى شهر شتنبر توجه بجيشه الى جبال الديلا لمقاتلة اهلها الذين كانوا يمتنعون من اداء بعض الضرائب. وكان هؤلاء قد حفروا بعض الخنادق واعتصموا بها فردوا جميع هجمات الجيش الملكى. وكان «بوشتا» قائدا للجنود السود فاقترح مهاجمة العدو من جهتين. وقد قبل اقتراحه فاضطر العدو الى الفرار، وعاد الجيش بعد هذه الحملة الى فاس .

وفي هذه الاثناء وصل الى فاس مستر «هويت» Whet قائد مدينة طنجة مصحوبا بثلاثين من الاسرى السلاويين وبالسيد عبد القادر مارينو عامل سلا. وكان غرضه ابرام الصلح بين مولاى اسمعيل وحاكم طنجة. وعلم ان السلطان ذهب الى مكناس فتبعه القائد الانجليزى اليها. غير ان مساعى الصلح لم يكتب لها النجاح فانسحب مستر «هويت» بعد ان تسلم ثلاثمائة من الثيران ونفس العدد من الاكباش مقابل الاسرى المحررين .

وسافر السلطان الى سلا. وكان مولاى احمد قد استقر بناحية درعة بعد هزيمته بدار ابن مشعل. وقد رحب به اهالى تارودانت لما وصلها وانضم اليه جميع العرب والشبانة على السواء . ثم ذهب مولاى احمد الى جلاوة لزيارة صهره. وخرج ذات ليلة فى جمع من الشبانة الى اقليم آيت زينب حيث فاجأ القلعة التى خانته بعد هزيمته بمراكش فلم يجد بها أحدا الا الشيخ الهرم المولى عليها فامره بالقاء نفسه من اعلى الجبل. اما أولاد هذا الشيخ فقد اعتصموا بالحصن الاخرى الموجودة بالجبال القريبة. ثم عاد مولاى احمد الى جلاوة. ومن هذا المكان اعلن زوجته بانه سيحل بمراكش وبان الحظ قد اصبح مواتيا له .

واخذت الاميرة تقنع النساء المناصرات لها بضرورة جعل ازواجهن يقتبلون مولاى احمد عند ما يصل الى ابواب المدينة وبان يتصلوا بالطلبة فى المساجد ليهتفوا ليلة وصول مولاى احمد بحياته ملكا على مراكش .

وجرت الامور كلها على النحو الذى دبرته الاميرة فدخل مولاى احمد مدينة مراكش بصحبة الشبانة وبعض العرب، وتوجه الى حى اليهود الذى يوجد على مقربة من القصبة.

وحاول نائب السلطان وهو يحيى آعراس ان يدافع عن القصبة كما ارسل رسولا الى سلا لاعلام مولاى اسمعيل بما حدث. واستمال مولاى احمد الجنود السود الذين كانوا يحرسون برجا قريبا من القصبة التى تمكن الشبانة من الاغارة عليها واحتلالها. اما يحيى آعراس فقد اضطر للالتجاء الى زاوية قريبة من أزمور سبق لمولاى احمد نفسه ان لجأ اليها من قبل.

وأرسل مولاى اسمعيل جيشا تحت إمارة الباشا مسعود الجرارى لنجدة القصبة ثم جيشا آخر فى اثره بقيادة عبد الكريم آعراس. واجتمع الجيشان عند وادى العبيد فعبراه ووقعا فى شرك نصبه لهما مولاى احمد، ومن ثم فر القائدان الى ازمور .

وأمر السلطان أخاه مولاى هاشم بالانسحاب الى تافيلالت مخافة من ان يثور عليه وعين عبد الرحمن الفيلالى خليفة له مكانه.

وفى شهر ابريل خرج مولاى اسمعيل من سلا لمقاتلة ابن اخيه الذى انسحب الى مراكش بعد ان اقتنع بنصيحة الباشا الذى كان يسر الايقاع به، فقد اوصى الباشا السلطان بان يعسكر بالجبل الاخضر، ثم اعلمه بان قوات مولاى احمد تفوق قواته عددا. وكان جيش مولاى اسمعيل فى حاجة شديدة الى الزاد، غير انه تخلص من هذه الضائقة خلال خمسة عشر شهرا بفضل كلب ذى حاسة مرهفة للغاية، اذ اكتشف مخازن او «مطامير» كانت تخزن بها المؤن. وقد قام بعض النصارى سنة 1678 بقتل هذا الكلب.

وفى هذا الوقت كان باشا مولاى احمد يرغبه عن البروز للقتال. ولما وصل مولاى اسمعيل الى «ميات البير» كان الشيخ عمر ـ وهو صهره ـ قد نظم مؤامرة ضده، فادعى ان السلطان قد رفض التماس العفو عن بعض برابرة الريف وكان قد تقدم به اليه حلفاؤه من اهل آعراس. واستطاع الشيخ عمر ان يقنع هؤلاء بالدخول فى المؤامرة الرامية الى اغتيال السلطان وتوزيع ثروته والانسحاب الى الجهات التى كانوا يعيشون فيها سادة انفسهم قبل تتويج مولاى الرشيد، واعلموا مولاى احمد بما دبروا، الا أن باشاه اخبر مولاى اسمعيل بالمؤامرة وان لم يستطع اظهاره على اسماء المشاركين فيها.

وحاول المتآمرون عشية يوم ان ينفذوا نواياهم فاطلق الشيخ عمر طلقة اصابت السلطان فى كتفه. ولما اكتشفت المؤامرة جعل الشيخ عمر يقاتل المحدقين به من الجنود السود حتى قتل على يد حرس مولاى اسمعيل الذى اصدر الامر باعدام معظم انصار آعراس ولم يتمكن من النجاة منهم إلا القليل ذهبوا الى مراكش حيث احسن مولاى احمد استقبالهم.

وكان بعض العرب من انصار مولاى احمد قد اعتصموا بجبل الحديد الذى ذهب مولاى اسمعيل لمقاتلتهم فيه بعد ان اعلمه باشا مولاى احمد بوجودهم فيه. وكانت خيانة هذا الباشا مما حمل مولاى احمد على الانسحاب وترك المجال فارغا امام السلطان. ولما اكتشفت خيانة الباشا أراد أن يطعن مولاى احمد، الا ان هذا سارع باطلاق رصاصة من مسدسه عليه.

على حين كانت اگادير قد نادت بتأييدها لمولاى احمد فتوجه السلطان نحوها بعد ان وجه الى اهلها عدة رسائل يدعوهم فيها الى العودة لطاعته غير ان تلك الدعوة لم تسفر عن نتيجة .

وفي هذا الوقت عاد من انجلترا مولاى العربي الذى كان قد فر الى اسبانيا وتنصر فيها (58) وقد اقتبله السلطان قبولا حسنا وعلم منه بنظام القصور الملكية الاوربية وبالمعاملة التى لقيها منها، كما علم بالاحوال السياسية باوربا .

وظن مولاى اسمعيل ان الفرصة مواتية فتقدم بجيشه الى «الدار الجديدة» التى تبعد عن مراكش بمسيرة يوم واحد. وخرج مولاى احمد فى جنود الشبانة لمقابلته فدارت يوم 15 يتيه معركة استمرت اربع ساعات وانتهت بانتصار مولاى احمد الذى لم يعرف كيف يستفيد من نصره. فبدلا من ان يلاحق عمه مكنه من فرصة جمع فيها قواته ولما دار القتال للمرة الثانية بينهما انتهى بانتصار مولاى اسمعيل فاضطرت قوات مولاى احمد الى الاحتماء بمراكش .

وعسكر الجند على مقربة من اسوار القصبة تحت امرة مولاى اسمعيل الا ان الشبانة كانوا يخرجون لمقاتلته فارغموه على الابتعاد عن تلك الاسوار وكان صهر مولاى احمد يستغل خروج الجنود لادخال النجدات والاغذية الى المدينة .

وفى هذه الحال وصل الى مدينة سلا فى شهر اغسطس السيد «جون ناربورغ» Le Captaine John Narborough (59) يصحبه الاسطول الانجليزى لابرام الصلح مع قراصنة مملكة فاس لمدة سنتين. واراد مولاى اسمعيل بعد ذلك ان يباشر مفاوضات الصلح مع ابن اخيه فعرض عليه ان يجعله خليفة له على مراكش بصفة دائمة مقابل خضوع المدينة لطاعته .

ولما رفض الاقتراح جرى اعداد مقابلة باحدى الزويا القريبة من المدينة وكان مولاى اسمعيل قد أعد مباغتة تمكنه من الاستيلاء على مولاى احمد الذى علم فى الوقت المناسب بمكيدة عمه ففر ناجيا بنفسه .

كما فشلت محاولة تسور المدينة من قبل بعض الفارين من تلمسان والذين كانوا فى خدمة مولاى اسمعيل، يعينهم على ذلك بعض المرتدين (60)

(58) كانت اسبانيا الكاثوليكية المتعصبة حريصة كل الحرص على هذا، ومن قبل رايناها تعمله مع ابن المتوكل السعدى وقد لجأ اليها كما لجأ اليها ابن محمد بن الشريف .

(59) هو قائد اسطول البحر المتوسط

(60) يريد الذين اسلموا من المسيحيين .

وفي اوائل سنة 1677 وصل الى فاس اربعة من الرهبان من دير التثليث بمدريد يصحبهم اربعة آخرون كانوا مكلفين بانجاز الافتداء . وكان على الرهبان الاول ان يحلوا مكان الرهبان الفرنسيسكان من دير اشبيلية حيث صدر اليهم الامر في شهر فبراير بمغادرة المغرب .

وفي هذه الاثناء كانت المناوشات بين الفريقين تقع كل يوم، فقتل عبد الكريم آعراس في احداها مع عدد من القواد من انصار مولاى احمد. كما قتل من جانب السلطان الباشا مسعود الجرارى والقائد «نوشيش».

وكان المدعو سماك (1) وهو شيخ الجبال المجاورة لتادلة قد استقر بقلعة حصينة فحال دون قوات مولاى احمد وعبورها لوادى العبيد عند ما كان مولاى اسمعيل على حدود الجزائر. وقد طالبه السلطان باداء غرامة هامة فأداها في الاجل المضروب وزاد عليها. ورغب مولاى اسمعيل آنذاك في ثروته فسجنه ثم أمر باعدامه بعد ستة شهور واستولى على جميع املاكه

وجاء بعض الشيوخ البرابرة بجبال ملوية واقليم الزاوية الدلائية فقدموا هدايا نفيسة الى مولاى اسمعيل الذى احسن اقتبالهم وكان الشيوخ قد خافوا بطش السلطان بهم. غير ان مولاى اسمعيل رضى بالتزامهم باداء غرامة فرضها عليهم.

وفي هذه الاثناء دبرت المؤامرة الثالثة ضد السلطان، وكان العامل فيها هو محمد بن زيدان ولد الباشا زيدان مستعينا باثنين من شيوخ العرب الا أن أحد عبيد زيدان أفشى سرها فحاول زيدان ان ينجو بنفسه، اذ القى مسؤولية ذلك على الشيخين. لكن مولاى اسمعيل كان على بينة وعلم تام فحكم عليه بالموت.

على حين كان مولاى الحران خليفة على تافيلالت فرأى من اللازم ان يقوم بالوساطة بين مولاى اسمعيل ومولاى احمد. وتوجه بالفعل الى معسكر الاول ثم الى الثاني بمراكش. وقد توج مسعاه بالنجاح، اذ تم ابرام الصلح على الشروط التالية :

1 ــ ان يحتفظ مولاى احمد بلقب «الملك» وان يثبت هذا اللقب في المراسلات التى قد يكتبها اليه مولاى اسمعيل .

2 ــ ان يسلم مولاى اسمعيل ولده مولاى ميمون على سبيل الرهن الى مولاى احمد الذى سيحتفظ به بجانبه الى ان يصل هو ومن معه الى جلاوة مصحوبين بأمتعتهم .

1) هكذا ورد هذا الاسم Semac في الوثيقة

3 ـ ان تبقى الملكة زوجة مولاى احمد فى قصرها بمراكش وأن تعامل كملكة وتقع تكاليفها على مولاى اسمعيل .

4 ـ ان يسمح لمولاى احمد وصحبه بالخروج حاملين اسلحتهم وامتعتهم .

5 ـ ان لا تكون مقاطعة درعة التى كانت من توابع تافيلالت والتى استولى عليها مولاى اسمعيل اثناء هذه الحرب تابعة لاى امير الا لمولاى احمد الذى سيحكمها وتكون سيادته مبسوطة عليها.

6 ـ ان يعفو مولاى اسمعيل بصورة عامة شاملة على جميع سكان مراكش وعلى الذين كانوا انصارا لمولاى احمد وان لا يبحث فيهم لسبب من الاسباب المتعلقة بهذه الحرب .

7 ـ واخيرا ـ ان يقطع الاميران اربا اربا كل من سولت له نفسه ان يفر من جانب ملك الى آخر خلال اجل مدته ثلاثة شهور .

ولما تم التوقيع على هذه الشروط ذهب مولاى احمد الى جلاوة مصحوبا بمولاى ميمون وبالقواد المخلصين ونخبة من الجنود السود والشبانة وعاد مولاى ميمون الى أبيه قادما من جلاوة .

وبذلك استولى مولاى اسمعيل على مراكش وعفا عن القائد عبد الله الاسباني الذى كان القائد الاعظم لجنود الشبانة، كما عفا عن جميع رجاله الذين ظلوا بالمدينة وامرهم بالاستقرار والاقامة فى قبيلة قلعية بجانب مليلية وبعد ذلك دخل مولاى اسمعيل الى القصر مصحوبا باخيه مولاى الحران فلما وجد قلة المؤونة والاغذية بالمدينة اتهم اخاه بالخيانة فسجنه وامر القائد حمدون الروسى بالاستيلاء على تافيلالت .

وقام مولاى اسمعيل باقرار الحكم بمراكش التى نهبتها قواته طيلة يوم كامل .

وبمجرد ما وصل مولاى احمد الى جلاوة هجم على ولد شيخ آيت زينب فحكم عليه بنفس العذاب الذى أنزله بوالده، وبعد ذلك توجه الى درعة فاستقر بها بوصفه ملكا ونظم شؤون الناس وشؤون رجاله .

وكان محمد الحاج بن عبد الله حفيد ابن ابى بكر وولد عبد الله بن محمد الحاج (62) قد صاحب اباه عند ما فر الى مكة. الا أنه عاد الى المغرب

62) الدائى واسمه احمد وليس محمد كما سيرد قريبا وهو مذكور فى الاستقصا وغيره.

فاقتبله البربر كملك لما علم بوفاة القائد «سماك» ألد أعدائه. وقام بترميم قصر جده وارغم العرب على البحث عن ملجأ لهم فى اسوار فاس وسلا ومكناس .

وكان هذا الذى حدث هو الذى ارغم مولاى اسمعيل على مغادرة مراكش والتوجه نحو فاس بعد ان ترك ولده مولاى ميمون خليفة له عليها. وارسل مولاى اسمعيل فرقتين من الجيش لمقاتلة البربر فانهزموا حتى اضطر السلطان الى الذهاب بنفسه لمقاتلة الثوار فهزمهم .

وارسل حاكم الجديدة رسولا لتهنئة مولاى اسمعيل باسم الامير الوصى على عرش البرتغال على الانتصارات التى حققها، كما حمل اليه هدية تتضمن اشياء عديدة منها جواد كريم. وطلب مولاى اسمعيل من الرسول البرتغالى أن يطلعه على اخبار اوربا وعلى انتصارات ملك فرنسا، ثم اهدى الرسول البرتغالى بعض الاشبال (63) .

وفى الحال توجه مولاى اسمعيل الى اقليم الزاوية الدلائية. وقام احمد الحاج بن عبد الله بجمع كافة البرابرة. اما السلطان فقد ارسل قوات الاوداية الى الجانب الآخر من الجبل للاتصال بأعراب الحوز، وكان هجوم قوات السلطان مما ارغم البربر على الفرار. واذا كان الفرسان قد تمكنوا من النجاة فان المشاة قد ظلوا محصورين بين الجيشين قبل ان يتم القضاء عليهم .

وبعد ذلك ذهب السلطان الى مكناس ليسكن اهله فى القصر الذى أعيد بناؤه وترميمه .

ولما استراح مولاى احمد بعض الوقت بدرعة شكل فريقا صغيرا من الجيش باستكتاب بعض سكان الناحية الذين انضموا الى أولئك الذين قدم بهم من مراكش فسار بهم نحو سوس، الا انه كانت هناك قبيلة كبرى من قبائل البربر تحول بينه وبين مواصلة الزحف ولكنه تزوج ببنت الشيخ الذى كان يحكم تلك الجبال فاذن له باجتيازها وقدم اليه بعض القوات التى التحقت بجيشه فاحتل سوس التى ما زال يسيطر عليها .

وفى مستهل سنة 1678 انتشر وباء الطاعون فسبب عددا كبيرا من الوفيات .

---

63) مفهوم من هذا ان المولى اسماعيل كان على علاقة طيبة مع البرتغال ولهذا لم يحاول استرجاع الجديدة منهم كما فعل مع اسبانيا عدوة فرنسا وانجلترا التى كانت فى جانبها وكانت تهدد فرنسا اذا حاولت غصب العرش الاسبانى .

وفي شهر مارس اقدم القائد عمر بن حدو الحمامي وهو عامل مدينة القصر على مهاجمة طنجه بجيش قليل العدد، فاستولى على قلعتين واسر عشرين جنديا ارسلهم الى السلطان مع مدفع نقشت عليه شارة الملك «دون سيباستيان».

واضطر مولاى اسمعيل بسبب الوباء الى مغادرة مكناس وترك ابنه الاكبر مولاى محرز خليفة له على فاس .

وسلك جيش الملك طريق تافيلالت فى اليوم الرابع عشر من شهر مايه. وفى طريقه عسكر بين جبال الاطلس عند مجرى نهر ملويه فرارا من قيظ الصيف. ومن هذا المكان طالب الملك العرب انفاطنين عند حدود تلمسان باداء الجبايات ففروا الى المواقع المجاورة لتلمسان والملك يطاردهم .

ولم يتمكن السلطان من اللحاق بأولئك العرب الفارين فخفض مبلغ الجبايات المفروضة عليهم ليعودوا .

وفى شهر شتنبر توجه السلطان الى تافيلالت لثورة اخويه مولاى الحران ومولاى احمد الصغير بها. ولما وصل مولاى اسمعيل الى تافيلالت فر الثوار الى الجبال القريبة من تلمسان واستقروا بين أعراب «دار مشعل» فى انتظار نزوح السلطان عن تلك الجهات بتافيلالت .

واقتبل مولاى اسمعيل بقصر اجداده القديم بتفيلالت اعيان الاقليم الذين جاءوا للاعراب عن وفائهم فقدم اليهم هدايا لطيفة.

وفى هذا الوقت أرسل الى السلطان خمسة وثلاثون اسبانيا اسرهم الشبانة بمنطقة مليلية واربعة عشر انجليزيا اسروا بمنطقة طنجة .

ولما غادر الملك تافيلالت توجه الى «فركلة» (64) حيث عبر النهر. ولم يرد بعض البرابرة ان يعترفوا به فقضى مولاى اسمعيل على جميع الذين قاوموه، واضطر غيرهم الى الانسحاب نحو جبال «يطاطة» (65) حيث جمعوا كل قواهم ليدافعوا على احسن ما يكون الدفاع .

وبعد ذلك وصل الملك الى جبال الاطلس التى يسميها العامة «يطاطة» كما سبق. وتبلغ هذه الجبال علوا كبيرا بحيث لم يستطع اى سلطان من قبل ان يقهر سكانها، فقام مولاى اسمعيل باستدعاء شيوخها وقدم اليهم بعض المطالب. وقد وعدوه بجميع ما طلب منهم، الا أنهم لما عادوا الى قبائلهم قطعوا

---

64) هكذا ورد فى النص Ferguela

65) لعله يريد آيت عطا

الطرقات وتهيأوا للدفاع. وانتظرهم السلطان شهرا كاملا. فلما اقتنع بأنهم خانوه هاجم البربر الذين كانوا فى انتظاره وعددهم ثلاثون الفا. فاضطر هؤلاء الى الجلاء عن الجبل الاول الذى كانت توجد به قطعانهم وانسحبوا الى جبل اعلى منه. ولم يقدم الملك على متابعتهم فعاد الى معسكره مصحوبا بفرسانه فانقض البربر آنذاك على المشاة فحطموهم واضطر السلطان الى سحب معسكره الى مكان بعيد واعطى الامان للبربر دون ان يتسلم منهم جباية .

وتوجه الملك بعد ذلك الى «آيت زينب» فتوقف عند سفح «جبل الحفرة» الملىء بالمغارات، التى كان يوجد بها اثنا عشر حبيسا فأمر بقتلهم ووزع المواد الغذائية على القوات، ثم وصل سيره نحو «آيت زينب» .

وقد جرى كل ما سبق فى اقسى ايام الشتاء. وتساقطت الثلوج فقطعت الطرق وكان ذلك سببا فى حدوث مجاعة كبرى. وطلب الملك من شيخ جلاوة الذى هو صهر مولاى احمد بن محرز ان يسحب قواته التى كانت مسيطرة على ممرات مراكش. ولولا انسحاب هذه القوات لما استطاع النجاة ولهلك من الجوع هو وجيشه جميعه. لقد سحب الشيخ البرابرة من تلك الممرات بالفعل ونصح السلطان بالانسحاب فى الليلة التالية على أبعد تقدير، لانه ان ترك هذه الفرصة فسيقع فى خطر لن يستطيع الافلات منه أبدا. وترك الملك كل ذخائره وامتعته ولم يستطع الا انقاذ خمسمائة فارس والفين من المشاة. أما بقية الجيش فقد ماتوا جوعا وبردا. كما هجم البربر على مؤخرة الجيش التى تحمل البارود فاستولوا عليه، ثم وزعوا فيما بينهم جميع ما وجدوه فى المعسكر .

وكان من حسن حظ مولاى اسمعيل أنه قابل الباشا الزرهونى بسهول مراكش اذ كان بانتظاره فى جمع من رجاله. واقترب السلطان من المدينة حتى اصبح على مسيرة يوم واحد منها. الا ان الطاعون الزمه بالانصراف عنها فعسكر على ضفاف نهر «تازوت» Tasaut

وراجت فى هذه الاثناء شائعة مفادها ان ملك فرنسا لويس الرابع عشر يحاول الاستيلاء على «القصر الصغير» ليشيد به حصنا يكون نقطة الانطلاق للعمليات العسكرية التى يعتزم القيام بها فى السنة التالية (66) وشرع كثير من سكان فاس ومكناس يتسلحون لمواجهة هذا الغزو. وكان

اذ كان فى حرب مع كرلوس الثانى

عمر حدو نائب السلطان بناحية الغرب هو الذي أشاع تلك الشائعة. فلما وصلوا الى القصر الصغير ذهب بهم لمهاجمة طنجة فلم يتمكنوا الا من احتلال حصنين وأسر ثمانية عشر شخصا والاستيلاء على مدفع من البرونز شبيه بالمدفع السابق .

وفرض السلطان جبايات هامة على الاعراب من سكان «تمسنا». ثم أعاد بناء جسر على نهر «أم الربيع» بالقرب من اقليم الزاوية الدلائية، ثم أراد ان يبني برجا للدفاع عنه فقضى في هذه المهمة ثلاثة شهور كان الباشا الزرهوني يقوم خلالها بمناوشات كثيرة مع البرابرة .

وفي هذا المكان حكم بالاعدام على وزيره عبد الرحمن الفيلالي وعلى مائة من أهله وانصاره.

وفي هذه الاثناء أراد عمر حدو وهو نائب السلطان على ناحية الغرب أن يستولي على جميع حصون طنجة. الا أن الانجليز الذين كانوا قد تسلموا النجدات هاجموه ليلا فقتلوا عددا كبيرا من رجاله. واراد حاكم طنجة ان يسخر منه فارسل اليه هدية قوامها بعض الخنازير وبعض النعاج .

ولما وجد مولاي اسمعيل ان وفاة احمد الحاج بن عبد الله بسبب الوباء أتت على آخر عدو من اعدائه ذهب الى مكناس لقضاء عيد الاضحى بها حيث أدى الاعيان مراسيم الولاء له .

وبعد ذلك امر بارسال جميع النصارى الى مكناس لتشغيلهم في البناء .

وأصيب المغرب بجفاف خطير فأقيمت صلوات الاستسقاء ودعيت الدعوات في المساجد ترأس بعضها السلطان نفسه (67) .

وبعد ذلك بقليل ارسل عامل فاس البالي القائد عبد الكريم هيرمانو Hermano الى مكناس فعفا عند السلطان لاولى الامر، ثم امر باعدامه بعد خمسة عشر يوما .

وكان اليوم يوم الجمعة لما حضر الراهب الاسباني «خوان دي خيسوس ماريا» Juan de Jesús - Maria وهو من طائفة أصحاب التثليث المبشرين فقدم الى السلطان بعض أنواع الحلوى التي صنعها. وبعد ذلك طلب منه السلطان ان يذهب الى فرنسا ليطلب من ملكها كتاب الرسول (68) وبعض الكتب

67) وذكر في ترجمته انه خرج مكشوف الرأس حافي القدمين.

68) يريد به كتابه الى هرقل، وقد انهى الى مولاي اسماعيل ان لويس من سلالته واحفاده، ١٠٢ يفهم ذلك من رسائله التي تذكر بعضها .

مقابل جميع الاسرى الفرنسيين فاعتذر الراهب، ولم يلح مولاى اسمعيل عليه فى هذا الامر .

وفى أوائل أبريل امر السلطان القائد عمر حدو بانهاء فتح طنجة. وجمع القائد جيشه بمدينة القصر فى عيد المولد فهجم على الحصنين الباقيين وحفر ثلاثة خنادق بينهما وبين المدينة ليحول دون وصول النجدات اليها. أما احدهما فقد استسلم بدون قتال، واما الآخر فقد دمره المدافعون عنه بتفجير المفرقعات فيه. واذا كان بعض هؤلاء قد نجوا فان معظمهم قد قتل.

وقام حاكم طنجة بزيارة القائد عمر حدو فى معسكره فوقع الاتفاق على هدنة لمدة أربعة شهور. وبعد ذلك عاد القائد الى مدينة القصر وبعث منها جميع ما غنم الى السلطان .

وعاد الوباء الى مكناس فاحدث بها ضحايا عديدة وقرر السلطان مغادرتها وأمر قبل خروجه منها بتحرير مائتين من الاسرى الاسبانين الذين افتداهم الراهب المذكور «خوان دى خيسوس ماريا» بثلاثين الفا من الايسكودو (69)

وفى أواخر شهر يونيه توجه السلطان الى حدود تلمسان لمقاتلة قبيلتين عربيتين سبق لهما ان عززتا جانب اخوة السلطان لما هاجمهم فى تافيلالت .

وفى فاتح يوليه وصل الفارس «شاطو رونو» Chateau-Renaud مع عشر بوارج الى سلا للتفاوض حول الصلح. وقد أرسل للتفاوض مع عمر حدو القائد المذكور فطالت المفاوضات من غير نتيجة، فلما اقترب الشتاء عادت المراكب المذكورة الى فرنسا .

ووصل السلطان الى حدود تلمسان فطلب منه بعض الفضلاء من سدنة الزوايا ان يصرف عقابه عن القبيلتين مقابل قدر من المال ففعل وظل هناك الى شهر شتنبر. وقد أراد فى هذه المدة ان يرى ما اذا كان فى مستطاعه أن يحاول هجوما ما على تلمسان. الا ان اتراك عاصمة الجزائر انذروه بانه اذا لم يوافق على تلك الحدود فهم على استعداد لتوسيع حدودها الى فاس والصحراء . ونظرا الى هذا الانذار ولانكشاف الوباء عن مكناس عاد إليها وقد اتخذ عند رجوعه تدابير تتعلق بأبنائه واخوته، ثم اشتغل فيما بعد بانهاء اعمال البناء فى قصره .

---

69) عملة اسبانية كانت معروفة من ذهب ثم من فضة

وفي هذه الاثناء لم يكن مولاى احمد يصرف وقته سدى. فلما رأى صعوبة فتح مراكش حاول فتح مقاطعة «تاغزة» (70) بالسودان لان ملك هذه البلاد كان يقاتل آنذاك ملك السينغال .

وبذلك قسم مولاى احمد جيشه الى ثلاث فرق، ثم عبر الصحراء واعلم عرب السودان بوجوب الاستعداد عند ما يصل اليهم، فقام هؤلاء بمحاصرة «تاغزل» (71) التى كان يحكمها احد ابناء ملك السودان فارسل يعلم والده بمحاصرتهم المدينة .

وقد تمكن جنود مولاى احمد اول الامر من احتلال الاسوار، ثم من فتح المدينة فيما بعد، وجرح الامير السودانى فوقع أسيرا.

واستولى مولاى احمد على كل ما كان فى المدينة من كنوز الذهب التبر والعاج المسحوق وجمع الجبايات من مختلف اطراف المقاطعة. اما أمير السودان فقد افتدى نفسه بعشرة آلاف من العبيد، ورضى والده ملك السودان عن ذلك الافتداء .

وأرسل مولاى احمد القوات ليستاقوا العبيد، واقام الامير من جديد حاكما على المدينة .

وبعد ان اجتاز مولاى احمد الصحراء بصعوبة كبيرة وصل الى تارودانت فاخبر عمه السلطان منها بنصره واعلمه باستعداده لزيارته بمكناس فى السنة القادمة .

وفى هذا الوقت اعلن حاكم طنجة نية ملك انجلترا فى ارسال سفير ليباشر مفاوضات الصلح

وجمع الملك حوله الشرفاء والقواد الكبار والقاضى ليستشيرهم فيما اذا كان يستطيع أن يفاوض الانجليز فى امر الصلح دون أن يحيد عن تعاليم القرآن فاجابه جلهم جوابا سلبيا. غير ان القائد عمر حدو عرض المزايا التى سيحصل عليها المغرب اذا هو صالح انجلترا لان ذلك سيعود بالفائدة الكبيرة على السلطان. وكان القاضى على راى القائد فنصح السلطان بان يأخذ بذلك

وأمر مولاى اسمعيل القائد عمر حدو بأن يمنح السفير الانجليزى جميع الضمانات الضرورية ليتوجه اليه بمكناس .

ولما طال الانتظار من الانجليز ولم يتلقوا جوابا من السلطان وكانت شهور الهدنة الاربعة قد انقضت ولم يكن الجانب المغربى قد عزز ميدانه

70 - 71) Tagazel أو Teghazza تقع شمالي توديني ه دي كاستري

التعزيز المطلوب خرجوا ذات ليلة من طنجة فقتلوا اناسا كثيرين وارغموا الباقي منهم على الفرار. وفي هذه الاثناء وصل القائد عمر حدو مصحوبا بالقوات المكلفة بحراسة السفير فعقد مع الانجليز هدنة ستة شهور يتعين على السفير خلالها ان يذهب لابرام الصلح .

اما الجيش المبعوث بقيادة ابن يحيى لمصاحبة مولاى محرز الى تافيلالت فقد قاتل البرابرة من سكان جبال ملوية فهزمهم وجردهم من السلاح ثم قتل كثيرا منهم بعد ذلك. كما باغت قلعة دمنات عند وادى العبيد فقتل جميع البربر الموجودين بها .

وفى اواخر هذه السنة اشترى السلطان بعض الحدائق المجاورة للحديقة التى كان يعدها على غرار حديقة مراكش وكانت مساحتها فرسخين. وقد عمل جميع سكان مكناس فى هذه الحديقة، ومعهم الاسرى والعبيد والشرفاء والقواد، فافضى ذلك بكثير من سكان المدينة الى مغادرتها وتعطلت التجارة ومات من الجوع كثير من الغرباء، كما انزل الغرامات الفادحة باليهود فى مناسبتين .

ووافق اليوم الثانى من عيد الاضحى حلول السنة الميلادية فامر السلطان باحضار الاسرى وعفا عن بعضهم.

وفى اليوم الرابع والعشرين من فبراير التالى وصل «ميلورد كيرك» Milord Kirke (72) الى مكناس فاستقبله السلطان غداة وصوله حيث اخبره بقرب وصول السفير الانجليزى الذى مكث بطنجة لمرض الم به وليننتظر وصول الهدايا المبعوثة الى السلطان وهو يحتاج الى مائة عربة لنقلها.

ولقد قال السلطان للسيد «كيرك» أنه سيبرم الصلح لمدة اربع سنين. ثم ارسله الى فاس ليروح عن نفسه هناك. وبعد ايام قليلة عاد الى مكناس التى وصلها السفير بعد ذلك بأربعة ايام. وقد كان السلطان مسرورا بالهدايا فأمضى الصلح لاربعة اعوام. ثم أهدى «كيرك» قبطانا فرنسيا طلبه منه.

وبعد يومين من ذلك علم السلطان من احد المرتدين الاسبانيين الهاربين من المعمورة بسوء حالة هذه المدينة وبانه فى مستطاعه ان يفتحها اذا هو عاجلها. وفى الحال غادر مكناس متوجها الى تلك القلعة بعد ان ارسل عمر حدو أمامه لمهاجمتها، فحضر عمر حدو الى المدينة واجتاز حواجزها التى

---

72) هو الكولونيل Kirke الانجليزي

كانت تصل الى ضفة نهر «سبو». ثم هجم على حصنين استسلم المدافعون عنهما. وكان عددهم اثني عشر رجلا، بعد قتال شديد. وقرر عمر حدو ان يتركهم احرارا ليذهبوا الى المدينة بعد أن امرهم بان يطلبوا من حاكمها تسليمها للسلطان والا قتل من بها جميعا بحد السيف. اما اذا استسلمو فانه يتعهد بالابقاء عليهم وباحترام امتعتهم جميعا. وقد امتنع الجنود عن المقاتلة رغم توسل الضباط والرهبان فاضطر الحاكم الى الاستسلام وأصبح حرا بصحبة ستة من قواد القلعة واهليهم وامتعتهم وراهب حمل معه لوازم العبادة التي كانت بالكنيسة. وظل راهب آخر في صحبة الاسرى لتقديم العزاء الروحي لهم. وصادق السلطان على معاهدة الصلح واستولى على المدينة في اليوم الثاني والعشرين من شهر ابريل. اى بعد ان احتلها الاسبانيون باثنين وستين عاما. وكان بداخل المدينة ثمانية وثمانون مدفعا من البرونز وخمسة عشر مدفعا من الحديدمععدد كبير من الذخيرة وطلب الحاكم تنفيذ شروط الاستسلام فأجيب الى طلبه باستثناء ضرورة ذهابه الى العرائش بدل طنجة لينذر حاكم تلك المدينة اذا هو لم ياخذ بفعله. وقد ذهب الحاكم على غير رضى منه الى العرائش فلم تكد قدمه تطأ ارضها حتى صفد في الاغلال الحديدية وارسل الى قادس ليحال على المحكمة.

وكنت في تطوان لما حدث ما سبق ذكره فغادرتها في اليوم الثالث عشر من مايه مع سبعة وستين اسيرا يصحبنا الرهبان الآباء «بيير مونيل» Pierre Monnel و «برنار ميج» Bernard Mege و «ايناياس بيرنيد» Ignace Bernéde الذين قدموا الى المغرب.

وها نحن نرى مما سبق ان هذا الامير قد ارتكب بعض القسوة مع الذين ثاروا عليه، ولو لم يفعل ذلك لما استراح بضعة شهور. لقد كان صابرا في الحرب لا يحس بتعب فيها، وكان يقتحم المعارك على رأس قواته، كما كان شجاعا موفقا، الا انه كان يسرف من الانتقام عند ما يكتب له النصر (73)

وكان يقود قواته بنفسه ويقوم على أداء مرتباتها ويحرض على عرضها. وكان لا يكتنب للرزايا التي تنزل به. وقد برهن على الدوام ان صبره وشدة مراسه كانا يرجحان صروف الدهر.

وفي اوائل شهر يونيه جاء الفارس «شاطو رونو» Château-Renaud مصحوبا بالسيد «دو لابار» de la Barre وهو يقود اسطوله نحو سلا لينفذ اوامر

73) كان ذلك بصفة خاصة حينما تقع خيانته

صاحب الجلالة. وقد أقام بمكانه من الشاطىء عدة أيام، فلما لم يحدثه أحد في شيء جعل يصطاد القوارب الجهادية التى كانت بالبحر فاعتقل بعض ركابها وارسلهم الى مرسيلية والزم آخرين بتحطيم قواربهم على صخور الشواطىء فتكسرت ولم تعد صالحة .

واعلم عمر حدو السلطان بالخسائر التى احدثتها البوارج الفرنسية فى القوارب الجهادية وبفائدة اجراء المفاوضات لعقد الهدنة فأجابه مولاى اسمعيل الى ذلك وامره بالتفاوض معه فسارع عمر حدو الى تنفيذ الامر .

وبناء عليه نزل السيد «دو لابار» de la Barre الى البر فجرى الاتفاق على مواد الهدنة وتم التوقيع عليها. واراد القائد عمر حدو ان يتراجع فيما أبرم فمزق الخاتم الذى وضعه على الاتفاقية فغضب لذلك السيد «دو لابار» de la Barre غضبا عظيما وأرسل يشكوه الى الملك بفاس، ووقع القائد فى غضب السلطان. ثم ارسل السيدين الحاج محمد تميم والحاج على معنينو سفيرين له الى فرنسا. وقد ركب السفيران وحاشيتهما فى مراكبنا فوصلوا ميناء «بريست» Brest من بريطانيا فى اواخر اكتوبر، ثم وصلوا الى باريس فى متم دجنبر. وبعد ذلك بأيام معدودة قدما اوراق اعتمادهما الى الملك واعربا عن رغبة السلطان فى المحافظة على السلام التام والصداقة الطيبة فأجابهما الملك بالشكر على الفضل الذى كان يتحلى به فى اعماله الموفقة .

وقد اعجب المغاربة كثيرا بحسن الاقتبال الذى حظوا به، فعبر عنه الحاج محمد تميم فى مقابلة الوداع بعد ابرام الصلح .

وعاد السفير الى باريس فأرسل اليه الملك عدة هدايا. وتوجه غيره من المغاربة الى «طولون» حيث ركبوا للعودة الى بلادهم. وكتب مولاى اسمعيل مرة ثانية لما عاد مبعوثوه الى ملك فرنسا يشكره على حسن الاقتبال الذى خص به سفيره .

* * *

ويلى ذلك رسائل المولى اسماعيل ننشرها حسب الترتيب التاريخى ايضا، فالاولى رسالته الى لويس الرابع عشر بتاريخ 1093/4/15 كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من لا نبي بعده

من عبد الله تعالى الامام ملك المغرب وما ولاه من اقطار الاسلام أمير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسنى .

(الطابع)

أيد الله اوامره وخلد مفاخره الكريمة ومئاثره آمين، الى عظيم الروم الامبراضور (74) ببلاد فرنسية لويس الرابع عشر من هذا الاسم السلام على من اتبع الهدى، اما بعد اعلم اننا بلغنا اصحابنا صحبة كتابك وذكروا لنا خيرك ومباشرتك لهم وشكروا لنا فعلك معهم واستحسنا برورك بهم وفرحك بجميعهم فكذلك ينبغى لك أن تكون اذ انت من سلالة عظيم الروم الذى كتب له جدنا وسيدنا فلا نرضى نحن ان نتكلم الا معك لانك قابض على امرك وكلام طاعتك مقصور على راسك واما الاجناس الاخرى فكلامهم عند اهل ديوانهم ولا يبلغون منزلتك عندنا ابدا لما نعلمه من علو همتك عليهم فانت الذى تستحق ان يكون انبراضور على سائرهم ولا يستحق تاجهم الا انت لان يدك هى العليا عليهم بحدافرهم وفى اليوم الذى يصلنا انباشاضور من عندك فلا يعود اليك ان شاء الله الا بما يسرك ويرضيك ولا لك عندنا الا ما تريده وتشتهيه فى خاطرك والسلام.

وكتب خامس عشر ربيع الثانى ثلاثة وتسعين والف.

ثم رسالته الى كرلوس الثانى بتاريخ 1101/12/16 هـ. كما يلى :

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم

من عبد الله اسمعيل المتوكل على الله المفوض اموره الى الله أمير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسنى ايده الله آمين (الطابع)

الى عظيم الروم وملك اقاليم اصبانية وبلاد الهند والمتولى امورها والمتصرف فى اقطارها (دونكرلوس) السلام على من اتبع الهدى اما بعد، فقد بلغنا كتابكم صحبه خديمكم دون منويل (بيردلون) (75) وخديمكم دون ابيل مسبيح وهو الكتاب الذى وجهتم لنا جوابا عن كتابنا الذى اصدرناه اليكم

74) استعمل الكلمة الاسبانية فى الامبراطور وهى Emperador واصلها لاتينى

75) هذه الاسماء هى كالاتى Don Corlos ..... Don Manuel الا أن بيردلون لم نستطع رده الى اصله

ووصلكم صحبة الفرايلي قبل هذا، وبعد ان قرأناه وفهمنا لفظه ومعناه والقى الينا خديمكم دون ابيل مسيح (76) ما في خاطركم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع عيهم الكلام قبل هذا رددنا اليكم جواب كتابكم ووجهناه مع خديم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولى الخط الاقرب من بساطنا السيد محمد ابن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمات امورنا وأذنا لخديمنا الاكبر الاعز الاشهر ابى الحسن القائد على بن عبد الله ان يبعث معه رجلا من اصحابه فوجه خديمنا عبد السلام بن احمد جسوس معاشرا لهومرافقا وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفي علمه وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والاسباب وكيفية الخبر في ذلك فثقوا به وتعرفوا منه فانه حفظه ووعاه من اوله الى آخره لملازمته لبساطنا العلى بالله في سائر اوقاته، ونحن بلا شك كنا اعطينا القول لهذه المائة النصارى بالسراح ولكن وقع من النصارى ما اختل به منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك، فمنهم من كان ينادى بلفظ مينا(77) على رؤوسهم ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك لذلك القول وكاد يفتك بمن دخل اليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم وبعضهم ركب لجج البحر فارا بنفسه حتى ادرك وقتل على الموج وحاجنا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا وايمة ديننا، بأن قالوا لنا ان المسلمين كانوا اشرفوا على الغنيمة ساعتئذ ووقع الغلب والظفر ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف او بالغرق فلا وجه لسراحهم في الشريعة راسا وكنا في اثناء هذه المدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقالوا هؤلاء المائة يكونون أسارى ويسترقون من كل وجه كيف وقد اخذوا العرائش من اول وهلة بلا موجب بل اضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى انفقوا عليه اموالا عديدة ومسكوا أولاده بسببها حتى اعطاهم العرائش على ضغط منه وعلى غير تاويل حقيقى في ذلك وذكرونا في مسالة غدر اسلافكم باهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الاربعين ألفا بعد تعدد الشروط على ستين شرطا ولم يوفوا لهم بواحد منها الى غير ذلك من الغدر والمكر باهل غرناطة وغيرهم من اهل الاندلس

76) Don Abil Mexias

77) هكذا وردت الكلمة في هذه الوثيقة التى نقلناها عن اتحاف اعلام الناس ولا ندرى لها معنى

في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية فالفيناهم ما تكلموا الا بالحق وبقينا في حيرة من اجل هذه المسالة من وجهين الاول لا تقدر تخالف شريعتنا التي هي أساس ديننا الحنيف، والوجه الثاني ذلك القول الذي سمعه في تلك المائة أحببنا الوفاء به وانفت نفوسنا ان يسمع عنا الناس قلنا كلمة ولا نوفي بها ولولا معارضة العلماء لنا بهذا الاحتجاج القوى لكنا سرحنا هذه المائة مع الفرائلي (78) واصحابه الذين آتوكم قبل هذا مسرحين فلاجل هذه أبصرنا كلام علمائنا في هذه النازلة لابد منه ولا محيد عنه واحببنا ان تسمع الناس انا وفينا في قولنا ولم يلزم فيه حرج ولا معارضة ولا كثرة اعتراض ولم يلزم فيه من حجة الشرع ثم فاردناكم تعملون لنا وجه خلاص هذه المائة بالوجه الذي عملناه لكم واعطيناكم فسحة فيه والا فالمائة المذكورة ارقاء أسارى من جملة اخوانهم وذلك ان تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة خمسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الاسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنهم باشبيلية وقرطبة وغرناطة وما والاهم من المدن والقرى حسبما يختارها خديمنا المذكور من المصاحف وغيرها وتعطون خمسمائة اسير من المسلمين في الخمسين الاخرى، عشرة اسارى لكل نصراني وان لم توجد الكتب التي هي مرادنا فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين واعطوهم لنا من الاسارى الذين في الاغرية وغيرهم وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير أو الكبير والشيخ المسن من ايالتنا وغيرها اذ ما لنا قصد الا في الاجر والثواب في فكاك اسرى المسلمين كيف ما كانوا ومن اى بلاد كانوا والا فالاعتناء الكلي انما يكون باهل الدووين من الجند والعلماء حملة الشريعة وعامة المسلمين انما تقصد بفكاكهم وجه الله تعالى فان أنتم سارعتم لهذه المسألة فما عملكم الا الخير في أرواحكم وفي اخوانكم وإن ثقل عليكم هذا الامر ولم تقدروا عليه فارجعوا خديمنا الكاتب الذي وجهناه اليكم في امان الله كما اتاكم والمائة من النصارى نصيرهم من جملة الاسارى اخوانهم يخدمون مثلهم، واذا نحن أبصرنا منكم المسارعة لاغراضنا والجد في ابتغاء مرضاتنا وانجزتم بأرواحكم في هذه المسالة فلا ترون منا الا ما يعجبكم وحتى باقي نصاركم الذين هم عندنا من اصحاب العرائش وغيرها من غير هذه المائة نعمل لكم الكلام في سراحهم بما يرضينا فيهم عندكم ان عملتم الواجب الذي لنا عليكم وتعرفتم الصواب الذي تعين عليكم كما ذكرتم في كتابكم وبرجوع خديمنا حامله بما ذكرناه

78) يريد الراهب او القسيس والكلمة اسبانية هكذا Fraile

فى هذه المسالة تتلقاه هذه المائة نصرانى لسبتة ويكون ملتقى الجميع فيها ولا عندنا معكم فى هذا الا الجد الصحيح والعمل الصريح بحول الله تعالى، وكتب لسادس عشر ذى الحجة الحرام خاتم عام واحد ومائة والف»

* * *

ثم رسالته ابى لويس الرابع عشر بتاريخ 1103/3/1 كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم

من عبد الله تعالى الغالب بأمر الله المتوكل فى جميع أموره على الله امير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الهاشمى المنيف اسماعيل

ثم رسالته الى لويس الرابع عشر بتاريخ 1103/3/1 كما يلى : ابن الشريف الحسنى .

(الطابع)

ايد الله اوامره وظفر جنوده المنصورة بالله وعساكره آمين، إلى عظيم الروم وكبير مملكة الفرنصيص والمتولى أمرهم والمتصرف احكامهم لويس الرابع عشر السلام على من اتبع الهدى واجتنب سبل الردى، اما بعد فاعلم أنه ورد على مقامنا العلى بالله النصرانى التاجر ولد اصطيلة القونص (79) وزعم ان بيده من عندكم امر وتفويض واستظهر لنا بمكتوب على لسانكم يدل على الاذن له فى الكلام فيما يظهر له لدينا من مهماتكم واغراضكم ويتوسط فيما يعرض لكم بحضرتنا العلية صانها الله فلم نشك انه مكتوبكم واذنكم غير انا لم نعتمد على قوله ولم نر الكلام معه فى شيء من ذلك لكونه تاجرا وليس هو من خواص اصحابكم ولا من كبار خدامكم واعيانهم لديكم اذ ليس من شأن التجار الدخول فى الكلام مع الملوك وأن يكونو وسائط فيما يعرض من بينهم فالتاجر انما يتكلم فيما هو وظيفه فقط الا اذا كان التاجر يسعى فى ابلاغ كلام هذا، لهذا أو حصول مواصلة او حمل رسالة يقع بها بعث من الجهتين، فنعم وهذا غاية ما يتحصل من كلام التجار لا غير فان كان لكم غرض فى الكلام بجد وخلوص نية فابعث الينا واحدا من كبار اصحابكم الذين (كذا) يوثق به ويتكلم معه ويأتينا بهذا القصد وبهذه النية وإن أحببتم ان نوجه لكم واحدا من خيار خدامنا وكبار اهل بساطنا العلى بالله فابعثوا الينا

79) القنصل الفرنسى بسلا Jean Baptiste Estelle

مركبا يحمله من عندنا ونبعثه لكم بالاذن الصحيح وحاصل ما نتكلم به معكم في هذه الاسرى التي لكم عندنا ان نعمل لكم فيها الفداء نصرانيا واحدا بمسلم ولا نبتغي عندكم الا من هو هنالك من اهل سلا والرباط وتطاون والقصر ومكناسة الذين اخذوا دون العشر سنين الى ستة سنين الى أربع عندكم ازعجونا في الكلام والمراجعة في هؤلاء الاسارى ولولا هؤلاء التجار من الذين لكم عندنا واهلهم هنالك يزعجون هؤلاء التجار وهم يترادفون علينا بالقول في حججهم كم من مرة ما ابتغينا فيهم كلام ولا عندنا لنا هنالك اسارى تكبر علينا وأهلهم هنالك يزعجون هؤلاء التجار وهم يترادفون علينا بالقول في حججهم كم من مرة ما ابتغينا فيهم كلام ولا عندنا لنا هنالك اسارى تكبر علينا مسالتهم او من هو معروف عندنا بوجهه الا البحرية ومن هو من أمثالهم وان اتفق رأيكم على بعث من تعينوه من خدامكم يات معه بجميع من هو هنالك من الاسارى المذكورين الى قرب المرسى وتتفاصل معه بوجه لايق ممكن وتعطيه اساراكم وناخذ منه المسلمين هذا بهذا ولا يرجع الا مقضي الغرض إن شاء الله والوجه اللايق بكم من بعث بعض اصحابكم أو بعث المركب لصاحبنا اعملوا عليه والله سبحانه الموفق الامور والمعتمد عليه سبحانه والسلام على من اتبع الهدى.

وكتب لغرة ربيع النبوي المفضل عام ثلاثة ومائة والف.

* * *

ثم أخرى اليه بتاريخ 1104/12/10

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(الطابع)

الى عظيم الروم وكبير مملكة فرنسية لويش الرابع عشر السلام على من اتبع الهدى، اما بعد فانه لما ورد على ايالتنا السعيدة خديمكم الانباشادور عرفنا بخبر مجيئه خديمنا الانصح الارضى القائد على بن عبد الله وطلب منا الاذن في قدومه لحضرتنا العلية بالله فاذنا له في القدوم وكنا نحسبه انه ما جاء الا بسبب امور اكيدة ومسائل مهمات كبار بحيث نقضوا منكم جميع ما نريده، فلما وصل الى مقامنا العلي بالله وتكلمنا معه واختبرناه ما وجدنا عنده الا الكلام في الاسرى ولا وجدنا بيده تفويض عام يتضمن العقد والحل فيما هو زايد على مسألة الاسارى فاستصغرنا ذلك حيث ما وجدنا مع من نتكلم

فى مهمات الامور العظام ولا يخفى ان هذه المسئلة التى جاء لاجلها وبسببها يقوم بقضائها تاجر من التجار ممن هو ادنى رتبة منه ولما انفصل عنا راجعنا فى قضيته خديمنا الانصح القائد على بن عبد الله بما اسندنا اليه من التفويض عن على امرنا فى جميع مراسينا وما يواليها من المدن والقرى والقبائل فاذنا له فى الكلام معه وفوضنا له فى كل ما يعقده ويبرمه معه فى المسائل المهمات الكبار ان كان بيد خديمكم تفويض لا ينقض ولا يحل كما هو بيد خديمنا فليعمل معه خديمنا بحسب ما يظهر له فى الحال او فى الاستقبال والسلام على من اتبع الهدى وفى العاشر من ذى الحجة الحرام متم عام اربعة ومائة والف.

* * *

ثم رسالته الى جيمس الثانى بتاريخ 1109/8/15 كما يلى :

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، لا رب غيره ولا معبود سواه .

من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره الى مولاه الغنى به عمن سواه أمير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين .

(الطابع)

ايده الله بعزيز نصره وامده بمعونته ويسره وخلد فى الصالحات الشريف مناقبه وجميل ذكره آمين يا رب العالمين، الى طاغية الانجليز القاطن ببلاد الفرنسيس يعقوب المسمى بلسانهم جمش سلام على من اتبع الهدى وتجنب سبيل الغى والردى وآمن بالله ورسوله ثم اهتدى، اما بعد فانا كتبناه اليك واوردناه عليك وواصلناك بهذا الكتاب واعتنينا لك بهذا الخطاب لمسئلتين اثنتين احداهما دينية والاخرى سياسية دنيوية وموجب ايرادهما عليك التنبيه لك والايقاظ والنصح والارشاد وذلك ان اخاك الذى كان مملكا (80) على الانجليز من قبلك كان عرف لنا من الحق ما عرف وتقرر عنده من لدنا ما لهذا الدين الشريف على غيره من الشفوف والشرف فكان من اجل ذلك يطلب منا المهادنة على طنجة فبعث لمقامنا العلى بالله من اصحابه (81) وخدامه المرة الاولى والثانية من بعث انافة بمحلنا وتنويها

80) هو شرل الثانى

81) الذى اتى مبعوثا الى مكناس هو حاكم طنجة الكولونيل كرك Kirke وذلك سنة 1681 .

بشرف مكاننا وكانت المواصلة بين الملوك والمراسلة مستنة ومشروعة وان اختلف اللسان وتباينت الاديان فجازيناه على فعله وكافيناه على شغله ووجهنا له من خدامنا اباشاذورا I وصل اليه وقدم عليه كما شاهدته ورأيته ففرح بسفيرنا واكرمه اكراما كثيرا وسر به وبمقدمه سرورا كبيراً ورجع من عنده مغبوطا مسرورا فلم نزل نراعي له ذلك ووفينا له في جميع ما كنا عملنا معه في طنجة ولم نرد البال الى شيء مما كان يعمله بها حين اراد الرحيل عنها وكان ينقل خزائنها ومدافعها وسكانها واهل جوارها من المسلمين يرون ذلك وينهونه الينا ويقصون ما يشاهدونه علينا وما القينا اليه في ذلك البال ولا التفتنا اليه بحال من الاحوال وما ذلك الا مكافاة له على صنيعه مع سفيرنا ووفاء بالقول الذي كان طلبه منا ووددنا ان لو كان اخوك بقى حيا الى ان يشاهد صنع الله الذي صنعه لنا في فتح العرائش من يد لصبنيول ويرى محاصرة سبتة اليوم وما كان اهلها يصرفونه عليها من الاموال وما كان يلزمهم في مؤونتها من ملايين الريال لتحقق وفاءنا له وغضنا الطرف عنه وعلم القول والعهد الذي اعطيناه لم ننقض شيئا منه فالصواب الذي كان من اخيك والحق الذي كان يعرفه لنا هو سبب الكتب اليك مكافأة على صنيعه وهو الذي اوجب مكاتبتك بهذه المراسلة لنعرض عليك فيها الامرين المذكورين اول الكتاب فاما الدينية منهما ففيها خير الدنيا والآخرة لما فيها من رشادك ونصحك ان وفقك الله تعالى وذلك أن تعلم ان الله سبحانه جل جلاله وتقدست صفاته واسماؤه انما خلق هذا الخلق ليعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئا قال الله سبحانه وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين وهذه العبادة التي أوجب الله على خلقه لابد لها من وسائط يبلغون عن الله لخلقه ما امرهم به ومن رحمته بخلقه ورأفته بهم ان جعل لهم وسائط بينهم وبينه من جنسهم ارسلهم اليهم من انفسهم واختارهم من انفسهم فبعث لهم رسلا يبلغونهم عن الله ما جاءوا به من عنده فأمن بهم من اراد الله سعادته وكفر به من كتب شقاوته وختمهم بخاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين وجعل دينه خير الاديان وشريعته افضل الشرائع وملته خير الملل ولقد بشر به وبمبعثه عيسى كما بشر بعيسى موسى بن عمران على نبينا وعليهما وعلى جميع الانبياء الصلاة والسلام ونبينا عليه السلام وان كان آخر الانبياء

بعثا فهو اولهم خلقا ومما يجب اعتقـاده ان الانبياء كلهم يجب الايمان بهم فلا
نفرق بين احد منهم وان المسيح بن مريم على نبينا وعليه الصـلاة والسلام
هو احد الرسل الذين جاءوا عـن الله من غيـر ادعاء مما تدعون ولا اطراء مما
تطرون قال الله تعالى في حق امـه الصديقة ومريم ابنة عمران التي احصنت
فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين
وقال تعالى في حقه ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال
له كن فيكون وقال تعالى انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها
إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما
الله اله واحد سبحانه ان يكـون له ولـد له ما فـي السموات وما في الارض
وكفى بالله وكيـلا لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا له ولا الملائكة المقربون
ومن يستنكف عـن عبادتـه ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا ومن المعتقد ان
المسيح رفعه الله اليه وان اليهود لعنهم الله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم
وانه ينزل بين يدي الساعة فيجد المهدي مـن هذه الامة من ولـد فاطمة ابنة
النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل الدجال ويجده قد اقيمت عليه الصلاة فيقول
له تقدم يا نبي الله او يا روح الله فيقـول له عليه السلام عليك أقيمت فيصلي
خلف رجل من امة نبينا صلى الله عليـه وسلم ويحكم بشريعته ويقتل الدجال
فينكره النصارى ويقتلهم ويقتل اليهـود حتى يكلمـه الحجر ويقول يا نبي
الله هذا يهودي ورائي فاقتلهوقد اخبرنا بهذا كله نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله
والذي نفس محمد بيده ليوشكن ان ينزل فيكم المسيح بن مريم حكما مقسطا
فيكسر الصليـب ويقتـل الخنزيـر ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله
أحد ولا يقبل الا الاسلام وهو معدود في اصحاب نبينـا صلى الله عليه وسلم
وقد عرف هذا جماعة من اعلام النصارى وملوكم الذين هداهم الله ومن عليهم
باتباعه كالنجاشي ملك الحبشة حتى عد من الصحابة وصلى عليه نبينا صلى
الله عليه وسلم يوم مات وهو بأرض الحبشة وهو احد من خاطبه النبي صلى
الله عليه وسلم ودعاه الى الاسلام كما خاطب قيصر ملك الروم جد هذا الملك
الذي لجأت اليوم اليه وانت مقيم لديه ولقد كتب اليه يدعوه الى الاسلام فلما
قرأ كتابه ودعاه وكـان عنده مـن العلم المكنـون ما عنده سأل من حضره من
العرب عن صفاته واحواله وسيرته وما يدعو اليه اليه وما يأمر به وما ينهى
عنه فقال انه النبي المنتظر الذي بشر به عيسى وسيملك موضع قدمي هاتين

وشاور ارباب دولته واهل ملته فـي اتباعـه فضجـو وحاصـوا حيصة الحمر الوحشية فساعفهم وساعدهم بخلا بملكه وحين بلغ خبره نبينا صلى الله عليه وسلم قال ضن اللئيم بملكـه فلقد رسخت في قلبـه معرفة هذا الدين وفضله على سائر الاديان لكنه لم يسمـح بملكه وبكل حال من الاحوال فهذا الدين الحنيفي هو الذى اختاره الله دينا وارتضى له نبيا امينا وجعله افضل الاديان قال الله سبحانه في محكم القرآن ان الديـن عند الله الاسلام وقال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين. فمن امعن النظر واستعمل الفكـر ووزن الاديـان بميزان الحـق والعقل عرف أن دين الاسلام هو الدين وان غيره كله لعب وعبث من لدن بعث الله نبينا الذى ختم به الانبياء وتقرر لديه انها كلها باطلة واهلها للنار ولقد وقع اختيار الاديان وايهـم افضـل لبعـض عقـلاء النصـارى وقد نظر فيما عليه المسلمون وفيما عليه النصارى وفيمـا عليـه اليهـود فـاراد ان يختبرهم من جهة المعقول فاتى نصرانيا وقال له اى الاديـان افضل، ديـن النصارى او دين اليهود أو دين المسلمين فقال له النصرانى دين النصارى افضل فقال له واى الدينين أفضل دين اليهود أو دين المسلمين فقال له النصرانى دين المسلمين فأتى اليهودى وقال له اى الاديان أفضل دين المسلمين او دين النصارى او دين اليهود فقال له دين اليهود فقال له وايهما احسن أديـن النصارى ام دين المسلمين فقال له دين المسلمين فاتى المسلم وقال له اى الاديان افضل فقال له دين المسلمين فقال له واى الدينين أفضـل اديـن اليهـود او دين النصارى فقال له لا خير فيهما معا، فالدين القويم هو دين المسلمين فعرف هذا النصرانى المذكـور بعقله ان الديـن هـو ديـن الاسـلام وان ما سواه محض ضلال وان اليهود والنصارى ليسوا على شيء وقد وقـع معنى هذا فـي كتابنا، قال الله تعالى وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتـاب، وهـا نحن قد املينا عليك نبذة من الآى القرآنية والاحاديث النبوية والدلائل المعقولية المطبقة على افضلية هذا الدين القويم وغيره كله انما هو في سواء الجحيم وانت ان خممت (82) مع راسك وفكرت فى نفسك واخترت الدار الآخرة علـى الدنيا ودخول الجنة على النار فانت عرفت سبيلهما فاتبع هذا الديـن الحنيفـي وانطق بالشهادتين فان من قال لا اله الا الله محمد رسول الله دخـل الجنة ولو قالها مـرة في عمره ويدخلها

82) هو النطق العامى لخمن والمراد به عندنا التفكير والتعبير في الجمة عامى

بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم فان له في اهل الكبائر والجرائم والذين نفذ الوعيد فيهم شفاعة عظمى خصه بها ربه في الموقف العظيم ووالله ان انت اعتقدت هذا الاعتقاد ووفقك الله اليه وعملت ما عمله قيصر من اعتقاده بقلبه وتيقنه به في نفسه حتى تحمد ذلك حالا ومالا ان شاء الله فهذه المسألة الدينية التي نصحناك بها والمسألة الدنوية هي إذا انت احببت الابقاء على دين الكفر فدين قومك الانجليز اخف وايسر عليك من عبادة الصليب ومتابعة الذين يجعلون لله الولد وينزعون عنه رهبانهم واى شيء رأيت في تغريبك عن وطنك وبعدك عن ولدك وخروجك عن ملة ابيك وجدك وتدينك بدين غير قومك وان كان الجميع على ضلال فدينكم انتم معشر الريكس ايسر من أولئكم المتوغلين في الكفر وحتى امرأتك الفرنسيسة التي كانت تحوزك على التعبد بدينها ها انت الآن افترقت معها فعلى ماذا أنت باق في جواز الفرنسيس تارك ملتك وادع ملك ابيك واخيك لغيرك راض بالا فلامك يتملك على جنسك وانت بالحياة فوالله ما احببنا لداركم ولا لمملكتكم يتولى رياستها الفلامك أو غيره فالغ عنك ما تقدم بينك وبين قومك فان الصواب معهم في الانكار عليك بسبب الدين الذى اختلفت معهم فيه واعتذر لهم وعاودهم وراجعهم ووالله لولا أنا اناس عرب لا معرفة لنا بالبحر او كان عندنا من يحسن معرفته أو نستوثق به في الجيش ونطلقه في يده حتى نكاتب الانجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى به ملكك ولكن مسئلة واحدة نعرفك اياها فحاول حتى تنتصل من بلاد الفرنسيس واقصد لجونة بلاد البرتغال وها زوجة اخيك البرتغالية اليوم هنالك ولقد كان لها عند اهل ديوانكم وجه وكلام ومن هنالك تقرب المسافة بينك وبين قومك وتسهل عليك مناولة الكلام معهم لكن بحيث لا يكون للافرنسيس بك شعور واما اذا عرفوا منك ذلك فلا يتركونك ولا يطلقونك لمسئلتين احداهما لا يريدونك تترك دينهم وترجع الى دين قومك والثانية يخافون انك اذا راجعت قومك ربما تعاديهم وتحاربهم ولاسيما حيث عرفتهم وعرفت غرة بلادهم والملوك دائما تحذر من مثل هذا وقد نصحناك واريناك ما يليق بك في دينك ودنياك ووالله ما نكره لك الهداية والرشاد وقد بلغنا انك تروم الوصول الى روما فاياك وان تحدث نفسك بشيء من ذلك فانك اذا دخلتها تحتل بها ولا تطمع في الخروج منها ولا في ملك بعدها ابدا فعلى كل حال ان انت راجعت قومك ودينك نجدد معك ما كان بيننا وبين اخيك ووالله ما زال خديمنا الذى كان عنده يذكر لنا من صوابه

وخيره ما اوجب مكاتبتنا لك بنصحنا اياك وقد احببنا ان تكون المودة والمراسلة بيننا وبينك فتنتفع بها على كل حال ان شاء الله والسلام على من اتبع الهدى، وكتب في النصف من شعبان المبارك عام تسعة ومائة والف .

* * *

ثم رسالة له اخرى الى لويس الرابع عشر بتاريخ 23/3/1110 كما يلي:

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لا رب غيره ولا معبود بالحق سواه لا اله الا هو سبحانه وتعالى عما يشركون .

عن امر عبد الله المتوكل على الله المفوض جميع أموره الى مولاه امير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسني .

(الطابع)

ايده الله بعزيز نصره وامده بمعونته ويسره وخلد فى الصالحات شريف ذكره آمين يا رب العالمين الى عظيم الفرنصيص وطاغية الافرنج وصاحب الباريز وكافة مملكة فرنسية المعظم فى جنسه لويس الرابع عشر من هذا الاسم الوارث ملك الفرنج عن آبائه وأسلافه السلام على من اتبع الهدى اما بعد فانه حيث ورد صاحبك القبطان الذى بالبحر الى مرسى سلا امنها الله وطلب الكلام من صاحبنا قبطان البحر الارضى الاحظى الرئيس عبد الله ابن عائشة فاذنا له في الكلام معه وحين رجع الينا بما عقده معه من المهادنة البحرية لمدة من ثمانية اشهر وجهناه اليكم انباشادورا (1) من عندنا وسفيرا من جنابنا العلى بالله وهو ان كان معروف لرياسة البحر فله لمقامنا العلى بالله مزيد عناية واكرم اثرة وحظوة فاقدروه قدره وانزلوه محله وكل ما تعقدونه معه وتبرمونه انتم واياه من القوانين الجارية فى أمور الاسارى او غيرهم من عوائد البحر واموره فقد فوضنا له فيه وأذنا له ان يتكلم معك به فانا مقررون له ذلك وتكلمون له فيه بحول الله وقوته وهذه المراسلة لاخفاء وانها جارية فى العوائد بين الملوك قديما وحديثا ومستحسنة ولها فى السنة اصل وللشريعة مأخذ وخصوصا انت مع جنابنا العلى بالله هذا وكنا من اجل ذلك نعرف لك بعض الحق من كثرة موالاتك لصاحب اصطنبول الذى هو ملك ملوك الاسلام وله معرفة بقدرتنا ومحبة فى جنابنا ونحن نحبه ونوقره ونرى له من الحق

الواجب علينا ما ثم نره لغيره لخدمتـه للحرمين الشريفين فالله الله ثم الله الله في جانبه وفي مولاته بأنواع الخير كله على الـدوام وصاحبنـا القبطان بن عائشة لا يأتينا عنك الا راضيا مرضيا في جميع احواله. وفي ثالث وعشريـن من ربيع النبوى المفضل عام عشرة ومائة والف .

* * *

وتليها رسالة اخرى منه الى الملك المذكور بتاريخ اواخر ربيع الاول عام IIII كما يلي :

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

عن الامر العلى بالله الامامـي السلطانـي الهاشمي الشريف اسماه الله واعز في صعود المعالي ذكره آمين.

(الـطـابـع)

الى طاغي افرنصية ومالكها لويس الرابع عشر من اسمه، بعد السلام على من اتبع الهدى اعلم ان صاحبنا وخديم بساطنا الشريف من قديم قبطان البحر عبد الله بن عيشة لما جاءنا من بلادكم وحدثنا بما لقي منكم ومن اصحاب ديوانكم حتى فهمناه ورسخ فـي سمعنـا عذرناه لطول مكثه عندكم بلا فائدة عقد عليها وكاتبتمونا بعده فلم نر مـن كتبكـم ما يسر عليـه العاقل لا سيما ومكاتب الملوك لا يكون فيهم الا كلام الصدق بلا كذب ولا تلوية المعاني فذلك نقصان في حق الامراء ما يرضاه احد فقلتم في حقه جاءكم بكتابنا الشريف بلا تفويض فرديتموه بـلا فائدة وفسختـم ما كـان عقـده مع قبطان سفنتكم وكذبتموه فيما وجهتمـوه به مـن كبيرتـه ذى آطريس (83) في قانون ديوان اهل البحر فلو كان ابن عائشة من اول ما رأى من اصحابك تقلبهم في الكلام وتكرير اموره رجع الينا من حينه ووقته فما لنا حاجة عندكـم ولا حوجنا الله

83) هـو Victor-Morie d'Estrée امير البحر الملحق ومارشال فرنسا

وقد اصلحنا في هذه الرسالة كثيرا من الاخطاء الاملائية، وتركنا بعض الاستعلامات الغير الفصيحة على ما هي عليه، كما وضعنا بين قوسين حـرف الالف الواجب وجودها.

ومن الاستعلامات العامية فـي هذه الرسالـة كلمة الشر التي يراد بها الـحـرب .

اليها اصلا الا هو كان السبب فى طلبه القدوم اليكم ليرى اين تعقد حبل ما ذهب به يحله فاشتغلت انت واصحابك تشترطون عليه شروط التعنيف والتخويف كشروطكم الذين اريتموه مع غيره فنحن والحمد لله مخازنتا الملحوظة بعين رعاية الله مملوءة من كل خير مدخرة من فضل الله سبحانه من الاموال والعدة وآلات الحرب ما لا يعد ولا يحصى فما جاءنا شركم ولا صلحكم فى شيء وحتى وقع الكلام بينكم وبين خديمنا المذكور ها نحن زدناه من فضل الله سبحانه عزا وتفويضا فى جميع ما يظهر له العمل معكم ومع غيركم اذ (أ) لح على كثيرا ورغبتى فيما يرى من اصلاح المسلمين يتم امره فأذنا به وكملنا له فى كل شيء اهتم به وهكذا هو الامر فيمن يرونه واقفا على ساق الجد فى خدمة ضيفه وابن عائشة لا يخفى على احد لطول خدمته مقامنا الشريف فلو كان رماه الوقت ببلاد احد من اجناس النصارى بغير قصد وعقد معهم ما عسى ان يعقد به معهم وجاء به الى خاصة المسلمين وعامتهم لعملوا به وقبلناه فأحرى وكان عندكم بكتابنا الاسمى وبعثناه من حضرة بساطنا الاحمى ورديتموه بما قدمنا لكم، والآن ها نحن قلنا له يكتب لاصحابك ووزرائك الذين تكلم معهم فيما تكلم به وقد بقى فى قلبه ذلك فاذا كان ما يرضيه من صحيح القول والفعل مع اهل ديوانك فقد اذناه يتكلم معكم ومع غيركم انتهى اواخر شهر الله ربيع الاول المعظم قدره عام احد عشر ومائة وألف .

* * *

وتردفها اخرى بتاريخ 12 من جمادى الاولى من السنة نفسها وهى السنة التى ينتسب فيها الى ابن عائشة أنه تقدم بمشروع الخطوبة الملكية .

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لا اله غيره

من عبد الله المعتمد على الله المفوض اموره الى مولاه أمير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسنى ايده الله .

(الطابع)

الى لويس تظيم جنس فرانصية وصاحب كرسيها وولايتها سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسله ثم اهتدى.

اما بعد فاعلم ان خديمنا انباشظور (33) القبطان (74) عبد الله بن عيشة السلوى لما رجع الينا من عندكم وآب من وجهته اليكم وكنا نسأله عن احوالك وغاية تصرفك وعن احوال أهل ديوانك الخاص بك وعن صفة تصرفاتهم
وغاية تصرفك وعن احوال أهل ديوانك لخاص بك وعن صفة تصرفاتهم
بالنسبة اليك رأيناه وسمعناه يثنى ويذكرك بخصال الملوك ولا يقصر فى حقك بشيء من جميع ما يرجع الى أبهة الملك وقدر السلطة وناموسها وشروطها وقوانينها ويذكر ذلك بمحضر القواد والكتاب واكابر المملكة واعيانها ووجوهها ولا جحد لك بسرورا به ولا إحسانا اليه ولا اعتناء بشأنه وقط ما ذكر مسألة عنك تحط من منصب المملكة وواجباتها ومن جملة ما اخبرنا به عنك وعن ديوانك لما سألناه عنك وعن كيفية تصرفك وتصرفهم قال لنا انك ان احببت مسألة وعزمت عليها تعملها ولا يردك عنها اهل الديوان ولا يصدونك عن عملها وهم اذا ابرموا امراً وعولوا عليه وسمعته انت لا تمنعهم منه ولا تردهم عنه ولكن مع ذلك مرجع الحل والعقد يرجع اليك فى الحقيقة فأعجبنا ذلك واستحسناه منك ومنهم فان الملك لا يطلق عليه اسم الملك الا اذا كان له التصرف المطلق من غير حجر عليه وما رأينا هذا الرجل انباشاظور (74) غاظه الحال ولا تسبب بعض الرغبة لاهل الديوان عن رأيك ونظرك الا فى مسألة لم يذكرها لنا الا بعد مدة وهى مسألة ما اتى به من عند اهل ديوانكم وانهم قالوا لهم بيننا وبينكم كيرا(85) وذكر انك راودتهم على المهادنة معنا كثيراً وقلت لهم هادنوا هذا الرجل فلم يساعدوك وما ساعفوك وخاصمناه على تأخيره هذا الكلام عنا ولماذا لم يعلمنا به حيث جاء فاعتذر لنا وقال والله ما رأيت لذكر ذلك لضيفى نصره الله وجها ولا فائدة فديوان الفرنصيص ما معهم كبير تميز فى هذه المسألة وما عبت عليهم غيرها وفى اى شيء جاءونا سواء كانوا باص (86) او كيرا (85) فما عرفوا فى هذه المسألة شيئا ولا احسنوا فيها رأيا ولا تدبيرا ولا نظرا فالمعادات انما يحرص الناس فيها اذا هم رأوا

84) القبطان كلمة اسبانية Capitán واصلها لاتينى حديث والمراد به أمير البحر والمعروف فى التركية باسم قپودان وقد أخذوا الكلمة من الايطالية Capitano

85) يريد الحرب والكلمة اسبانية ايضا واصلها جرمانى Werra

86) يريد السلم والكلمة اسبانية Paz وأصلها لاتينى

غرة ينتهزونها او فائدة يحصلونا ويفوزون بها واى غرة يرى الفرنصيص في نواحي المغرب وماذا عسى ان يحصل عليه اذا اتته سفنه وقواربه وهب انهم ارادوا رمى البونبات (87) كعادتهم فعلى من يرمونها على الدوم والفسيح من الارض فما والاعم غير الدوم والساحل الذى لا يتضرر ببونبة (87) ولا غيرها من غاية حروبهم وحركاتهم وهل توهموا او ظنوا ان يعاملونا نحن كأهل تونس وطرابلس وادالةالجزائر فنحنوالحمد لله ما عندنا شيء بالكوشطة (88) نهتم عليهم إن هادنهم من اجله ولا يلحقنا ضرر منهم قلوا او كثروا فلا يجب علينا ان تخبر ضيفنا ايده الله الا بمن يروم رمى الغرب بالجنود والعساكر في البر ولا يخطر لهم ذلك على بال ولا طماعية لهم فيه بوجه ولا بحال اذ هو كما علمت من حيز المحال وعقل ملكهم لويس افضل وارجح واصوب من عقولهم في هذه المسالة فانه تحقق هذا وعرفه وميزه وكان يراودهم ويرغبهم في المهادنة حيث لم ير للكثيرا (85) معنا وجها ولا فائدة فعلمنا من كلام هذا الرجل انباشاظور (74) المذكور فضيلة عقلك ورجحانه على عقولهم وكذلك جرت عادة الله سبحانه ان عقول الملوك ايا كانوا تفضل عقول من عداها من الخاصة والعامة ثم لم نزل نسأله على حسب المؤانسة والمحادثة عن غاية بلادك ومساحاتها وبناءاتها فذكر لنا انه رأى هنالك بناءات اعجبته واستحسنها وشكر صناعها

87) يريد القنابل واحدته بونبة والكمة اسبانية Bomba واصلها لاتيني

8) يريد الساحل والكلمة اسبانية Costa كأصلها اللاتيني ويلاحظ على هذه الوثيقة بعض الاستعمالات العامية، مثل كلمة ضيف حيث لا يقصد بها معناها المعروف في الفصحى، بل المقصود بها كما تقول في العامية (اسيادى وضيافي) مثلا.

وهذه الملاحظة عامة فيما كاتب به المولى اسماعيل ملوك اوربا، وقد تطغى العامية على بعضها، ونادرا ما تخلوا مكاتبه هذه من الاستعمال العامي، والغالب ان ذلك من طبقة هؤلاء الكتاب الذين كانت توكل اليهم مكاتبات هؤلاء الملوك، فهم حينما يكتبون بالفصحى قد يرتكبون الحانا فظيعة، كأن يكتبوا ترسلون او تكتبون مثلا كأنهم ظنوا الاستعمال العامي في ذلك فتفصحوا فيه بلحنهم الفظيع

ومن الرسائل النادرة التي كادت أن تخلوا من العامية واللحن الرسالة التي بعث بها الى جيمس الثانيملك انجلترا والسبب في ذلك ان منموضوعاتها دعوته الى الاسلام، ومناقشة العقيدة المسيحية في عيسى وما الى ذلك من المسائل التي لا يخوض فيها الا أهل العلم بالدين ولغته العربية، ومع ذلك فقد وجدنا فيها التعبير : «خممت مع راسك» .

وفعلتها ومهندزيها الذين بنوها فقلنا له ماذا ترى ان نحن بعثنا لصاحب فرنصية لويس على ان يوجه لنا بعض الصناع البنائين من الذين شكرت واستحسنت صنعتم ايبعثهم لنا فقال لي كلما يطلب منه ضيفي نصره الله من مثل هذا واكثر منه اعز ما عنده قضاؤه بطيب نفس منه وقد عزمنا بتوفيق من الله أن ننشيء قنطرة من القناطر في مكان مستوعر مرتفع ومخفض يحتاج الى هندسة ونظر كبير فأحببنا منك ان توجه لنا بعض الصناع المعلمين البنائين الذين لهم النظر والخبرة بامور البنيان ونستوصى بهم خيرا ونجازيهم على عملهم احسن المجازات واذا كانوا يخدمون هنالك يومهم بريالة اعطيناهم نحن ريالتين تكبيرة بهم واحسانا اليهم وما زالت الملوك تتقاضى الحوائج فيما بينها وتهتم بأمور بعضها اى اهتمام في الجاهلية والاسلام ونحن مقتدون في هذا بسلفنا الصالح رضي الله عنهم وكانوا اقرب منا لزمان النبوءة والرسالة فلقد ذكر الواقدى رحمه الله وهو من الايمة الجلة ومن اكابر علماء هذه الملة ان الوليد بن عبد الملك بن مروان لما اراد تجديد المسجد الشريف بعث الى ملك الروم جدك ان كان لك به اتصال وكنت من اولاده بالحق كما تدعون وكما يذكر عنك واعلمه أنه أراد ان يجدد بالبناء مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وساله ان يبعث له اهل البناء العارفين باتقان البناء واهل الحذق من الفعلة والصناع فبعث اليه ملك الروم بمائة الف مثقال ومائة صانع فأمر الوليد عمر بن عبد العزيز قدس الله وجهه ان يتولى النظر في ذلك ففعل وكمل البناء على اكمل حال وافخم هياة واحسن بنية واتم اتقان وملك الروم على ولايته ونصرانيته والوليد امير المومنين على اسلاميته فهذه المسألة لا تتوقف فيها وكن مقتديا بمن سلف في شأنها واذا توقف لك عندنا غرض او حاجة لا يقدح قضاؤها في شيء من امور الدين قضيناها لك نحن كذلك عن طيب نفوسنا ثم اعلم ايضا ان انباشاظور (74) عبد الله بن عيشة المذكور أخبرنا عن زرد رآه عندك اذا انتم جعلتموه على لوحة يتحرك تحركا بينا فأذكرنا زردا كان لنا من الدروع الداوودية وانجلى لنا في الخزانة او غيرها ولا عرفنا يد من دخل هذه مدة تنيف على عشرين سنة فأحببنا ان نرى ذلك الدرع الذى عندكم نان فيه ما يرى على ما وصف لنا فيه انباشاظور (74) منك ان تبعثه الينا بنفسه حتى نراه على حسب الرؤية والمراجعة ونرده اليكم

74) واصلها Embaxador يريد السفير اخذ للكلمة من الاسبانية العتيقة لاتيني حديث.

كما جاءنا ان شاء الله تعالى ومثل هذه المسائل لا تتوقف فيها الملوك وتضن بها سواء كانت سلما او حربا بل هى من مفاخرهم فيما بينهم فنوكد عليك ان تعتنى ببعث ذلك الزرد على وجه الرؤية والرد على حال سبيله وتبعث لنا المعلمين البنائين كما احببنا منك للغرض المذكور وقد كنا اثرنا عليك وألمعنا اليك ببعض ما فى هذا الكتاب فى كتاب منا سطرناه اليك قبل هذا فالعمل عليهما معا وهذا غاية ما احببناه منك الآن والله ولينا فى السر والعلن وهو حسبنا ونعم الوكيل كتب فى الثانى عشر من جمادى الاولى سنة احدى عشرة ومائة والف .

بؤس وضياء

ترجمة ديوان شعر من الفرنسية Misères et Lumières للشاعر الفيلسوف الدكتور محمد عزيز الحبابي، عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ـ جائزة وزارة التهذيب الوطني لسنة 1959 ـ

والديوان على صغر حجمه، طافح بالنزعات الانسانية، والعواطف السامية، التي تحلق في عالم المثالية، الى حيث تختفي، ولا يستطيع متابعتها ببصره أو بصيرته، الا أفذاذ من بني الانسان، يحملون نفس الشعور الذي يحمله دكتورنا الانسان ويهيمون بتلك الصداقة العالمية التي هام بها دكتورنا المحب .

هو شعور وعاطفة وحب، ولكن كل ذلك، ليس سادرا في فسولة واستسلام، وانما هو بناء ثائر، وطني متحمس، متعشق للحرية في اقصى حدودها، لكنها حدود مسورة بالكرامة، والكرامة في اشمخ واسمق عروشها .

وعالم شاعرنا عالم لا نهائي، لا معالم فيه من معالم هذه الدنا، وان كان في بعض الاحيان، قد تطغى عليه بعض الشخوص، كما حصل منه في «آلو آلو»

كل اوراق حديقة لوكسمبورج
علينا شهود
كل شجرة هي صفحة في كتاب هوانا
وطموحنا الرصين

وكذلك تفرض عليه وطنيته الصادقة، التي ناله فيها اقسى امتحان وبلاء ان يكمن في هذا العالم المحدود بأحداثه ومآسيه، كما نجد ذلك في «عاشت الحرية» :

بينما الشجعان البواسل
يضفرون على جباههم اكاليل الظفر
ويمدون اليك أيدي
حطمت السلاسل
وطردت ابن عرفة الرهيب
وطمست بدمها النبيل
اسم الخونة والدساسين

والترجمة كما نرى، بالنثر الشعرى، لا تلتـزم تلـك الاوزان والقوافى، التى لا يحبها شاعرنـا المتحـرر مـن كـل قيد، ولو كان قيدا يوزن بميزان الذهب، ومع هذا قد تأسـره القافية فـى بعـض الاحيـاق، الا انه سرعان ما يتخلص منها وقد شعر باستبدادها، كما ان الوزن قد يسرقه، او يسارقه، واذا به يرتل فى «الحى للاتينى» .

بـحـق جنـون (...) القـبـل

ودمـع العواشـق اذ ينـحـدر
تـعال تعـال لحـى الشبـاب
لنصلـيهـا رشفـات الامـل
شباب بكـأس الهوى (قد) ثمل
تجمـع مـن كـل حدب وصوب
لمستقبـل مـن بطـون الكتـب
بنـى الحـب فـى قلبـه معبدا
هـداه الـى النـور بالمعرفـة
فيـا معـرضـا عز من معرض
بـه كـل لـون وكـل لسـان
يفيـض شبابا طـمـوح الفؤاد
ويـأمـل فيـه جميـع البشـر
يعيـد ابتسامـة دنيا السرور
يبيـد الظـلام يعيـد السـلام

غير انه يتلخص من هذا الوزن ـ المتقارب ـ كذلك، فيعود الى انطلاقه الطـلـيـق .

يا شبـاب
أرسلوها معركة ازهار

وعلى خلف مـا بيننـا فـى تقديـر الـوزن منى وعدم التقدير منه، فانى لتطربنى بصفة خاصة قصائده المنثورة التى عناوينها :

«.. ومن المهد خرجت الحمامة» و «الفلاح» و «عم صباحا ايها الاستقلال» و «كوخ فى مدينة القصدير» و «اختارت» و «انذار من الحرب» .

تعجبنى هذه اشد الاعجاب، وتأسرنى بانسانيتها الحنون، وثورتها العارمة وفرحاتها الكريمة، وصيحاتها الاصلاحية وتصويراتها الدقيقـة، وان كنت لا

اختار لقطعته «من سرق من الصيف ابتساماته ....» العنوان الذي وضعه لها «انذار من الحرب» لان تلك القطعة في شعرها أينـع بكثير من هذا العنوان الـجـاف .

واخيرا، فان ديوان الشاعر، يصور تصويرا حقا، صاحبه المؤمن بما يقول والقائل بما يومن، وهي مزية تزيد ديوانه جمالا وتضفي عليه بهاء، على حين لا تجد في غيره ذلك الصـدق ولا ذلـك الوعـي، وربما لا تفهم ما يقال، لان صاحبه لا يفهم ما يقول فيما ادعاه رمزا من الكلام، وقد تعرى من تلك الموسيقى التي ربما كانت تخدع الا ذان، فكانت الحملة شديدة قاسية، اصيب بشواظها الاخضر واليابس.

A SURVEY OF NORTH WEST AFRICA (THE MAGHRIB)
by NEVILL BARBOUR

وهو كتاب ألفه صديقنا المستشرق نبل بربر، عن افريقية الغربية الشمالية (المغرب الذى يعنى به المغرب الاقصى والجزائر وتونس وليبيا) .

وقد تناول فيه دراسة هذه الاقطار من نواحيها العديدة، مما يهمنا نحن الاطلاع عليه، كل ذلك تناوله بروح الاعتدال والاتزان والانصاف، وفى عرض شيق يغرى القارىء الاجنبى بالاطلاع على هذه البلاد التى كثيرا ما غبنت فى حقوقها، من قبل هؤلاء الاوربيين الدارسين، كما غبنت من اخوانهم المستعمرين... فجاءت دراسة الاستاذ بربر من بين تلك الدراسات القلائل المنصفة الوادعة .

ويهمنا بوجه خاص ان نعرض الى ما درس به المغرب الاقصى، فقد تعرض أولا لجغرافية البلاد وسكانها، وفى هذا الباب قال إن شواطىء المغرب على العموم، ليست فى طبيعتها صالحة للملاحة، لهذا لم يكن البربر رجال البحار ولا كان المغرب على اتصال بغيره من هذه الناحية الا فى بعض الفترات، كما تكلم عن أهمية طنجة بالنسبة الى الخارج لموقعها، فقال انها كانت فى غالب الاحيان تتصل بالخارج اكثر من الداخل ثم تعرض لتاريخ المغرب منذ القدم الى عهد مولاى الحسن الاول، ومن هناك انتقل الى عصرنا، الذى تعرض خلاله الى الحماية الاجنبية التى كانت قد فرضت على البلاد، والادوار التى كانت تقوم بها فى حكمها، من ادوار تمثيلية تتذرع فيها ببعض الاهالى الذين تختارهم لذلك، ثم تكلم على الحكومة وشكلها، وبهذه المناسبة تعرض للملك وموقف رعيته منه، وأنه حسب قواعد الاسلام يتمتع بالسلطتين الزمنية والروحية، كما تعرض لولاية العهد، وموقف الاسلام منها، منذ وفاة النبى ، الى بنى أمية، وكيف ان محمدا الخامس ــ رحمه الله ــ اعلن سنة 1957 ولاية عهده لمولاى الحسن، باعتباره اكبر اولاده، ثم تكلم عن الوزارات، فى عهد الاستقلال، ذاكرا منها ما استحدثه الاستقلال من اساسه مثل الحربية والخارجية، وما كانت بوادره موجودة فيما قبل، مثل التعليم، كما تعرض للاحزاب ونشأتها وما تعاقبت عليها من اسماء، وما تقبلت فيه من وزارات على استقلال او مشاركة، وفصل الكلام فى العدلية، والحربية، والخارجية، والسياسة الخارجية، والحياة السياسية والحزبية، والصحة، والتعليم،

والصحافة والاذاعة، والزراعة، والصناعة والتعدين، واتحادات العمال والنقل، والميزانية، والتجارة الخارجية واسعارها، والعمارة والسياسة .

ثم عقد فصلا هاما خصصه للعلاقات المغربية الاسبانية، فذكر ان الحفريات المتشابهة دلت على أن المغرب واسبانيا كانا على اتصال منذ زمن بعيد، فقد وجدت عاديات فى القطرين متشابهة ترجع الى الفى سنة، قبل الميلاد، أما فيما بعد من عهد الفنيقيين والقرطجنيين والرومان وما بعد ذلك فالامر واضح مسجل فى التاريخ، والفن المعمارى بالخصوص ظل حافظا على هذه الصلات بالرغم من تقلب الاحوال السياسية وغيرها، فهذه خيرالدا أخت الكتبية بمراكش، فالكتبية التى ذكر ان عبد المومن بانيها ومسجده بتنمل، كلاهما يتضح فيه الفن الاندلسى، تماما كما هو فى الخيرالدا وجامع سلا اللذين بناهما ابو يعقوب يوسف، ثم هذه جميعا لا تختلف عن جامع حسان الذى ابتدأ بناءه يعقوب، وقد امر ببناء اسوار الرباط، التى هى كذلك لا تختلف عن غيرها، وهكذا تعرض لهذه العلاقات منذ اقدم التاريخ الى سنة 1912 حيث كانت الحماية قد فرضت، ولم يهمل الاثر الفكرى فذكر ما كان له من وجود فى اولئك المستعربين، وما كان للاندلس منه منذ الفتح الاسلامى، ثم ايام عبد الرحمن الناصر، فالمنصور، ثم هذا التفاعل ايام المرابطين فالموحدين فالمرينيين، الى أن سقطت غرناطة، ولكن سقوطها لم يكن معناه ان كل شىء قد انتهى، بل استمرت الصلات بهؤلاء المهاجرين الى جانب ما كان عليه فيليبى الثانى من علاقة ودية مع المنصور السعدى، واما بعدهما فقد عادت الصلات تتجسم فى احتلال المعمورة والعرائش ثم فى استرجاع الجديدة من البرتغال، بعد ما استرجعت هاتان المدينتان من يد الاسبان، ومن الناحية العسكرية فقد كان فى جيش المرابطين اسبان كما كان فى جيش الموحدين أيام المامون، ومحمد بن عبد الله الذى اخرج البرتغال من الجديدة، كان على علاقة طيبة، مع كرلوس الثالث، بالرغم من تخلل بعض الحوادث حول مليلية وحجر بادس وسبتة، وقد ضربت عملته باشبيلية، ولما اعتلى العرش ابنه المولى يزيد الذى كانت امه من اصل انجليزى اذ كانت حفيدة لانجليزى اسلم أو ارتد كما يقول (والمعروف فى كتب تاريخنا ان امه كانت من اصل اسبانى) اصبح على علاقة ايضا مع الاسبان بالرغم من حربه لهم على حدود سبتة.

ولما اعتلى العرش المولى سليمان، سار على سياسة الصداقة مع اسبانيا وانحاز اليها فى عدائها لنبليون، بالرغم من تهديد اخيه جوزيف (الذى اعتلى

عرش اسبانيا بعد اقصاء كرلوس الرابع وابنه فرنند السابع عن هذا العرش) ثم عرض عليه تسليمه سبتة ومليلية مقابل اعترافه به ملكا، فأبى وظل على انحيازه للحلف الاسباني الانجليزى ضد الغزو الفرنسي، ولما تأسس المجلس الاعلى بقادس تحت حماية الانجليز، وضد الغزو الفرنسى كان المولى سليمان يستقبل وفدا عنه سنة 1810 .

ثم حصلت ازمات تمثل هذا الاتصال بقدر ما تمثل الانفصال، الا أن ممثلا انجليزيا كان يلعب دورا هاما في عودة الامتين الى صلاتهما الطيبة، واستمر هذا حتى في حرب الستين التى حدثت بين المغرب واسبانيا .

واخيرا يتعرض لبداية الحماية، تعرضا فاحصا نزيها، كما يتعرض لاحداثها مثل حرب الامير ابن عبد الكريم، وما كان لها من اثر، ثم تعرض لقيام الجمهورية الاسبانية الثانية التى سجلت في المغرب كحادث حاد، واخيرا تعرض لقيام الثورة الاسبانية وما اسهم فيها المغاربة، وموقف الخليفة السلطاني اولا وأخيرا، الى أن انتهى الى عهد الاستقلال الذى مهد له بمقدمة هامة استعرض فيها السياسة الاسبانية تجاه المغرب بعد موت الجنرال فريلا المقيم الاسباني، وقيام الجنرال فالينيو مقامه.

واخيرا اتى بفصل فصل فيه السياسة والحكم الاسباني بالشمال وموقف الخليفة من ذلك مما يعد جميعه في منتهى الافادة التى يهمنا ان يكون غيرنا من قراء الانجليزية على علم به وادراك له كما قلنا .

ديوان ابن دراج القسطلي

هي أمنية تحققت، بعد ما كانت نائية المنال، بفضل الامير علي بن الشيخ عبد الله، وهمة الدكتور محمود علي مكي، الذي حقق الديوان وعلق عليه وقدم له.

فكان تعليق صديقنا محمود بدعة من البدع التي احدثها في تعاليقنا العربية، بما جعلها مرجعا تاريخيا حافلا بالاحداث، التي لولا ذكرها لظل الديوان غامضا في كثير من جوانبه، وبما اشاع على اعلامه الاسبانية كواشف وضحتها لنا معشر القراء، وجمهرة الدراس.

اما التحقيق فهو الى حد بعيد بدع في باب تحقيق الدواوين، واخص الدواوين بالذكر، لان تحقيقها من العسير الذي يدركه كل من ركب الصعب او شاهده في تحقيق النصوص العربية، ولم يقف عند الحروف في ذلك، بل أضفى عليها حنة من شكلها، فازداد الاعجاب بالمحقق والتقدير لعمله.

واخيرا، بل اولا، تلك المقدمة القيمة، التي صدر بها الديوان، تناوله فيها بالدرس، في شخصية صاحبه وما طرأت عليه من ظروف، وهو ينشد أشعاره، وما كان لشعره من صدى في الغرب والشرق، وهي مقدمة فريدة في نوعها لا يجرد بها الا قلم محمود، الذي اذا حاول عملا اتقنه، في أمانة واخلاص، ناسيا نفسه وهو منهمك في تأدية رسالته العلمية.

ومع هذا فلا يفوتنا ان نداعب صديقنا، بما يداعب به الاصدقاء من توافه النكت ونكت التوافه، وهو أسلوب اعتاده منا منذ ربطتنا به روابط الصداقة والمودة : منذ عشر سنوات ...

مما استدل به الدكتور على كون ابن دراج «لم يشعر قط بعصبيته لنسبه الصنهاجي البربري» أنه «لا يرى بأسا في أن يهجو الزعيم البربري زيري ابن عطية...

وأرى ان هذا لا استدلال فيه بالمرة، خصوصا اذا كان زيري ليس من قبيل الشاعر، بل كان من ألد أعداء صنهاجة ومن اخلص الاصدقاء لخصومهم زناتة، التي من اعيانها مغراوة، قبيلة زيري بن عطية.

يذكر ان ابن خلدون علق على ولاية صنهاجة لعلي وولاية مغراوة ومعها سائر قبائل زناتة لعثمان بأنه لا يعرف سبب هذه الولاية ولا اصلها، وواضح من هذه اللهجة انه يوافقه في عدم هذه المعرفة .

وقد ذكر المؤرخون مثــل السلاوى، أن كبير مغراوة صولات بن وزمار، أسلم على يد عثمان او هاجر اليه مسلما، فولاه على قومه، فكان بيت صولات بهذه المزية نبيها فى قومــه مغــراوة وسائر زناتة، التى ظلت على ولائها عــمــومـا .

ونقرأ فى المقدمة «اما قسطلة، فقد اختلف حول تحديد موقعها المؤرخون الاندلسيــون والباحثــون المحدثون، اما ابن عبد المنعم... فلا تروقنا أما هذه الثانية، وكان الفاء خير ما يحل محلها، ثم يتصرف فى العبارة بعدها.

ويعلق على كلمة الزمام المستعملة فى الاندلس والمغرب، بقوله، ويبدو ان هذه الكلمة يقصد بها ترتيب للشعراء فى طبقات تتفاوت باختلاف مدى اجــادتهم» .

والواقع ان كلمة الزمام يراد بها السجل مطلقا، وحتى الان يشتق منها فى المغرب، فيقال زمــم كما يقال قيد فهى كلمة متأصلة فى عربتها، مأخوذة من الزمام، كما أن غيرها مأخوذ من القيد.

ويقول فهم لا يدرون الى من يقلبون وعمن يدبرون»

وكان على صديقنا محمود ان يستعمل «على» بدل «الى» فتكون العبــارة هكذا «فهم لا يدرون على من يقبلون وعمن يدبرون» اذا «الاقبال على» نقيض «الادبار عــن»

ثم استعمل فى صفحة 92 «أمكن لنا» وكــان عليــه ان يستعمل «امكننا» بدل ذلــك .

الى جانب هذا هنــاك بعــض المجازات حتى الآن لما نألفها واستعملها أو ابتدعها الدكتور محمود، مثل انقشاع الازمات وبث العقبــات ولسنا نعهد الانقشاع فى الازمات ولا البث فى العقبات ...

واخيرا فــان الديــوان بالرغم مما بــذل فيه من جهد ليخرج سالما من التصحيف، لم يسلم من ذلك، فجــاءت فيه تصحيفــات طباعية قليلة بالنسبة الى غيره من ابناء المطبعة وبناتهــا، جاء هذا التصحيف غالبا فى الشكــل أو

الاعجام ومن غير الغالب ما جاء في الحروف، باستبدال بعضها او زيادة عليه، فباتوا يراعون النجوم جاءت «ماتو» و «انا الدنا ببيض الايادى» جاءت «انار الدنيا...» و «للموت فى عين الجبان تلون» جاءت «فى عيش الجبان» وغير هذه مما لا دخل للدكتور فيه بالبتة وقد استدرك غيره فى جدول التصويبات، والمعتقد انه لو كان قريبا من المطبعة لما حدث ذلك ولا كان هذا الجدول البغيض الذى يطالعنا فى مطبوعاتنا ..

ومهما يكن فان عمل الدكتور فى هذا الديوان عمل عظيم، قلما نظفر به فى اخراج اى ديوان بالعربية حتى الآن .

LOS MUSULMANES ESPAÑOLES
Por Juan Vernet

من الكتب الهامة التى صدرت بالاسبانية هذه السنة، وهو على صغر حجمه، يقع فى ثمانية فصول، الفصل الاول فى الفتح الاسلامى للاندلس وعهد الامارات فذكر كتمهيد لهذا أن القوط دخلوا الاندلس كأمراء إقطاعيين، وانهم كانوا أقلية بالنسبة للاهالى الاسبان، وانهم ساسوا البلاد سياسة نفعية تقوم على روابط من المصالــح الجهويــة، الا ان الفتــح الاسلامــى وضع حدا لتلك السياسة، فاقام علائق أخرى لا تقوم على الصلات الانسانية فقط، ولكن اتى بدين جديــد غــزى الابيــض المتوســط علــى ذلك الحين، ولم يمض غيــر زمن يسير حتى ظهر فى القسم الجنوبى جماعة المستعربين، وان هذا الفتح تقدمته حملة استطلاعية بقيادة طريف 710، ثم كان الفتح 711 بقيادة طارق الذى كانت غالبية جيشه من البــربر، ومن غير شك انه كان متوفرا على ما يجب ان يعمل حسبه من المعلومات، ثم تلاه موسى بن نصير، ثم توجــه القوم فيما بعد الى جنوبى فرنسا، الى ان وصلوا قريبا من نهــر لوار، ولكن موقعة بواتيه 733 أوقفت زحفهم، فكانت اول انهزام للجيش العربى بالغرب .

والفصل الثانى فــى اوج عظمة الاسلام بالاندلس، تناول فيه انتصار عبد الرحمن الثالث (الناصر) على عمر بن حفصون، وما له من اهمية حيث اقترن ذلك بلقب امارة المومنين أو الخلافة التى استمرت من 929 الى 1031، بينما كان المهدي الفاطمى يعلــن انه الخليفــة بتونس، ولهذا كان الناصر قد احتل سبتة ومليلية، لضمان سلامــة الدولــة من هؤلاء العبيديين، ثم تعرض للمنصور واحتلاله مدن المغرب، وهكذا صار يذكر الناصر والمنصور وما قاما به من اعمال وفتح بالاندلس .

وفى الفصــل الثالــث تعرض كما يقول، للغزوات الافريقية، وغروب الاسلام الاندلسى، وابتدأ بالمرابطين، وما كان لهم من اعمــال وموقفهــم من المعتمد ومسالة الزلاقة، 1086، ثم تعرض للموحدين وما كان لهم من اعمال كذلك، وموقعة العقاب وما كان لها من اثر بليغ فــى كيــان هذه الدولة، ثم انتهى الى حركة الاسترداد، التــى أطاحــت بآخــر دولة اسلامية بالاندلس (بنى نصر) وما صاحب ذلك من احداث تتصل بالمرينيين والحفصيين .

وفى الفصــل الــرابع تعــرض للتاريخ الداخلى للاندلس، فوصف فيه الانظمة الاجتماعية، والطبقات وغيرها، والهيئة السياسية، والتدين والحياة

الاقتصادية والتجارية وهنا لاحظ أن الحياة الزراعية كانت بيد المسلمين بينما غيرها كان بيد المسيحيين واليهود ثم صار يفصل في هذا كله ويذكر مناطقه المتعددة .

وعقد الفصل الخامس للآداب، فتناول الشعر بصفة خاصة، وقسمه الى اغراضه المعروفة عندنا، ثم الى الخمريات والنوريات وغيرها، وذكر بعض الممتازين من شعراء الاندلس، من يحيى الغزال الى ابن زمرك وأتى بعدة أمثلة لشعرهم مترجمة، خصوصا منهم المعتمد بن عباد .

ثم تعرض في الفصل السادس لعلوم القرآن وفقه اللغة والفقه والحديث والتاريخ، والعلوم، والفلسفة، واللاهوت، والتصوف، والعلوم الرياضية، والتنجيم والعلوم الطبيعية، والطب، والجغرافية، والتقنى وذكر بعض من برزوا في هذه العلوم .

وفي الفصل السابع، تعرض للفنون الجميلة في الاندلس، فذكر في العمارة ان المسلمين بالاندلس كانوا مزخرفين اكثر منهم مهندسين معماريين، لهذا كانت آثارهم المعمارية يغلب عليها الطابع المحلي، وفي قليل من الكنائس يمكن ان نلاحظ الاثر الشرقي، ثم ذكر ان هذا الفن سار في طريقه صعدا على عهد المرابطين، الا أن الموحدين طمسوا آثاره ومعالمه خصوصا في المغرب، كما لاحظ على آثار الموحدين قتامة وعبوسا، اما بنو نصر فان آثارهم بالغت في الزخرف واستغلال الخط الكوفي فيه، وفي جميعها يبدو الانسجام التام سواء في المواد والاشكال والالوان، وساعدهم على هذا انهم كانوا يزخرفون على الجبص لا الحجر، وهذا لا يستدعي كبير قوة ولا عناء، ثم انهم اهتموا بزخرفة الداخل ولم يهتموا بالخارج، وهكذا كان مفصلا تفصيلا حسنا في هذا الفن متناولا اياه منذ العصر الاموي، فعصر الاستعراب، فملوك الطوائف، الى المرابطين فالموحدين فالنصريين فعصر المدجنين .

ولما تكلم على الفنون الجميلة الصغرى، ذكر على رأسها منبر جامع قرطبة الذي صنع ايام الناصر الثاني، ووصف زخارفه اعتمادا على المؤرخين المعاصرين، بأنها كانت تشتمل على صور حيوانات كرؤوس الافيال وغيرها، وهذا غريب جدا في منبر الخطب الدينية .

وفي الفصل الثامن والاخير تعرض للاندلس واسبانيا، فلاحظ أنه من العسير جدا ان نحدد مدى التأثير الاسلامي في الجزيرة الايبيرية، ذلك ان الاندلس كانت دائما هدفا للهجرات الشرقية، مما يكون له اثره فيما قبل

الاسلام بكثير، على أن هناك أشياء مائلة لا يمكن الشك في انها اسلامية ، وذلك ما هو موجود في اللغة من ألفاظ وتعبيرات، وعادات، مثل Ojalá التي هي اشاء الله، ومثلها Si Dios queire قد حللت دارك ha tomado usted posesión de su casa أقبل ايديكم beso sus piernas أقبل أرجلكم beso sus manos كما ان اعتبار الدين شيء جوهري في الحياة ما هو الا من تأثير الاسلام.

وبعد ما ذكر التأثير في التعابير، وانه موجود حتى في مسالة الاشتراك ان كان في العربية مثل ojos للعين المبصرة والعين الجارية، ذكر الالفاظ العربية التي دخلت الاسبانية، وغزتها في ميادين شتى ذكرها فهي مثل :

الفارس	alférez	الجبة	aljuba	السقية	acequia
القائد	alcaide	السراويل	zaragüelles	القادوس	arcaduz
الدرقة	adarga	القطيفة	alcatifa	البركة	alberca
الرباط	rebato	المخدة	almohado	الروز	arroz
الغارة	algara	الكرسي	alcorci	الزعفران	azafrán
المحتسب	almotacén	العود	alaúd	اللوبياء	alubia
الخزين	almacén	الطنبور	tambur	النورج	noria
الديوانة	aduana	الغرفة	algorfa	الستارة	acitara
التعريفة	tarifa	السطوح	azetea	الزيتون	aceitunes
البرنس	albornoz	الطابق	tabique	السندية (الدلاح)	sandia

وهكذا نقل عدة ألفاظ في عدة اغراض، ويعرج على ذلك بقوله ان ما نقله الاسلام الى اسبانيا له وزنه الهام، في تكوينها وانعاشها كما ان له تأثيرا غير مباشر في الناحية الروحية، اما في الناحية المادية فأثره مباشر واضح، وان اوربا ما اكتسبت من الثقافة الاسلامية الا عن طريق اسبانيا، وذلك في شتى العلوم والفنون، اذ ان حركة الترجمة بدأت في اسبانيا على عهد مبكر، في القرن الثامن، ثم اتسع نطاقها في القرن التاسع، وصارت الحركة تقوىا لى أن بلغت منتهاها في القرن الثاني عشر، وذلك بواسطة المستعربين الذين كان جلهم يهودا، ذكر بعض رجالهم البارزين في هذا، فمشكلة الاسلام والمسيحية لم تتعد نطاق المعرفة والصلات .

وبالجملة فالتأثير الاسلامي بارز في العلم والفلسفة والتصوف والالهيات وغيرها، وتعرض لمسالة المهزلة الالهية لدانتي، التي قال عنها

أثين بلاثيو بأنها مأخوذة من التوابع والزوابع لابن شهيد، بالنقاش الذى لم ينته به الى نهاية قاطعـة .

وهناك ملاحظة لابـد ان يلاحـظها القـارىء حينما يذكر عنوان الكتاب (الاسبا نالمسلمون) فان هذا العنـوان يـوحى الينا بأن صاحبه سيتناول تراجم هؤلاء الاسبان المسلمين فرادى او جماعات ويذكر ما لهم فى الاسلام أو يذكر لهم شيئا ما امتـازوا بـه أو شاركوا غيرهم فيه، ولكنه لم يفعل هذا وانما تناول فى كتابه ذلك العرض الـذى وصفنـاه بفصوله الثمانية فكان كتابه بذلك اجدر بأن يعنون بعنوان (اسبانيا المسلمة) كما فعل غيره مثل ليفى بروفنسال الـذى اعتمد عليـه المؤلف كثيرا، كما اعتمد على غيره من الذين مارسوا مثل هذا البحث من الكتاب الاسبان .

ومهما يكن فان الكتاب على صغر حجمه له اهميته من حيث الاستيعاب لموضوع اسبانيا الاسلامية، من جميع نواحيها، ومن حيث العرض والتنسيق الانيق، ثم من حيث الاتزان فـى تقديـر قيم الاشياء، وعدم التطرف لا فى هذا الجانب ولا ذاك وهذا الاخير له وزنه الخاص، وما عدا ذلـك فملاحظات قليلة سبق أن ألمعنا اليها والى اهميتها فى باب التاريخ بالخصوص .

القصـــة المغربيــة الحــديثــة

لمحمد الصادق عفيفي

لاول مرة يصدر بحث في هذا الموضوع المغربي، وهو موضوع اقتضى من جامعه كثيرا من الوقت والعناء فـي الاتصـال باصحابه وغير اصحابه، كما اقتضى منه ذلك في كتابته، دارسا فعارضا.

لقد جعـل عين القارىء تقع على شيء سماه القصة، ولسنا الآن بصدد ان نناقش ما اذا كان ذلك كله او بعضـه قصة على الحقيقة أو المجاز، إنما نحن الآن بصدد ان نشكر المؤلف على جمعه لهذا الشتات، الذي يسره لمن نشده، ووضعـه بيـن يدى القارىء يقرؤه متمليا أو مستفيدا منه في دراسة يقوم بها ان اراد، فالشكـر للمؤلـف الجامع الملخص أولا وأخيرا، والاعتذار اليه فيما نأخذ عليه من هنات، او نلحظ على عمله من مفارقات.

ولنبدأ بالمقدمة، فنجـده فـي اول صفحة منها يقول، فكم من حقائق واقعية، وفكـرات مهمـة، وتجـارب ناضجـة، وعواطـف خيرة، ومواد حية وعناصر شتى يمكـن ان يجدهـا القـاص فـي كفاح المغاربة، واستشهادهم في سبيل استرداد حقوقهم المغصوبة، كل هذا ذهب مع الريح.

هكذا يختم الكاتب قصة هذه الاشياء بأنها جميعهـا ذهبت مع الريح، فاذا اشركنا معه في الاسف والحزن على مصيرها هذا، وذهابها مع الريح كما ذهبت قصة اخرى مع الريح، اطلعنا على السر بقوله.

ذلك انها لم تلق الاديب الفنان، الذي يبدعها ويعبر عنها، تعبيرا مكتملا فيه اشباع، وفيه حيوية.

فيزداد بذلك اسفنا ويشتد حزننا، ويغمرنا اليأس الذى سرعان ما يتبدد عنا بقوله على الاثر.

وكثير من الاعمال الادبية غمرتها الظلمات، لانها لم تجـد يد الصناع الماهـرة التـى تخلقهـا، او انها لم تجد المطبعة ودور النشر التى تعاضدها، او المال والجهـة الرسمية التـى تشجعهـا، فهذا تاريخ السليماني وزيدان والمراكشي والسوسي، وهذه دواوين الشعراء وبواكير المسرحيات النثرية والشعرية كمسرحيـات (فـلان وفـلان وعلان من الاحياء والحمد لله) وتلك اقاصيص الرواد ترقد في اضابير المكتبات الخاصة، او بين ثنايا الصحف والمجلات المهراة التى كانـت تتساقـط كاوراق الخريف تحت مطرقة الرقابة

الاستعمارية فتموت، وبموتها يموت ما بين اوراقها، وسطورها من براعم ولبنات، ما كان احوجنا الى تعهدها، وتغذية روافدها، حتى يشتد سوقها لنجد منها، فيما بعد لبنات تصلح لان تشيد منها صرحا سامقا.

اذن فالدنيا بخير والحمد لله، فهناك اعمال ادبية على كل حال، من تاريخ وديوان ومسرحية وقصة، بالرغم من كونها كانت تتساقط كاوراق الخريف تحت مطرقة الرقابة، وهنا نسال كيف تتساقط اوراق الخريف او غيرها تحت مطرقة الرقابة او غيرها، فهل هناك خيال يسمح لنا ان نتصور الاوراق تتساقط تحت المطارق ؟ انها اوراق كانت تدب فيها الحياة لا محالة، ولهذا فهى تموت وبموتها يموت ما بين اوراقها وما بين هذه الاوراق ؟ بينها براعم ولبنات، نفهم البراعم بتجوز بين الاوراق، ولا نتصور مهما سمح لنا الخيال، هذه اللبنات بين هذه الاوراق او الاسطر، هذه البراعم واللبنات، ما كان احوجنا الى تعهدها وتغذية روافدها، حتى يشتد سوقها، لنجد منها فيما بعد لبنات (اخرى ولا شك) يبدو لنا ان الخيال افلت زمامه فقفز قفزات اضطرب معها حبل الكلام.

وتعجب مؤلفنا هذه اللبنة، واذا به يضعها فى اطار عصر الانبعاث الزاهر الذى قوم بناءه، وارسى قواعده، محمد الخامس وشعبه الحر الابى.

ويذكر ان اول مباراة للتاليف المسرحى كانت سنة 1929 اذ اعلنت جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية الفاسية عن مسابقة لقصة اخلاقية اجتماعية، فيفهم ان هذه المدرسة كان انبعاث وعيها صادرا عنها باعتبارها تابعة لجامعة القرويين .

والواقع ان هذه المدرسة لم تكن تابعة للقرويين، وان القرويين حتى ذلك الحين كانت الدراسة فيها لا تخضع لنظام السنوات ولا المواد بل كانت الدراسة فيها حرة لا تتبع اى نظام، الى ان كانت السنة التالية حيث نظمت الدراسات بها حسب الابتدائى والثانوى والنهائى.

وحينما يذكر عبد المجيد بن جلون يصفه بانه يترجم عن الروسية كما يترجم عن غيرها، ولا ندرى من اين استقى هذه المعلومات الروسية.

كما انه يذكر عبد القادر السميحى بانه يجيد بالفرنسية فن كتابة المسرحية، ونحن لا علم لنا بهذا مطلقا. فلا ندرى من اين استقى المؤلف هذه المعلومات الفرنسية .

وحينما يتكلم عن قصة عبد الجبار السحيمي الخبز، يقول يشعرك مدخل عبد الجبار بأنه مصرى، حيث يستعمل البواب وعمى بدل الشاويش والسى، وهذا ايضا من الخطأ، فالبواب والعم مستعملان جداً فى المغرب كذلك، وسيجد العم فى قصة الفاسى (عمى بوشناق) فلا يعلق عليها بما علق على السحيمى.

وحينما يقول الفاسى فى قصته لكم كان يبدو هذا الشارع فى زينة فاتنة حين يتلصص شعاع الشمس من خصاص الكرمة، فينفذ مرتجفا على شخوص السابلة والباعة، ومنتشرا بقعا شمسية تتراقص على حفافى الطريق يعلق على ذلك بقوله «ولا يدرك ما فى هذا الوصف من صدق الا من رأى فاس تحت الشمس والا من قرأ للمتنبى نونيته، والواقع ان ذلك غير لازم بالمرة.

الى جانب هذا هناك كلمات فى غير محلها مثل قط فى صفحة 18 واستعمال لا زال فى غير الدعاء والتكرار، وسوف لا تلبث فى ص 39 واحد القبائل فى صفحة 102 فهى أخوف ما تخاف هو ان يتحول فى صفحة 107.

ثم التعليقات التى يحيل فيها على كتب له حتى الآن لما تطبع، واخرى احال عليها على انها له وحده، وكان عليه ان يذكر على الاقل أن غيره مشارك فيها بالفعل لا بالقول والرسم وحدهما، ويذكر فى تعليق آخر ان موقعة وادى المخازن كان النصر فيها حليف احمد المنصور، مع ان الملك آنذاك كان اخاه عبد الملك، الذى توفى بعد الموقعة او كانت على وشك الانتهاء، فكتم خبر موته، ولم يبايع المنصور احمد هذا الا بعد الانتهاء تماما من الموقعة واعلان موت عبد الملك .

هذه اشياء ربما يتسامح فيها ولكن الاحسن الا يفعل ذلك، فتتناول الاشياء باهتمام وجد واتقان، ويقيننا ان الصديق عفيفى يسره من كل ناقد أن يبدى رأيه او ملاحظاته، ما دام الهدف خدمة الحقيقة المجردة.

العز والصولة في معالم نظم الدولة

لمؤلفه مولاي عبد الرحمن بن زيدان

صدر الجزء الاول من هذا الكتاب الطريف، الذي كان ينتظر صدوره، بكل لهفة، جمهرة قراء العربية من المغاربة، والمهتمين بتاريخهم، الحديث خصوصا.

والكتاب كما يبدو من عنوانه، خاص بنظم الدولة، ويعني بها الدولة العلوية، منذ نشأتها الى ايام ملكنا الراحل محمد الخامس قدس الله روحه، فهو كتاب خاص بهذه الدولة، ونادرا ما يعرج صاحبه على غيرها، من دول الاسلام، كما أن صاحبه قد يخرج عن هذه النظم او معالمها، الى بعض الاشياء المعتادة، في غير الدول ونظمها عامة، مما اشار الى بعضه، القائم على نشر الكتاب وتحقيقه، صديقنا الاديب الباحث، السيد عبد الوهاب بن منصور، الذي مهد للكتاب بدراسة قيمة، وسجل عليه بعض ملاحظاته المفيدة، فكفانا بذلك مهمة نقد الكتاب، وجعلنا نتصل به هو، فيما قام به من تعليق وتحشية عليه، وما ذيله به من ملاحق ومعاجم وفهارس متنوعة.

وهي تعاليق ليس في مستطاع غير ابن منصور ان يفي بها، ان لم يكن متوفرا على همة غير همته، ووضعية من الدولة مكنته من كثير تلك المعلومات وهنا تحمد للدولة يدها الطولى ...

ولم يرد صديقنا ابن منصور، ان يعلق بتلك التعاليق التي تهم المغاربة وحدهم، بل علق كذلك بأخرى يحتاج غير المغاربة اليها، وان كان قد ترك أخرى هم في حاجة اليها. كما انه لم يتحام تكرار بعض التراجم، خصوصا اذا كانت المناسبة تستدعي هذا التكرار، وغالبا ما تكون تصحيح خطأ او ازاحة غلط سبق في الاولى وهي على كل حال قليلة جدا، وبصفة عامة، فان تلك التعاليق، حول الشخصيات والبلدان والقبائل، تعليقات مفيدة للغاية، وقلما نعثر على بعضها في غير ما اثبته صديقنا وحمدناه للدولة التي لم تبخل على همته بمرغوبها، وما اقل من يستفيد هذه الاستفادة المثالية منها ...

والذي نريد ان نثبته بعد هذا من ملاحظات، هو ما يلي :

ورد في صفحة 163 تعليقا على العرائش ان المامون السعدي تنازل عن المدينة لفليبي الثاني، والواقع ان هذا التنازل كان لفليبي الثالث، ولم يكن للثاني، ولعل صديقنا اعتمد في هذا علي ما ورد في الخريطة التي وضعها

السيد المكناسي، لمدن المغـرب وذكـر ما ذكـره، من ان التنازل كان لفليبي الثاني، مع انه كاو قد مضى على وفاته بضع عشرة سنة .

وورد في صفحة 164 تعليقا على سبتة، ان الاسبان اقتطعوها من المغرب فيظهر ان المعلـق يـريد بذلـك اصرار الاسبان على هذا الاقتطاع، والا فان البرتغـال هـم الذيـن قامـوا بذلـك، بعـد بنى الاحمر، ولما ضمت مملكة البرتغال بمستعمراتها الى الاسبان، على عهد فليبي الثاني، كان مما دخـل ضمن الممتلكات الاسبانية سبتة، بطبيعة الحال. ثم لما عادت البرتغال الى استقلالها على عهد فليبي الرابع، سلمـت اليها مستعمراتها بما فيها طنجة والجديدة من المغرب، إلا سبتة فقد حصـل اتفاق بين الدولتين الغاصبتين على ان تظل هذه في حوزة الاسبان .

ورد في صفحة 188 وفي صفحة 416 ان الزقنيات من المغنيات، والصواب انهن الراقصات، رمنه المثل المغربي «يموت الزفان وما ينساشي هز اكتافو»

وورد في صفحة 191، ثم في صفحة 245 ان الكمنية بمعنى الزاد او الميرة كلمة تركية، ثم ورد في صفحة 417 انها (الكومنية) ربما تكون تركية، ومبلغ علمنا من هذه اللغة انها ليست منها، ومـن قبـل كنا قد علقنـا عليها، حينما نشرنا نصـوص اول معاهدة مغربية اميريكية، ووردت فيها الكلمة المذكورة انها ربما تكون اسبانية، مأخوذة من كمينو أي الطريق، فهي منسوبـة فيه بمعنى الزاد الذي يتزود به في السفر، وعلى كل حال فالكلمة ليست تركية قـطـعـا .

وورد في صفحة 408 و 417 ان طبجية كلمة تركية، ولكنها كانت تكتـب طوبجي، نسبة الى طوب، وهو المدفع .

وورد فـي صفحـة 499 ان كلمة اغا تركية، والواقع انها فارسية بمعنى السيد، ولكن المغاربة اخذوها عن التركية، التى اخذتها عن الفارسية، كما اخذت الايالة عن العربية، فأخذناها عنها وعلق عليها في نفس الصفحة بأنها تـركيـة.

وورد فـي صفحة 414 ان البراد يغلي فيه الشاي، والواقع انه يبرد فيه الماء، الذي يصب من «السخان» بقصد «اقامة اتـاي» فيصـب منه للاحتساء، ولهذا سمي «برادا» وسمي غيره «سخانا» .

هذه اشياء طفيفة، ولكنها عند بعضهم طريفة، ولهذا احببنا اثباتها، كما احببنا التنبيه، على ان كلمة بندق، فارسية متركة، ثم تعربت عندنا، فكلمة بنده فى الفارسية معناها عبد، والهاء الفارسية التى لا ينطق بها (المخفى) قد تقلب فى العربية الاصيلة قافا، وان كنا نرى ان الاصل كان كما ألمعنا اليه، بنده لك، اى العبودية، بصيغة المصدر الصناعى التركى ثم استعملت منها فى المغربية بندق بدل بنده لك، المصدر التركى (العبودية والخضوع) وبذلك يكون القصد «أدوا العبودية والخضوع»، وكلمة الطنجية المعروفة منسوبة الى طنجة، كما تنسب الى سبتة قارورة بعينها، تسمى «السبتاوى» .

اخيرا نهنى الصديق ابن منصور على عمله القيم، ونكبر فيه همته واخلاصه فيه راجين له التوفيق والسداد .

بقيت وحدي !

مسرحية شعرية، نظمها الشاعر الاستاذ ابو بكر اللمتوني، في نحو الف بيت، من مختلف الاوزان والقوافي وموضوعها عبارة عن تشخيص مأساة إقصاء محمد الخامس عن عرشه وإجلاس محمد ابن عرفة عليه، وما تخلل هذه القصة من احداث دكت في النهاية سرح الاستعمار والطغيان، ومهازل سايرت تلك الاحداث، ولكنها انتهت بانتهاء نشاط القائمين على تمثيلها ...

والمسرحية في حد ذاتها، من نوادر انتاجنا الشعري، سواء في موضوعها وفي صياغتها على انها في هذه الناحية بالذات، حاولت أن تتصل بأساليب اصحابها، الذين انطقهم الشاعر بما ناسب ان ينطقوا به من تعابير عامية، من مثل :

فرايت النجوم عند الزوال
و ... وياكل المخا
و ... يهذرون ...

هذه التعابير وردت على لسان عرفة، إلا أن الشاعر يوخذ عليه، انه لم يحافظ على هذا المستوى الذي جعل فيه صاحبه، بل أنطقه في مناسبات أخرى بأساليب بليغة عالية، وحكم لا تصدر الا عن الحصفاء البالغين من الثقافة ذروتها .

ثم انه الى جانب ذلك، يستعمل كثيرا من اساليب العامة من المصريين في مثل :

... شبعت موتا ...
و .... فقدت زبونا ...
و .... لتخرس
و .... اكنسن السلالم
و صباح الرحيق صباح العسل
و وسيرك الله في داهية
و دهاك العمى ...

ويبقى بعد ذلك، تعبيرات قليلة جدا، ليست واضحة مثل :

لاهم سما شعاها (بدل زعافا)

و ... من مشى او غدا (بدل راح او غدا)

ومن الناحية الفنية، كان الشاعر موفقا الى حد بعيد، فى تصوير الاشخاص، وذكر حيثياتهم، وفى استهواء النظارة، بمثل بعض الادوار الثانوية، التى لها اهمية من حيث الترويح والتسلية، وهى ناحية لابد ان يحسب لها حسابها، لان المسرحية، ان طالت كثيرا ما تمل النظارة، ولتنكب ذلك، يسعى المؤلف الى تخليلها بقصة صغيرة، او نكت حادة مضحكة، كما انه لا يهمل جوا آخر يعيش فيه المجتمع، فيعقب عليه بما يراه من نقد، لاذع يجريه على ألسنة العجائز وغيرهن .

وهو ما فعله المؤلف، وان كان قد وضع فيه اغنية سماها غناء (الاطلس) الى جانب (هل درى ظبى الحمى) و (ليل الصب) : وضع تلك الاغنية وكأن لها من الشهرة ما لهاتين مع أنى ما سمعت بها، وأظن ان غيرى ما سمع بها ايضا :

وينطق ابن عرفة بقوله :

ويجبرون على حبى بجلدهم

وكنت محبوبهم من دون جلاد

يريد بهذا الشعب، لكننا معشر الشعب لم نكن نعرف عن ابن عرفة شيئا، حتى نحبه او نكرهه فيما قبل المأساة المذكورة .

هذه مآخذ يمكن ان توخذ بها المسرحية، وسبحان الموصوف بالكمال..

احمد محمد صالح

الامثـال المغربيـة باللغـة العربيـة العامية

قرأت محاضرة الاستاذ محمد الفاسي التي ألقاها بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ونشرت بالعدد السادس 1961 من مجلة «تطوان» الغراء تحت عنوان: «الامثال المغربية باللغة العربية العامية» .

فاحببت أن اعلق عليها بما يأتي :

أولا : فيما يتعلق بالمجموعة الاولى من الامثال المغربية وما يقابلها من الامثال المصرية :

(أ) في صفحـة 26 تحت رقم 58 [كل خنفوس عند أمه عروس، يقابله من الامثال المصرية، الخنفسة عند أمها عروسة] هناك مثل آخر يقول «القرد في عين امه غزال» .

(ب) وفي صفحة 30 تحت رقم 77 [من بعد راسـي لا اخضارت، يقابله من الامثال المصرية بعد راسي ما طلعـت شمس]، هنـاك مثـل آخـر يقول «يا روحي ما بعدك روح»

(ج) وفي صفحة 33 تحت رقم 89 [على من كاتقرا زابورك يا داوود، يقابله المثل المصري تقرا مزاميرك على مين يا داود]، هناك مثل آخر في نفس المعنى «مين يقرا ومين يسمع» .

(د) وفي صفحة 35 تحت رقم 98 [فلس في الكف ولا عشرة في التلف يقابله المثل المصري جرادة في الكف ولا ألف في الهوا] هناك مثل آخر في نفس المعنى يقول «عصفور في اليد ولا الف على الشجـرة»

ثانيا : فيمـا يتعلـق بالمجموعـة الثانية التي قال عنها الاستاذ ان تلك الامثال المغربية لم يقف لها على مقابل في البلاد العربية الاخرى، فاني أورد «لبعضها» ما يقابلها من الامثال المصرية، ذاكرا رقم كل منها حسب ورودها.

1 ـ آش خصك يا العريان، الخاتم يا مولاى ـ زبال ومعلق وردة .

9 ـ الى حول على حمارة كايحج عليه ـ القرش الابيض ينفع فى اليوم الاسود .

10 ـ الى درقك بخيط درقه بحيط ـ اللى يبعد عنك شبر ابعد عنه متر او اللى يرشك (يقذفك) بالميه رشه بالدم .

12 ـ الى ما فيه سم العقرب فيه سم الوزغة ـ العيار (الرصاصة) اللى ما يصبش يدوش (يجلب الصداع)

15 ـ الى يفهمنى أحسن من الى يعطينى ـ لاقينى ولا تغدينى.

20 ـ بحال دى كايقرا ياسين على قلوب الكافرين ـ زى اللى يغنى على الطرش .

23 ـ تحركوا ترزقوا ـ اسعى يا عبد وانا اسعى معاك.

24 ـ تزول الجبال من رحابيها وما تزول شى الطباع من مواليها ـ يموت الزمار وصباعه بتلعب

26 ـ حتى شاب عاد علق الحجاب ـ بعد ما شاب ودوه (أرسلوه) الكتاب .

32 ـ دى كايتسحر مع الدرارى كايصبح فاطر ـ اللى يمشى ورا العيال ما يسلمش من العيوب .

33 ـ دى كايزرع السدرة كايحصد الشوك ـ اللى يعفر عفار يجى على راسه .

40 ـ كايقتله ويمشى فى جنازته ـ يقتل القتيل ويمشى فى جنازته .

44 ـ كن ذيب قبل ما ياكلوك الذياب ـ اتغدى به قبل ما يتعشى بك.

59 ـ على وجه الكتاب كاتتباس الجلدة ـ لجل (لأجل) الورد ينسقى العليق (السلق) .

60 ـ عمره ما حبا ومناين حبا طاح فى البير ـ جه يتمدن جاب لنفسه داهيــة .

61 ـ عند رخصه تخلى نصه ـ الرخص يجزع.

62 ـ غير الشيح والريح ـ يا مولاى كما خلقتنى (أى عريان) او أنضف (أنظف) من الصينى (الصحن) بعد غسيله .

68 ـ شارية الهم بدرهم ـ يروح للشر برجليه أو غاوى نكد.

71 ـ هو باقى ما وصل لـلارحام واحنـا فصلنا له قفطـان ـ يشترى السلبة (حبل تربط به البهائم) قبل الجاموسة

76 ـ يمارة الدار على باب الدار ـ الجـواب يتقـرى من عنوانه (وقد ذكره الاستاذ الفاسى فى المجموعة الاولى تحت رقم 53)

فهرست